﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾

تفسير

قَبَسٌ مِنَ القُرْآن

الجزء الثاني

من أول سورة المائدة إلى الآية ٤٩ من سورة يوسف

تأليف

آية الله العظمى

سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِّيّ

تعريب وحواشي

الدكتور سعد رستم

عنوان الكتاب بالفارسية
تفسير تابشى از قرآن

عنوان الكتاب باللغة العربية
تفسير قبس من القرآن
من أول سورة المائدة إلى الآية ٤٩ من سورة يوسف

تأليف
آية الله العظمى العلامة
سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِي
(١٣٣٠هـ-١٤١٤هـ.ق) الموافق (١٩٠٨-١٩٩٢ م)
www.borqei.com

ترجمة وتحقيق
د. سعد رستم

دار العقيدة
www.aqideh.com

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

الإشراف والإعداد
مجموعة الموحدين
www.mowahedin.com
contact@mowahedin.com

ح سيد أبو الفضل الرضا القمي، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القمي، سيد أبوالفضل الرضا
تفسير قبس القرآن. / سيد أبوالفضل القمي؛ سعد رستم- الرياض، ١٤٣٨هـ
١٦,٥ ×٢٤سم
ردمك: ٣-٣٠٧٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٣٠٧٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)
١. القرآن - تفسير أ.رستم، سعد (محقق) ب.العنوان
ديوي: ٢٢٧ ١٤٣٨/١٥٨٤

جميع الحقوق الفكرية والطباعية محفوظة

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح الإفادة من هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

توزيع شركة
مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023
هاتف مجاني: 920020207
ص.ب: 62807 الرياض 11595

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس ١

سورة الـمائدة ٣

سورة الأنعام.. ٥٦

سورة الأعراف ٩٣

سورة الأنفال.. ١٣٦

سورة التوبة ١٦١

سورة يونس.. ٢٢٣

سورة هود.. ٢٤٨

سورة يوسف ٢٧٣

سورة الـمائدة

مدنيّة وهي مئة وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [الـمائدة: ١].

الفوائد: كلمة «العقود» جمع عقد وهو اتّفاق بين طرفين يلتزم بموجبه كلٌّ منهما تنفيذَ ما جاء فيه، وكلمة «العقود» هنا مُطلقة وتشمل بإطلاقها كل عقدٍ ومُعاهدة مع الخالق أو مع الـمخلوق. فالآية أوجبت الوفاء بكل عقد ومُعاهدة، وَمِنْ ثَمَّ فكل عقود الـمُعاملات التي تتمّ بالتعاقد بين طرفين، واجبة الوفاء، أي على كل طرف أن يفيَ بمُوجب العقد، وبتعبير الفقهاء العمل بالعقد لازم، ولا يستطيع أحد الطرفين فسخ العقد إلا إذا كان يملك الحقّ في فسخه.

والـمقصود من جملة ﴿مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ الـمُحرّمات التي ذُكرت في الآيات ٢ و٣ و٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [الـمائدة: ٢].

الفوائد: الشعائر الإلهيّة التي نهى الله في هذه الآية عن استحلالها، وَأَمَرَ بتعظيمها ومُراعاة

حُرمتها، هي أعمال الحجّ وما جعل الله فيه من شعائر، أي علاماتٍ على العبوديّة لِلّهِ، مثل واجبات الإحرام والأمور الـمُحرّمة على الـمُحرِم أثناء إحرامه. ومثل الأشهر الحُرم وهي: ذو القعدة وذو الحجّة ومُحرّم ورجب.

و ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ الأنعامُ التي تُعدّ للتضحية بها في [حَرَم الله في] الحجّ، كالجمال أو الأبقار أو الشياه، و﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ الأشياء التي تُعلق على عُنق الإبل الـمُعدّة للتضحية بها.

والـمقصود بـ ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ زُوَّارُ بيت الله والكعبة الذين لا ينبغي الاستخفاف بحُرمتهم أو استحلال أموالهم ودمائهم.

أحد التعاليم الأساسية في الأديان الإلهيّة وجوب التعاون لأجل بقاء الـمُجتمع، فيجب على الناس أن يعاونَ بعضُهُم بعضًا في سبيل البقاء والتعايش، خلافًا للماديين الذين يجعلون من قانون تنازع البقاء قانونًا لهم.

والتعليم الآخر الـمُستفاد من هذه الآية قاعدة حُرمة الابتعاد عن العدل ومجانبة التقوى انطلاقًا من الحبّ أو البُغض، كما تَدُلُّ عليه جملةُ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ وتَدُلُّ عليه كذلك جملة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ أي لا يحملنّكم بُغضكم لقوم على أن لا تعدلوا في مُعاملتهم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الـمائدة: ٣].

الفوائد: كلمة ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ مُطلقة تشمل ميتة الحيوان الذي يحل لحمه وميتة الحيوان الذي لا يحل لحمه، والحُرمة في الآية مُطلقة أيضًا تشمل تحريم أكل ما حرّمته الآيةُ وبيعه، إلا أن صوف

ووبر وشعر وقرون الـميتة فهي طاهرةٌ لأنه لا روح فيها ولا حياة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ على حُرمة ذبح الحيوانات لغير الله سواءً ذُبحت للعريس أم للعروس أم للرئيس أم لآية الله أم للحاجّ أم غيرهم، والحيوان الوحيد الذي يحلُّ لحمه هو الذي يُذبح لِلَّهِ فقط.

والـمقصود من ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ الحيوان الذي اختنق سواءً بغاز أو بحبل أو باليد أو بغير ذلك.

والـمقصود من ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ الحيوان الذي ضُرِب بخشبةٍ أو هراوةٍ أو عصا أو حجرٍ أو حديدةٍ فمات.

والـمقصود من ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الحيوان الذي سقط من مكانٍ مُرتفع سواءً سقط من جبل أو من سطح بناءٍ أو من فوق جدارٍ أو نحو ذلك.

والـمقصود من ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ الحيوان الذي نطحه حيوانٌ آخر فقضى عليه.

والـمقصود من ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ الحيوان الذي افترسه أحد السباع مثل: الأسد أو النمر أو الفهد ونحوها. فإذا افترس سبعٌ ضارٍ حيوانًا ما وأكل جزءًا منه وترك بقيّة الحيوان، فإن لم يكن فيما تبقّى من الحيوان حياةٌ مستقرةٌ، أي ما يُمكّنه من مُواصلة الحياة، فهو ميتةٌ مُحرّمة، أما لو بقيت فيه حياةٌ مستقرة أي كان بالإمكان الإبقاء عليه حيًّا بمُعالجته من جراحه وإطعامه، فحينئذٍ يحلّ لحمه إذا ذُبح بالطريقة الشرعية بدليل جملة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ التي ذُكرت في الآية.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه لو كان الحيوان الـمذكور يركض برجله أو قائمته، أو يُحَرِّكُ أُذُنَهُ أَوْ ذَنَبَهُ، أَوْ تَطْرِفُ عَيْنُهُ، كانت به حياةٌ مستقرَّةٌ ويمكن تذكيته [بالذبح].

والـمُراد من ﴿مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أن تقوموا بذبح الحيوان بواسطة سكين أو آلة حادة فتقطعوا أوداج رقبته الأربعة مُستقبلين القِبلة وذاكرين اسم الله عند ذبحه أو قبل الشروع في ذبحه.

والـمُراد من ﴿ٱلْأَزْلَٰمِ﴾ كما جاء في التواريخ: عددٌ من القداح التي لا ريش لها ولا نصل، وكانت أزلامهم عشرة، يكتبون على الأول منها: «سهمٌ»، وعلى الثاني: «سهمان»، وعلى الثالث:

«ثلاثة أسهم»، وهكذا حتى القدح السابع يكتبون عليه: «سبعة أسهم»، ولا يكتبون شيئًا على الأزلام الثلاثة الباقية فهي لا أنصباء لها، ثم يأتون بجَمَلٍ باسم الأشخاص العشرة الذين كتبت أسماؤهم على تلك القداح وينحرونه، ويجعلون تلك القداح في صندوق ويقترعون فيه، أي يخلطون تلك القداح بعضها ببعض ويستخرجونها قدحًا قدحًا، فإذا كان مكتوبًا على قدح الشخص الذي سُحِبَ القدح باسمه: «سهمٌ» أعطوه ذلك السهم [من الجمل]، وإذا خرج للشخص قدح لم يُكتب عليه شيءٌ، فإن صاحبه لا يأخذ شيئًا من الجمل بل يجب عليه أن يدفع قيمة الجمل، وكان ذلك نوعًا من القِمار، فالقُرعة التي تكون مثل الاستقسام بالأزلام سواءً كان الـمُقتَرَع عليه جملاً أم سيّارةً أم ذهبًا أم فضةً أم نقودًا فهي حرام. أما لو قامت شركة أو جماعة من الناس بإجراء قُرعة ومنح جائزة من مالهم الخاص لمن يكسب القُرعة فلا حرج في ذلك.

والـمُراد من ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ ذلك اليوم الذي نزلت فيه سورة الـمائدة التي هي آخر السور نزولاً، وكانت جزيرة العرب قد خضعت كلها لسيطرة الإسلام، وقد يئس الكفار من اليهود والنصارى من إطفاء نور الإسلام، وانتشر اسم الإسلام في شرق العالـم وغربه فقال الله: لا تخشوا الكفار بل اخشونِي.

والـمقصود من قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ....﴾ ذلك اليوم الذي نزلت فيه سورة الـمائدة واكتمل الدين ورضيَ الله لعباده هذا الدين الكامل.

وقال بعضهم: إن هذه الجُملة تتعلّق بيوم غدير خُمّ وأنها نزلت في وسط هذه الآية ولا علاقة لها بأول الآية وآخرها، لكن كلامهم هذا لا يتّفق مع العقل ولا مع فصاحة القرآن، لأن الله الـمنّان أنزل آياتٍ مُترابطةً يرتبط أولها بوسطها وبآخرها، ولا يجوز لنا أن نَحُطَّ من قَدْرِ كلام الله ولا أن نتلاعب به -والعياذ بالله-، لأجل العصبيّات الطائفيّة أو لأجل روايات نقلها الرُّواةُ اللاحقون تقليدًا للسابقين.

وتُستفاد من جملة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ

رَّحِيمٌ۝٣﴾ قاعدة «الاضطرار»[١]، وهذه القاعدة تُحدِّدُ الحُكمَ الثانويَّ في حالات الاضطرار، أي أنه لو اضطُرَّ الإنسان إلى تناول الـمُحرّم، جاز له ذلك، بشرط أن لا يزيد عن مقدار الضرورة ورفع الحرج.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة: ٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ على جواز الصيد بواسطة الحيوانات الـمُعلَّمَة، أما الصيد بواسطة الحيوانات غير الـمُعلَّمة فهو حرام، وهذا من بركات العِلْم، اللهم إلا إذا لحق الصياد الذي يصطاد بواسطة حيوانات غير مُعلَّمَة بالفريسة الـمُصطادة قبل موتها، أي أدركها وهي لا تزال حيّة بحياة مُستقرة فقام بذبحها بالطريقة الشرعيّة، فعندئذٍ تكون حلالاً.

وتدل هذه الآية على جواز تعليم حيوانات الصيد وتدريبها والصيد بها، سواءً كان الحيوان كلبًا أم نسرًا أم صقرًا أم غير ذلك.

والـمقصود من جملة: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ تعليم حيوانات الصيد، ويتحقَّقُ التعليمُ بعدة أمور: الأول: أنك إذا أرسلتها ذهبت. الثاني: إذا منعتها امتنعت ورجعت. الثالث: أنها لا تأكل من الفريسة. الرابع: أن تكون على هذا النحو دائمًا إذ لا عبرة بالـمرة الواحدة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ...﴾ أن جواز الأكل يكون في حالة عدم أكل حيوان الصيد شيئًا من الفريسة بل احتفاظه بها لصاحبه، لذا قال رسول الله ﷺ لعديّ بن حاتم: «**إذا أرْسَلْتَ كَلْبَكَ الـمُعَلَّمَ فَقَتَلَ، فَكُلْ، وإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأكُلْ، فإِنَّما أمْسَكَ على نَفْسِهِ**»[٢].

١- ويُقالُ لها قاعدة: «**لا مُحَرَّم مع الضرورة**»، أو قاعدة «**الـمُحَرَّمُ يُباحُ عند الضرورة**».

٢- متفقٌ عليه، رَوَاهُ الأَئِمَّة السِّتَّة جميعًا. وانظر في الـمصادر الشيعية: الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٢٣/ ص ٣٣٧ - ٣٣٨، الروايات أرقام: ٢٩٦٨٦ و٢٩٦٨٧ و٢٩٦٨٨.

وحرف «مِنْ» في جملة ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن كان للتبعيض من الأفراد كان المعنى: كلوا بعض أفراد الحيوانات التي تمّ صيدها ولا تأكلوا من أفراد أخرى منها. مثل فريسة ابن آوى أو فريسة الثعلب أو التمساح وأمثالها.

إذا اعتبرنا ضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾ في جملة ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ عائدًا على ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم﴾ كان المعنى: اذكروا اسم الله لحظة إرسال حيوان الصيد المُعَلَّم فلو لم تفعلوا كانت الفريسة حرامًا. أما إذا اعتبرنا الضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدًا على ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾، صار المعنى: إذا أدركتم الحيوان الذي تمّ صيده فاذكروا اسم الله عند ذبحه.

وجملة ﴿أُحِلَّ لَكُمُ﴾ وجملة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ خطاب للمسلمين، وَمِنْ ثَمَّ فهي تدلُّ [بمفهومها] على أن صيد الكافر غير مُباح.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ...﴾ أنه يجب تعلّم ما شَرَعَهُ الله لأجل الصيد، ويجب أن تكون التعاليم الإلهيّة أساس كل تعليم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: ٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أنَّ كلَّ طعامٍ طاهرٌ حلالٌ إلا ما ورد النّص بتحريمه، فإن لم يكن هناك دليل على حُرمة طعام فالأصل أنه مُباح. والـمُراد من طعام أهل الكتاب مُطلق الطعام، مطبوخًا كان أم لا، لحمًا كان أم لا، ولكن لِحِلِّيَّة طعامهم شروط تُعلَم من خارج هذه الآية، كوجوب أن يذكر الكتابيُّ اسمَ اللهِ عند ذبحه للحيوان، فإن لم يذكر اسمَ اللهِ فلا تحلّ ذبيحته، ومنها أن لا يكون طعامه لحم خنزير أو شرابًا مُسكرًا وإلا فلا بدّ من ترك طعامهم في هذه الحالة.

والـمُراد من جملة ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نساء اليهود والنصارى اللواتي

أُحلّ للمسلمين نكاحُهُنَّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦].

الفوائد: ظاهر قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ...﴾ يَدُلُّ أنه كلما قام الإنسان للصلاة فعليه الوضوء حتى وإن كان مُتَوَضِّئًا، ولكن بمُلاحظة جملة ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ التي جاءت في ذيل الآية يُمكننا أن نُدرك أن الهدف هو الطهارة، فإذا كانت الطهارة حاصلةً لم يلزم تجديد الوضوء عند كل قيام للصلاة.

والمقصود من ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ ذلك المقدار من الوجه الذي يظهر عند التوجه لشيء.

والمقصود من ﴿ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ العظمتان البارزتان في كلٍّ من طرفي القدم، في مفصل الساق والقدم.

وَتَدُلُّ كلمةُ ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ على أن نهاية اليد في الوضوء هو المِرفق، وقد جاء في السنّة وجوب غسل المرافق ذاتها أيضًا. ولكن ظاهر الآية أن غسل اليد ينتهي عند المِرفق كما أن قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ يُفيد انتهاء وظيفة القدم عند الكعبين. ولكن السيد المُرتضى من علماء الشيعة قال في كتابه «الانتصار»، كما وافقه على ذلك عددٌ آخر من العلماء،: إن المُتوضِّئَ في الخيار بين أن يبدأ من المِرفق وينتهي بالأصابع أو العكس. وقال: إن كلمة ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ تدل على انتهاء المغسول (أي المِرفق) لا على انتهاء الغُسل. وفي رأيه أن الشروع من المِرفق أفضل وأقرب إلى العُرف.

وليس المقصود من جملة ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ الإرادة التكوينيّة التي تُوجب العِصمة، بل

الإرادة التشريعيّة التي تعني أن الـمُكلَّف يجب عليه شرعًا أن يُطهِّر نفسه، وعلى هذا النحو جاءت جملة ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ في [الآية ٣٣] من سورة الأحزاب بشأن أهل البيت.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾ [المائدة: ٧-١٠].

الفوائد: الـمُراد من ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ جنس النعمة، وإذا أُريد بالنعمة هنا الدِّيْن كان ذلك مُتناسبًا مع آية ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ﴾. والـمقصود من الـميثاق ميثاق العبوديّة الفطريّ، أو ميثاق الأنصار الذي أُخذ منهم عند جمرة العقبة في مِنى.

والـمقصود من ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ القيام ضد الظلم، والقيام لنشر العدل ولنُصرة الحقّ والحقيقة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ على وجوب العدل حتى مع الأعداء والكافرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة: ١١].

الفوائد: الـمراد من القوم في جملة ﴿هَمَّ قَوۡمٌ﴾ اليهود الذين أرادوا اغتيال رسول الله ﷺ، وقصة ذلك أن رسول الله ﷺ بَعَثَ الـمنذرَ بن عمرو الساعدي، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، في ثلاثين راكبًا من الـمهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة، فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة، وهي من مياه بني عامر، فاقتتلوا، فقُتِلَ الـمنذِرُ بنُ عمرو وأصحابُهُ ﷺ إلا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالة لهم، أحدهم عمرو بن أمية الضمري، فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء، يسقط من بين خراطيمها علق الدم، فقال أحد النفر: قُتِلَ أصحابُنَا، ثم تولى يشتد حتى

لقي رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال: الله أكبر الجنة ورب العالـمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم، وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما، وقدم قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون الدية، فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ﭫ، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات، قالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبي ﷺ راجعا إلى الـمدينة ثم دعا عليًّا فقال: لا تبرح مقامك، فمن خرج عليك من أصحابي فسألك عني فقل: توجه إلى الـمدينة، ففعل ذلك عليٌّ ؈ حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾[1].

وقال بعضهم الـمُراد من القوم في قوله تعالى: ﴿هَمَّ قَوۡمٌ﴾: «أن رسول الله ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ قَدْ تَجَمَّعُوا يُرِيدُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْ أَطْرَافِ الْـمَدِينَةِ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ «دُعْثُورُ بْنُ الْـحَارِثِ بْنِ مُحَارِبٍ»، فَخَرَجَ فِي أَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ وَخَمْسِينَ رَجُلاً وَمَعَهُمْ أَفْرَاسٌ، وَهَرَبَ مِنْهُ الْأَعْرَابُ فَوْقَ ذُرَى الْجِبَالِ، وَنَزَلَ ﷺ ذَا أَمَرٍ وَعَسْكَرَ بِهِ وَأَصَابَهُمْ مَطَرٌ كَثِيرٌ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَةٍ فَأَصَابَهُ ذَلِكَ الْـمَطَرُ فَبَلَّ ثَوْبَهُ وَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَادِيَ أَمَرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ نَزَعَ ثِيَابَهُ فَنَشَرَهَا لِتَجُفَّ وَأَلْقَاهَا عَلَى شَجَرَةٍ ثُمَّ اضْطَجَعَ تَحْتَهَا وَالْأَعْرَابُ يَنْظُرُونَ إِلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَتِ الْأَعْرَابُ لِدُعْثُورٍ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَأَشْجَعَهُمْ: قَدْ

١- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ٦ / ١٤٥ (طبع الحلبي)، والواحدي، **أسباب النزول**، ص٢٢٤-٢٢٥، والسيوطي، **الدر الـمنثور**، ٣ / ٣٧-٣٨، وابن هشام، **السيرةالنبوية**، ٢ / ٥٦٣.

أَمْكَنَكَ مُحَمَّدٌ وَقَدِ انْفَرَدَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ حَيْثُ إِنْ غَوَّثَ بِأَصْحَابِهِ لَمْ يُغَثْ حَتَّى تَقْتُلَهُ، فَاخْتَارَ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِهِمْ صَارِمًا ثُمَّ أَقْبَلَ مُشْتَمِلاً عَلَى السَّيْفِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ مَشْهُورًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟ قَالَ: اللهُ، وَدَفَعَ جَبْرَئِيلُ فِي صَدْرِهِ فَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَامَ عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: لَا أَحَدَ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَاللهِ لَا أُكْثِرُ عَلَيْكَ جَمْعًا أَبَدًا..»[1].

ويُمكن أن نقول: لقد سعى المشركون كثيرًا لقتل رسول الله ﷺ وحاصروه اقتصاديًا وقاطعوه هو وأصحابه، فدفع اللهُ عنه كلَّ ذلك، وابتلاهم بالفقر والجوع والجدب كي ينشغلوا عن رسول الله ﷺ وينصرفوا عن إيذائه، وهذه الآية تشير إلى كُلِّ ذلك.

﴿۞وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٢-١٣].

الفوائد: ذكر الله في هذه الآيات ميثاقه مع بني إسرائيل ونقضهم لذلك الميثاق كي يُنبّه المسلمين ويُحذِّرهم من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من نقض الميثاق.

والمُراد من جملة ﴿قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ تحجُّر القلوب وانعدام الرحمة فيها.

١- أمين الإسلام الطبرسي، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، ص ٧٨-٧٩، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٠/ ص ٣- ٤، نقلًا عن إعلام الورى وعن **المناقب** لابن شهر آشوب المازندراني. ونحوه في المصادر السنّيّة: **تفسير الطبري**، ٦ / ١٤٦، والواحدي، **أسباب النزول** ، ص٢٢٣-٢٢٤، **وسيرة ابن هشام**، ٣ / ٢٠٥-٢٠٦، والسيوطي، **تفسير الدر المنثور** ، ٣ / ٣٦.

تحتمل جملة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ معنيين: الأول: التحريف اللفظيّ، أي قيام اليهود بحذف بعض كلمات التوراة، أو الزيادة فيها والإنقاص منها، أو تقديم وتأخير بعض الألفاظ فيها. والثاني: التحريف المعنويّ وهو تفسير كلمات التوراة بمعانٍ مُخالفة للمعنى الحقيقي لها أو تأويلها تأويلات حسب أهوائهم كما يفعل بعض المسلمين في تأويلهم لبعض كلمات القرآن تأويلاً يُوافق أهواءهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

الفوائد: بعد أن بيّن الله نقض اليهود لميثاقهم، بيّن في هذه الآية نقض النصارى الذين يدّعون النصرانيّة، لميثاقهم، فقد أخذ اللهُ على النصارى الميثاق أن يعبدوا الله وحده وأن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ ولكنهم ابتعدوا عن التوحيد ولم يؤمنوا بنبوّة محمد ﷺ.

والمُراد من قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أنَّ العداوةَ بين فِرق النصارى المُختلفة أو بين اليهود والنصارى باقيةٌ إلى يوم القيامة، وهذا يدل على خطأ مَنْ قال: إنه عندما سيأتي المهدي الموعود ستزول جميع الأديان وسيبقى دين الإسلام فقط، لأن ذلك القول يخالف هذه الآية التي بيّنت أن دين اليهود والنصارى والعداوة والبغضاء بينهم باقية إلى يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

الفوائد: إحدى مُعجزات القرآن أنه بيّن لنا كثيرًا من الأمور التي كانت في كتب اليهود والنصارى السماويّة وكانوا يُخفونها عن الناس، رغم أن محمدًا ﷺ كان أمّيًا لا يعرف القراءة

والكتابة، ولا علم له بها في كتبهم.

والـمُراد من جملة: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أن الله تعالى عفا عن كثير مما أخفاه اليهودُ والنصارى ولم يُبيّنوه للناس، لأنه تعالى ليس قصده فضح الناس بلا سبب.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ أن الهادي هو القرآن لا رسول الله ﷺ وأن على رسول الله ﷺ هداية الناس بواسطة كلمات القرآن.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ [المائدة: ١٧].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ على أن الذين اعتبروا الـمسيح هو الله أو أعطوه صفات الله، وقعوا في الكفر، فإن قيل: مثل هذا القول [أي اعتبار الـمسيح الإنسان هو الله!] يُخالف العقل ولا يُمكن لأحد قوله، قلنا: بل هو مُمكن لأننا رأينا في زماننا هذا جماعةً اعتبروا أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الله -والعياذ بالله- وبعضهم الآخر أعطى لعليٍّ صفاتٍ إلهيّةً، وهم يفتخرون بهذا الكفر، وإذا لم يكن لدى النصارى مُرشدٌ كالقرآن فإن هؤلاء لديهم القرآن هاديًا ومُرشدًا، ورغم ذلك يفتخرون بهذا الشرك والكفر. هذا وقال بعض النصارى بالحلول، أي أن الله حلّ في عيسى عليه السلام فتبدل ناسوته إلى لاهوت وأصبح شخصًا ذا طبيعتين [إلهيّة وبشريّة] وهذا مُشابهٌ لعقيدة الغُلاة في الأئمَّة عليهم السلام، فالنصارى غلوا بحقّ شخصٍ واحدٍ هو الـمسيح، أما [فريقٌ من] الـمسلمين فَقد غَلوا بحقّ آلاف الأشخاص!

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: ١٨].

الفوائد: وضع علماء اليهود والنصارى لأنفسهم أخبارًا جعلتهم يغترّون ويعتقدون أنهم أحبّاء الله وأحفاد النبيّ، وأنهم بمثابة أبناءٍ لِلَّهِ، واغترَّ اليهود والنصارى بهذا الكلام وسُرّت به

قلوبهم، وأصبحوا جاهلين بكتابهم السماويّ. وهذا ينطبق أيضًا على بعض مُدّعي الإسلام في عصرنا الذين اعتبروا أنفسهم أحباب الله أو أحباب أحفاد النبيّ وأقنعوا أنفسهم بهذه العقيدة وسُرُّوا بها، وظلّوا جاهلين بأصل دينهم وكتابهم السماويّ. وروّج بعض الـمُتاجرين بالدين، الذين يبحثون عن الـمنفعة، لهذا الغرور ونشروه، وقد ذمّ الله اليهود لإيمانهم بمثل هذه الخرافات وغضب عليهم، فعلى الـمسلمين أن يقرؤوا هذه الآيات ولا يسمحوا لهذه الحيلة الشيطانيّة أن تخدعهم ويعلموا أنهم هم وأحفاد النبيّ كلهم بشرٌ كسائر أفراد البشر.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ١٩].

الفوائد: مدة الفترة بين حضرة عيسى ﷺ إلى زمن حضرة محمد ﷺ تُقارب ٦٠٠ سنة، ومعنى الفترة: الضعف وبرود النشاط، ففي مدة الفترة لم يكن هناك حركةٌ للرسل، وإذا كان هناك من نبيّ فلم تكن له السيطرة والقوَّة، مثل الرسل الثلاثة الذين ذكرهم الله في سورة يس، ومثل خالد بن سِنان العبسيّ[1].

١- كتب الشيخ حسين المؤيد -أحد المهتدين الشيعة إلى الحق والتوحيد والسنة- مقالاً علميًّا مفيدًا حول مسألة وجود أنبياء في الفترة الواقعة بين عيسى ﷺ ومحمد ﷺ، رأينا أن نقدمه للقراء الكرام توضيحًا لهذه المسألة:

«ذهب جمع من العلماء إلى وجود أنبياء في الفترة الواقعة بين عيسى عليه السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، واستدل لذلك بقوله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ [يس: ١٣-١٤]، فقد ذكر المفسرون أنها قصة ثلاثة من الأنبياء أرسلوا بعد عيسى ﷺ. وردّ بعض المفسرين على ذلك بأنهم لم يكونوا أنبياء وإنما أرسلهم عيسى ﷺ- وقد كانوا من حوارييه وتلامذته - للدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد وترك عبادة الأصنام. ولكن هذا الرد لا ينسجم مع ظاهر الآيات الكريمة المتعرضة لهذه القصة، فمضافًا إلى أن ظاهر عبارة ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ هو أنهم رسل من قبل الله عز وجل

وكذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ: ٤٤] حيث أن نسبة الإرسال إلى الله تعالى ظاهرة في كونهم أنبياء مبعوثين من الله عز وجل. أقول مضافًا إلى ذلك دلالة قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس: ١٥] فإنهم لو كانوا مجرد دعاة أرسلهم عيسى عليه السلام لإيصال الدين المسيحي إلى تلك القرية لم يكن هناك وجه للاعتراض عليهم بأنهم بشر، فإن هذا الاعتراض كان يوجه من الكفار إلى مدعي النبوة والإرسال من قبل الله عز وجل وليس إلى الدعاة والمصلحين من غير الأنبياء.

لكن الصحيح في الرد أن يقال: إنه لم يثبت أن زمان بعثة الرسل الثلاثة كان بعد عيسى عليه السلام، إذ لا يوجد في الآيات ما يسعف في تحديد الزمان بذلك، فيمكن أن تكون بعثتهم متقدمة، لاسيما وأن قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] تدل على إهلاك هذه المدينة بالصيحة، وهي حادثة مهمة ومثار توجه من الناحية التاريخية تتوفر الدواعي على نقلها وانتشار خبرها على نحو ما حصل لأبرهة مثلاً، مع أنه لا يوجد من ذلك شيء تاريخيًا مع أن الفترة تلك تعتبر تاريخيًا - لو كانت في عصر عيسى أو ما بعده - قريبة ولا يذهب خبرها أدراج الرياح، مما يؤكد أنها حصلت في فترة أسبق بكثير.

كما استدل بأحاديث عن بعثة نبي باسم خالد بن سنان، والروايات حوله مذكورة عند السنة والشيعة، إلا أنها محط مناقشة لا سيما الروايات التي تذكر قرب عهد نبوته بعهد نبينا المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فإنها بذلك تكون منافية لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩] فالآية الكريمة واضحة الدلالة على أن بعثة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أتت بعد انقطاع وسكون في بعثة الأنبياء، والمقصود بالرسل في الآية الكريمة هو المعنى الأعم الشامل للأنبياء وليس المعنى الخاص الذي يتمايز به الرسول عن النبي، فلا يصح أن يقال إن الآية الكريمة تدل على انقطاع الرسل وليس الأنبياء، ووجه دلالة الآية على المعنى الأعم هو احتجاجها على أهل الكتاب أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير أي من مبلغ عن الله تعالى نبيًا أو رسولاً، فكل من الرسول والنبي هو بشير ونذير، فالآية تقول إننا بعثنا لكم رسولنا بعد سكون وانقطاع كي لا تحتجوا بأنه لم يأتكم بشير ونذير، ومن الواضح أنه لو كان في زمن الانقطاع قد جاء اليهم نبي حتى لو لم يكن رسولاً لكان قد جاءهم بشير ونذير ولما صح أن يقال لهم إنا بعثنا رسولنا بعد انقطاع كي لا تحتجوا بأنه لم يأتكم بشير ولا نذير. نعم هذه الآية لا تصلح دليلاً على أن زمن الفترة كان مستوعبًا لما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ
ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا
دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ
أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

الفوائد: بيّن الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ في هذه الآيات سوء قوم موسى وكفرهم، كي لا يتعجَّب رسول الله ﷺ من كفر قومه ولا ييأس. وقد قال موسى عليه السلام لقومه: لقد أعطاكم الله

لصدق الفترة على ما هو أقل من ذلك بكثير، فلا يمكن الاستدلال بها على نفي بعثة نبي خلال كامل تلك المدة الزمنية.

إذن نخلص إلى أنه لا يوجد دليل معتبر على بعثة نبي بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. بل تدل على عدم بعثة نبي في هذه الفترة رواية أبي هريرة رضي الله عنه التي أوردها مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنه قال: «و ليس بيني وبين عيسى نبي»، ودلالتها على النفي واضحة جدًا. ويوافقها الاعتبار، لأن وجود نبي أو أكثر بين عيسى ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام - وهو مقطع من المقاطع الزمنية التي تعتبر قريبة تاريخيًّا وفي متناول الاهتمام التاريخي في وقتها وبعده - لا بد أن يذكر عادة لتوفر الدواعي على ذلك لا سيما وأن حركة ذلك النبي بما لها من أنصار ومعارضين ومعجزات لا بد أن تترك عادة أثرا اجتماعيا يجعلها حديث الناس ويسجلها التاريخ ولو بنحو مقتضب أو منقوص، مع أنه لا يوجد في التاريخ أثر لذلك، الأمر الذي يؤشر إلى عدم تحققه. وأضف إلى ذلك أن عدم ذكر القرآن الكريم قضية وجود نبي أو أكثر في الفترة ما بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام يعتبر مؤشرا آخر يدعم قضية النفي. وأما النبي يحيى عليه السلام، فالصحيح أنه قضى أيام عيسى عليه السلام، فلم تستمر نبوته إلى ما بعد عيسى عليه السلام». [المُصحح]

الـمُلك والنبوّة وسائر النِّعم التي لم يُعطِها لأحد فاشكروا الله على نِعمه وأطيعوه وادخلوا أرض الشام وجاهدوا الكفار العمالقة ولا ترتدُّوا على أدباركم وتُديروا ظهركم لهذا الجهاد، وإلا كنتم من الخاسرين.

وقد عُبِّر عن أرض الشام بعبارة ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وأحيانًا عُبِّر عنها بالأرض ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لأنها أرضٌ مليئةٌ بالـمياه والأشجار والنِّعم، بالإضافة إلى أنها كانت مسكن الأنبياء والأولياء. فلم يُطع اليهود موسى ﵇ ورفضوا الذهاب إلى القتال مُعتذرين بحجج وأعذار واهية مُختلفة وخافوا من قوم العمالقة الذين كانوا عُظماء البُنية، وكان قوم موسى من اليهود يقولون: نحن بالنسبة إلى أولئك العمالقة كالجراد، ووصل بهم الأمر إلى قولهم لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون فإذا غُلِب العدو جئنا إليك، فعاقبهم الحقّ تعالى على هذا العِصيان بالتيه والحيرة في بادية مصر والشام أربعين عامًا، إلى أن تُوفّي موسى وهارون ﵉.

ويُمكن أن يكون الـمُراد من الرجلين في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: «يوشع بن نون»، و«كالب بن يوفنا» ويُمكن أن يكونا رجلين من أهل الشام من العمالقة هداهم الله، فكانوا يُرغِّبون بني إسرائيل بدخول الأرض ويقولون لهم: إذا دخلتموها ألقى الله الرُّعب منكم في قلوب العمالقة، وعندئذٍ ستنتصرون عليهم بسرعة وسيفرُّون منكم.

﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الـمائدة: ٢٧-٣١].

الفوائد: لما بيّن الحقّ تعالى صفات اليهود السيِّئة الخسيسة وإيذاءهم لبني جنسهم، بيّن في هذه

الآيات بشكل ضمنيّ أن ابنَيْ آدم لم يكونا على هذا النحو في بداية أمرهم. وكانت قصة ولدي آدم في البدء على النحو التالي:

«كانت حواء تلد في كل بطن غلامًا وَجاريةً، فولدت أول بطن قابيل بن آدم، وَقيل قابين وَتوأمته إقليما، وَالبطن الثاني هابيل وَتوأمته لبوذا. فلما أدركوا جميعًا أمر الله آدم أن يُنْكِحَ قابيلَ أختَ هابيل، وَهابيلَ أختَ قابيل، فرضي هابيل وَأبى قابيل لأن أخته كانت أحسنهما، وَقال: ما أمر الله بهذا وَلكن هذا من رأيك، فأمرهما آدم أن يقرِّبا قربانًا فرضيا بذلك، فغدا هابيل وَكان صاحب ماشية فأخذ من خير غنمه زبدًا وَلبنًا، وَكان قابيل صاحب زرع فأخذ من شرِّ زرعه، ثم صعدا فوضعا القربان على الجبل فأتت نار فأكلت قربان هابيل وَتجنبت قربان قابيل، وَكان آدم غائبًا عنهم بمكة، خرج إليها ليزور البيت بأمر ربه، فقال قابيل: لا عشت يا هابيل في الدنيا وَقد تُقُبِّل قربانك وَلم يتقبل قرباني وَتريد أن تأخذَ أختي الحسناء وَآخذَ أختك القبيحة، فقال له هابيل: ما حكاه الله، فشدخه بحجر فقتله...

ولما قَتَلَ قابيلُ هابيلَ، تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فقصده السباع، فحمله في جراب [أي كيس كبير] على ظهره حتى أَرْوَحَ [أي ظهرت منه رائحة نتنة]، وَعكفت عليه الطير وَالسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وَبِرِجْلِهِ ثم ألقاه في الحفيرة وواراه، وقابيل ينظر إليه، فدفن أخاه.

وقيل: إن آدم لما علم أن قابيل قتل هابيل حزن لذلك واغتمَّ وقال:

تغـــيرت الـــبلاد وَمـــن عليهـــا ... فوجـــه الأرض مغـــبر قبـــيح

تغـــير كـــل ذي لـــون وَطعـــم ... وَقـــل بشاشـــة الوجـــه الصـــبيح[1]

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ١١/ ص ٢١٨- ٢١٩.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: ٣٢].

الفوائد: إنْ قِيلَ: كيف جعل الله قتل نفسٍ واحدةٍ كقتل جميع البشر؟ قلنا: إن تشبيه الشيء بشيءٍ آخر لا يستلزم تطابقهما في جميع الوجوه، بل يكفي أن يتطابقا في بعض الوجوه، وهنا يُمكن أن نقول: إن تشبيه قتل نفسٍ واحدةٍ بقتل جميع الناس سببه أو وجه التشابه فيه هو تطابق الفِعلين في العِظم والخطورة والأهميّة، فكما أن قتل جميع البشر إثمٌ عظيم فإن قتل نفسٍ واحدة إثمٌ عظيم أيضًا، ويُمكن القول: كما أن على الناس منع من ينوي قتل جميع البشر عن تنفيذ نيّته فعليهم أيضًا منع من ينوي قتل نفسٍ واحدة عن ذلك، فوجه التشبيه هو لزوم منع تحقيق هذا الفِعل، ويُمكن أن نقول: إن من يقصد القتل يكون تابعًا لشهوته وغضبه سواءً كان يُريد قتل شخص واحد أم جميع البشر، فوجه التشابه هو اتِّباع الشهوة. ووجوه التشابه هذه ذاتها تنطبق على تشبيه إحياء نفس واحدة بإحياء نفوس البشر جميعهم.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

الفوائد: المقصودُ من محاربة الله ورسوله: محاربةُ المسلمين. وكل من أخذ بيده سلاحًا لترويع المسلمين في الليل أو النهار، سواءً اعترض طريق الناس في البادية أو في المدينة، وجب إقامة الحدِّ عليه طبقًا لما يراه الحاكم، فإذا قتل المحارب شخصًا وجب صلبه وإذا لم يقتل ولكنه أخاف الناس وسرق أموالهم وجب قطع يده ورِجله من خلاف، وإن لم يقتل ولم يسرق وجب نفيه من الأرض، أي إبعاده. إذن على الحاكم أن يُطبّق الحدّ على المحارب طبقًا لحكم الله لا طبقًا لحكمه هو.

وينبغي أن نعلم أن ما يُستفاد من الكتاب والسنّة في هذا المجال أن على علماء المسلمين كافة من أهل الحلّ والعقد أن ينتخبوا حاكمًا شرعيًّا ورئيسًا مُنفذًا لأحكام الشرع، فلا يجوز أن يقوم أهل مدينةٍ أو زاويةٍ أو منطقةٍ خاصةٍ من نواحي البلاد الإسلامية وحدهم باختيار الحاكم، بل لا بدّ أن يتم هذا الاختيار مِنْ قِبَل جميع أهل الحلّ والعقد في الأمة، فإذا تمّ انتخاب الرئيس -ويُقال له أيضًا الإمام- انتخابًا حرًّا وكان حكمه قائمًا على دستور العقل والقرآن وجبت طاعته.

إذا عرفنا ذلك فينبغي أن نعلم ما الذي قاله القرآن بشأن تطبيق حدّ الحِرَابَة؟ ثمّ ننظر يا تُرى هل التزم الإمام والحاكم بتطبيق حكم الحِرابة كما جاء في القرآن أم لا؟ وقد ذكر الطبرسي في مجمع البيان (المجلد ٣) في توضيح هذه الآية: «قال أبو جعفر وأبو عبدالله عليهما السلام: إنّما جزاء المحارب على قدر استحقاقه، فإن قتل فجزاؤه أنْ يُقتَلَ، وإنْ قَتَلَ وَأَخَذَ المالَ فجزاؤه أنْ يُقتَلَ وَيُصْلَب، وإنْ أخذ المالَ ولم يَقْتُل فجزاؤه أن تُقْطَعَ يَدُهُ ورجلُهُ من خلاف، وإن أخاف السبيل فقط فجزاؤه النفي لا غير، وبِهِ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والربيع».

وذهب أكثر العلماء والمُفسرين أيضًا إلى هذا التفسير المُوافق لكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وذكروه في كتبهم.

وخلاصة الأمر في المسألة، أن الآية ذكرت أربع عقوبات للمحاربين المُفسدين في الأرض، وعطفت كل عقوبة على الأخرى بحرف ﴿أَوْ﴾، وهو في الأصل حرفٌ يُفيد التخيير، ولكنه هنا ليس للتخيير أي ليس المُراد أنه للحاكم أن يختار أيًّا من تلك العقوبات الأربع ويُطبّقها على كل محارب، بل حرف ﴿أَوْ﴾ هنا لتفصيل أنواع الجزاء والعقاب، وحتى لو قلنا إنها على معنى التخيير، فإن التخيير معناه أن الإمام والمُنفِّذ للأحكام مُخيّرٌ بين تلك العقوبات وأن عليه أن يختار العقوبة التي تتناسب مع جُرم المحارب، ولا يُمكن أن يكون المقصود أن يختار أيًّا من تلك العقوبات طبقًا لهواه وميله، إذْ ذَكَرَ اللهُ تعالى للفساد درجات من العقاب لأن للإفساد في الأرض درجات متفاوتة، فيُمكن لأحد المحاربين أن يرتكب القتل وهتك الأعراض وسلب الأموال ونهبها وإرعاب المسلمين، فجُرم هذا المحارب لا يتساوى مع جُرم من اكتفى بالإرعاب فقط ولم يقتل

ولم يسرق ولم يهتك عِرضًا، فالقتل عقوبة من ارتكب القتل، والصلبُ جزاء من ارتكب القتل مع هتك الأعراض وسلب الأموال، وقطعُ اليد والرِّجل من خلاف عقوبةُ من سرق الأموال، والنَّفيُ من الأرض والإبعادُ هو العقوبة المُناسبة لمن لم يقتل ولم يسلب مالاً بل أرعب الناس بأسلحته، ويجب على الإمام العادل أن يكون مظهرًا للعدل والرحمة ولا يجوز له أن يُعاقب بالقتل أو الصلب من لم يرتكب جُرمًا سوى ترويع الناس، لأنه لو كانت عقوبة المحارب هي القتل والإعدام فقط لما ذكر الله تعالى النَّفي وسائر العقوبات.

وليس في قول الأئمَّة عليهم السلام ما يُخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ نجد في وسائل الشيعة (المجلد ١٨/ ص ٥٣٤، الطبعة الجديدة)، رواياتٍ تذكر أن الراوي يقول: «سَأَلْتُ الإمام الصادق عليه السلام عَنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ وَقُلْتُ: النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّ الإِمَامَ فِيهِ مُخَيَّرٌ أَيَّ شَيْءٍ شَاءَ صَنَعَ؟ قَالَ: لَيْسَ أَيَّ شَيْءٍ شَاءَ صَنَعَ، وَلَكِنَّهُ يَصْنَعُ بِهِمْ عَلَى قَدْرِ جِنَايَتِهِمْ: مَنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ فَقَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ وَصُلِبَ. وَمَنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ فَقَتَلَ وَلَمْ يَأْخُذِ الْمَالَ قُتِلَ. وَمَنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ فَأَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ. وَمَنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ فَلَمْ يَأْخُذْ مَالاً وَلَمْ يَقْتُلْ نُفِيَ مِنَ الْأَرْضِ».

والمقصود من ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أنه لو قُطعت يد المحارب اليُمنى وجب قطع رِجله اليسرى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أنه لو تاب المحارب قبل القبض عليه سقط عنه الحقّ الإلهيّ ولكن لا تسقط عنه حقوق العباد من قتلٍ أو جَرحٍ أو سرقة مالٍ أو قتل حيوانٍ أو حرق زرعٍ أو قطع شجرةٍ ونحو ذلك، أما لو تاب بعد التمكّن منه والقبض عليه لم يسقط عنه حقّ الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣٥﴾ [المائدة: ٣٥].

الفوائد: المُخاطب في هذه الآية هم جميع المؤمنين، بما في ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أحد المؤمنين، لذا علينا أن نرى ما الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتبره وسيلةً؟

كان رسول الله ﷺ يقول بشكل متكرر: «**إلـهي! وَسِيلَتِي إِلَيْك إيماني بكَ**». وقال أميرالـمؤمنين عليّ عليه السلام في الخطبة ١٠٩ من نهج البلاغة: «**إِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْـمُتَوَسِّلُونَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاص**.....». وقال الإمام زين العابدين في دعاء يوم الخميس مناجيًا ربَّه: «**إلـهي! بِذِمَّةِ الْإِسْلَامِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْك**...». وكذلك قال أميرالـمؤمنين عليّ عليه السلام في دعاء كميل: «**و يتوسَّل إليك بربوبيّتك**» وقال في الدعاء اليماني: «**فَإِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِتَوْحِيدِكَ وَتَمْجِيدِكَ وَتَحْمِيدِكَ وَتَهْلِيلِكَ وَتَكْبِيرِكَ وَتَعْظِيمِك**». وقال في مناجاة أخرى: «**فَقَدْ جَعَلْتُ الِاعْتِرَافَ إِلَيْكَ بِذَنْبِي وَسَائِلَ عِلَلِي**».

إذن يَتَبَيَّنُ من كلمات الله ورسوله وكلمات أئمة الإسلام وعُظمائه أن الوسيلة التي يجب أن نبتغيَهَا إلى الله هي الإيمان والإسلام والتقوى، وليست أشخاصًا مُعيّنين، لأن الله ليس كالسلاطين الذين يجهلون أحوال العباد ولا يسمعون نداءاتهم ودعاءَهُم، فاللهُ ليس بعيدًا عن عباده ولا يحتاج إلى أشخاص يكونون وُسطاء ووسائل ينقلون إليه عرائض عباده.

يتصور بعض العوام الجهلاء أن بين الله وعباده واسطة أو وسيلة، فيُنادون بعض العباد الذين رحلوا عن الدنيا ولم يعد لهم صِلةٌ بما يجري فيها ويدعونهم مُتخيّلين أنهم وسيلتهم إلى الله. أضف إلى ذلك أن الله تعالى لم يقل: «**ادعوا الْوَسِيلَةَ**»، ولا يُمكن لله تعالى أن يأمر الناس أن يبحثوا عن شخصٍ من عباد الله الصالحين رحل عن الدنيا منذ ألف عام ويبتغونه ليجدوه فيُنادوه ويدعوه، لأن ذلك العبد الصالح لم يعد في الدنيا ودعاؤه شِركٌ لأن الله تعالى اعتبر في آيات القرآن دعاء غير الله شرك. فوسيلة الـمُتقرِّبين إلى الله هي الفضائل النفسية والأعمال الصالحة كما ذكرنا. (وكما أن الإنسان يحتاج إلى الوسيلة في أموره الـماديّة، كذلك يحتاج إلى الوسيلة في أموره الـمعنويّة).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [الـمائدة: ٣٦-٣٧].

الفوائد: لا يُقبَل من أحد يوم القيامة إلا الإيمان والعمل الصالح، ولذلك فلو كان للكافر كل

الأرض وما عليها وقدّمها كلَّها يوم القيامة ليُنقذ نفسه من العقوبة لن تُقبل منه، ولا مكان للرِّشوة أو الفِدية في محكمة العدل الإلهيّة.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٣٧-٤٠].

الفوائد: المُراد من القطع هو فصل العضو عن الجسم، والمُراد من اليد الأصابع بدليل آية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩].

والقدر المُتيقّن هو الأصابع وما زاد عليها مشكوك فيه فلا ينبغي قطعه. وقد ذكر العلماء ٢٣ شرطًا للقطع: الأول: أن يكون المسروق شيئًا ذا قيمة وهو أن لا يقل عن ربع دينار. الثاني: أن تكون السرقة قد تمت خُفيةً لا علانيةً. الثالث: أن يكون السارق قد سرق بنفسه لا أن يكون قد أمر غيره بالسرقة. الرابع: إذا اشترك السارق مع غيره في السرقة فلا يُقطع إلا إذا كان سهمه من السرقة بمقدار النِّصاب. الخامس: أن يسرق من حِرزٍ لا من الشارع أو من فلاةٍ أو باديةٍ. السادس: لا يثبت الحدُّ إلا إذا أقرّ السارق مرّتين بالسرقة، أو إذا شهد عليه شاهدا عدل. السابع: أن يكون السارق من أهل التكليف. الثامن: أن لا يكون السارق مُضطرًا. التاسع: أن لا يكون مُكرَهًا...... وهكذا إلى تمام الشروط.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أنه لو تاب السارق قبل أن يثبت جُرمه لدى الحاكم ويُؤخذ عليه، فإن الحدّ يسقط عنه.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ

يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن
تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤١-٤٣].

الفوائد: تتكلَّم هذه الآيات عن صفات اليهود الذميمة وكفرهم، وسببُ النزول: «أن رجلاً وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا وكانا مُحصنين، وكان حدّهما الرجم في التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، وقالوا: إن هذا الرجل الذي بيثرب ليس في كتابه الرّجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم من بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك. فذهب فريقٌ منهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدّهما في كتابك؟

فقال ﷺ: هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به. فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه له.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل تعرفون شابًّا أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأي رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام في التوراة.

قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا فأتاهم، فقال له النبي ﷺ: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم، قال: وأنت أعلم اليهود؟ قال: كذلك يزعمون، قال: أتجعلونه بيني وبينكم؟ قالوا: نعم.

فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى، وأنزل عليكم كتابه وفيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرَّجم على من أحصن؟».

قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيّرت ما

اعترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم»، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عز وجل في التوراة على موسى عليه السلام، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فما كان أول ما ترخصتم به أمر الله؟»، قال: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنا ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، فقالوا: والله لا ترجمه حتى يرجم فلان -لابن عم الملك -فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئا دون الرجم يكون على الوضيع والشريف، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقالت اليهود [لابن صوريا] ما أسرع ما أخبرته به، وما كنا لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائبًا فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم: إنه قد أنشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته، فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فرجما عند باب مسجده، وقال: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأنزل الله عز وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [1].

وكان اليهود في المدينة يتجسَّسون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحساب يهود خيبر كما تُشير إليه جملة ﴿سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾. كما كانوا يستمعون إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأجل أن يكذبوا فيه، وهذا معنى ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

والـمُراد من ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ تغييرهم لأوامر الله وأحكامه كتبديلهم الرَّجم إلى الجلد.

والمقصود من جملة: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أن يهود خيبر كانوا يقولون: إن أمركم محمدٌ بالجلد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه. كما في مجمع البيان.

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ٣/ ٥٧، وانظر: الطبري، **جامع البيان**، ٦ / ٢٣٢، والسيوطي، **الدر المنثور**، ٣ / ٧٨، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٢ / ٦٠-٦١.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

الفوائد: اعتبر الحقُّ تعالى التوراةَ هدىً ونورًا وقد حكم بها الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام جميعًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ أن دين الأنبياء جميعهم كان الإسلام، ويُمكن أن نقول: إن نبيّ الإسلام أيضًا تشمله كلمة ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ المذكورة في هذه الآية، وأنه يجب أن يحكم بالتوراة في الأمور التي لم يأته فيها حكم آخر من الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ على مدح العلماء الذين يحكمون طبقًا لما أنزل الله في كتابه ويحفظون كتاب الله، خلافًا لمراجع المسلمين في عصرنا الذين تركوا القرآن وتشبثوا بأخبار هي من أقوال البشر وكتموا حكم الله وآياته مُقابل ثمنٍ قليل، والقرآن يُصرِّحُ أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو من الكافرين.

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة: ٤٥].

الفوائد: بما أن حكم القصاص هذا الذي نزل في التوراة لم يُنسخ بل صدّقه الإسلام، فيجب العمل به. وتشمل هذه الآية قصاص القاتل وقصاص من أتلف عضوًا من أعضاء المجنيِّ عليه بشكل عام، وقد فصَّلت السنّة النبويَّة شروط العمل بهذا القصاص، كما أنه لا بدّ من مُلاحظة موضع الجناية وصفاتها في القصاص، فلا يجوز الاقتصاص من العين اليُمنى بدلاً من اليسرى ولا الأذن اليُمنى بدلاً من اليسرى، ولا السنّ المنخور والمُسْوَدّ بدلاً من السنّ السليم، ولا الأذن السميعة بدلاً من الأذن الصماء، كما أن هناك شروطًا في قصاص الجروح فمثلاً إذا

أردنا القصاص من عضوٍ وكان هناك احتمال للخطر [على حياة الجاني] أو غررٌ به فلا يجوز القصاص بل تجب الدية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٦-٤٨].

الفوائد: تصف جملة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الإنجيل والقرآن أيضًا، ومن هذا يتبيّن أن الآيات التي كانت في الكتب السماويّة صدّقتها الكتب اللاحقة لها، وكل الكتب السماويّة نور وهدىً، وعلى علماء كل دين أن يحكموا بكتابهم السماويّ، وإلا فمن لم يحكم بما أنزل الله إليه فهو -كما ذكرت الآيات السابقة- من الكافرين والظالمين والفاسقين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ.....﴾ أن الله تعالى أعطى لكل نبيٍّ مُرسلٍ شريعةً مختلفةً، ولم يجعل شرائعهم واحدةً ليمتحنهم ويختبرهم، ويجب على المسلمين أن يسبقوا الآخرين إلى الخيرات طبقًا لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أن تقليد

الآراء غير جائز. ويدلُّ كذلك على وجوب الحذر من أهل البِدع والأهواء ومن آرائهم. والمُرادُ من حكم الجاهليّة كلُّ حكم مُخالف لحكم الله تعالى.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة: ٥١-٥٣].

الفوائد: إيمان أكثر الناس إيمانٌ مُتزعزعٌ وغيرُ يقينيّ، أي هم مترددون في إيمانهم، لذلك تجدهم غير مبالين ويقفون موقفًا متساويًا من المؤمن والكافر.

في زمن رسول الله ﷺ عندما كان الإسلام لا يزال ضعيفًا لم يقْوَ ويضرب بِجِرانِهِ الأرضَ بعد، كان بعض المسلمين يُصادقون المسلمين وفي الوقت ذاته يُحبّون ويصادقون اليهود والنصارى ويُوالونهم، بل أحيانًا يعملون لمصلحة الكفار، فأراد الحقُّ تعالى في هذه الآيات أن يُؤدبّهم ويأمرهم أن يستقيموا في طريقهم وسلوكهم [على نحو ينسجم مع إسلامهم].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: ٥٤-٥٧].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ أن من يرتد عن الإسلام لا يضرُّ

الله شيئًا بل يضرُّ نفسه، ويحصل الارتداد بإنكار الله أو إنكار رسوله ﷺ أو إنكار حكم من أحكام الإسلام القطعية الـمُسلَّم بها.

والفِعل في جملة ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ للاستقبال، ولما كانت سورة المائدة آخر السور نزولاً، وأخبر الله تعالى فيها عن رِدّة عدد من المسلمين كان ذلك إخبارًا عما سيقع في المستقبل، وكان الخبر صحيحًا إذْ وقع ما أخبرت عنه الآية فعلاً، فقد ارتدت جماعات في السَّنَة الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ، وارتد آخرون بعد وفاته ﷺ. أما الذين ارتدوا في السنة الأخيرة من حياته ﷺ فكانوا: الأسود العنسيّ الكاهن الذي ادّعى النبوّة في اليمن وتسلط على بلاد اليمن وأخرج منها عُمّال رسول الله ﷺ إلى أن قُتِل على يد فيروز الدّيلميّ، ووصل خبر قتله إلى رسول الله ﷺ في المدينة قبل يوم من وفاته ﷺ. وكان المُرتد الآخر مُسيلمة الكذاب الذي كتب إلى رسول الله ﷺ: «من مُسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله! أما بعد، فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك». فأجابه رسول الله ﷺ بكتاب قال له فيه: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد، فإنَّ الأرضَ لِلَّهِ يورثها من يشاء من عباده والعاقبه للمتقين».

وقد قوي شأن مُسيلمة الكذاب هذا بعد وفاة رسول الله ﷺ، إلى أن حاربه أبو بكر وتمكَّن جُنْدُ الإسلامِ من قَتْلِهِ، وكان قاتِلُهُ «وحشيًّا» قاتلَ حمزة سيِّد الشهداء، ولذا قال «وحشيٌّ»: «قَتَلْت خَيْرَ النّاسِ في الجاهليّة وَشَرَّ النّاسِ في الإسلام».

ومن المرتدين الآخرين بَنو أَسَدٍ قومُ طُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الذي ادّعى النبوّة فأرسل رسول الله ﷺ إليه خالد بن الوليد لمُحاربته ففرَّ طُلَيْحَةُ إلى الشام، ثمّ أسلم وحَسُنَ إسلامُه. وارتدَّت سبعُ فِرقٍ زمن أبي بكرٍ فكفى الله المؤمنين شرَّهم على يد أبي بكر.

والمُراد من جملة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ أبو بكرٍ وجنود الإسلام.

وارتدَّت فِرقةٌ زَمَنَ عُمَر وهم غسَّانُ قومُ جَبَلَة بن الأيهم، وذلك أن جَبَلَة أسلم على يد عمر، وكان يطوف ذات يوم جارًّا رداءَهُ، فوطىء رجلٌ طرف ردائه فغضب فلطمه، فتظلَّم إلى عُمَرَ فقضى له بالقصاص عليه، إلا أن يعفو عنه، فقال: أنا أشتريها بألف، فأبى الرجل، فلم يزل يزيد

في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف، فأبى الرجل إلا القصاص، فاستنظر عُمَرَ، فأنظره عُمَرُ فهربَ - خوفًا من عدل عُمَرَ - إلى الروم وارتد[١].

وعلى كل حال ارتد أكثر العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ، وقد قُضِيَ على شرِّهم بفضل همة أبي بكر وسياسته، كما روت عائشةُ: «تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ وارتدَّت العربُ واشرأبَّ النفاقُ، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها»[٢].

ولكن بعض الكُتَّاب الشيعة يقولون إن المقصود من جملة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي﴾ هو عليُّ ابن أبي‌طالب عليه السلام، وهذا لا يصح حسب مُعطيات التاريخ، لأن المُرتدّين من العرب إنما قُضِيَ على حركتهم في خلافة أبي بكر لا في زمن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، هذا رغم أن أمير المؤمنين عليّ حارب كثيرًا المُنافقين في عهده إلا أن هؤلاء المُنافقين لم يُسمّوا بالمُرتدّين، علاوةً على أنه لم يقضِ عليهم، ولذلك رأى كثيرٌ من المُفسّرين حتى [بعض] مُفسّري الشيعة أن هذه الآيات وما بعدها تنطبق على أبي بكر ورأوا فيها مديحًا له.

وإذا كان أبو بكر ممن ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فإن طعن أهل زماننا به مُخالفٌ لكتاب الله. وللأسف فإن مُدّعي العلم في عصرنا خلطوا بين المُهاجرين والأنصار وبين المُرتدّين، فتناولوهم جميعًا بالسب والطعن، في حين أنهم هم أنفسهم أسوأ من المُرتدّين.

وكلمة ﴿أَذِلَّةٍ﴾ من مادة الذِّل بمعنى اللين والانقياد، وكلمة الذَّلُول مشتقَّة من هذه المادة أيضًا، وليست كلمة ﴿أَذِلَّةٍ﴾ مُشتقةً من الذُّل بضم الذال والتي معناها الذُّل والحقارة والهوان.

وفسّر بعضهم كلمةَ الوليّ في جملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ على معنى الولاية والحكم والرئاسة، وفسَّرها آخرون على معنى المحبة والولاء، وأتى كل فريقٍ برواياتٍ تأييدًا لقوله، ولكن يجب أن لا نغفل عن تناسب الآيات، ولا نفترَض أن آيات الله لا يرتبط بعضها ببعض

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٢/ ص ٣٧٦.

٢- البغوي، **معالم التنزيل**، ٣/ ٧١، وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢ / ٦٦٥، و**حروب الردة** للكلاعي، ص٣٥. والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٣ / ٢٢٥.

فنُبعدَ القرآن عن الفصاحة، ولذلك نقول: إن الآيات السابقة لهذه الآية تتعلق بالنهي عن موالاة الكفار من اليهود والنصارى، وكذلك الآيات التي جاءت بعد هذه الآية تتعلق بالنهي عن موالاة الـمُنافقين والكفار، وهذه الآية التي جاءت وسط تلك الآيات تقول: إن صديقَكم ومُحبَّكم والذي يُريد الخير لكم ونصيرَكم هو الله ورسوله ﷺ والـمؤمنون. بناءً على ذلك، لا علاقة للآية بالحكم والرئاسة وولاية الأمر. وعلى كل حال، إذا فسَّرنا الولاية هنا على معنى الحكومة والرئاسة فمن الـممكن -تناسبًا مع الآيات التي جاءت قبلها- أن نُثبت بها ولاية أبي بكرٍ، كما ذكر ذلك عددٌ من الـمُفسِّرين استنادًا إلى تناسب الآيات وسياقها وإلى الروايات التي نقلوها في هذا الصدد. ولكن كما ذكرنا فإن الولاية في هذه الآية والآيات التي قبلها وبعدها أتت بمعنى الـمحبَّة والنُّصرة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ۝٦١﴾ [الـمائدة: ٥٨-٦١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ثُبوت الأذان ومشروعيّته، ولما كان اليهود والنصارى والـمُنافقون لا يرون في الأذان والصلاة نفعًا كانوا يسخرون منها ويتخذونها وسيلةً للاستهزاء والضحك، مع أن الأذانَ نداءُ التوحيد، وهو دعوةٌ إلى التوحيد وعبادةِ الله، والصلاةُ أداءٌ لواجب العبودية لِلَّهِ، ومُناجاةٌ للرَّب واستمدادٌ منه، ولو أعملوا عقولهم لما استهزؤوا.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ

ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

الفوائد: لما كان المسلمون [في بداية أمرهم] فُقراء وكانوا يستدينون أحيانًا من اليهود، فكان اليهود يقولون طعنًا واستهزاءً: يدُ ربِّ محمَّدٍ مغلولةٌ [أي مقبوضةٌ]، يعنون بذلك أنه مُمسكٌ يَدَهُ لا يُنفق منها فليس لديه جودٌ ولا كرمٌ.

وكان اليهودُ أكثر الناس مالاً وثروةً فلمَّا سيطر المسلمون على أمور المدينة ضاقت الدنيا على اليهود، لذا من الممكن أن نقول: إن هذا ما عنوه بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، لأنه من البديهيّ أن الله القادر على خلق العالم من العدم لا يُمكن لأي عاقل أن يعتبره مُمسكًا يده، وكيف يحفظ العالم ويُدبره وهو قابض يديه، فما مُرادهم من ذلك القول؟ يُمكن أن يكون مُرادهم -كما ذكرنا- السُّخرية من المسلمين، ويُمكن أن يكون قولهم هذا تقليدًا منهم للفلاسفة، لأن الفلاسفة يقولون: إنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على خلق الكون الذي يتكون من الكثرات، بل هو يخلق شيئًا واحدًا وهو العقل الأول أو شيئًا آخر، فمِثْلُهُ مثل من غُلَّت يداه، لا إرادة حُرَّة له بل هو فاعلٌ بالإيجاب لا فاعلٌ مُختار. فردَّ عليهم الحقُّ تعالى ولعنهم على كلامهم هذا. وعلى كل حال، المقصود من غَلِّ اليد وبسطِها في هذه الآية الكِناية عن البُخل والجود وهذا مجازٌ مشهورٌ ومعروف، إذ يُقَال: فُلانٌ يده مبسوطة، أي هو كريمٌ كثيرُ الإنعام، وفلانٌ يده مقبوضة أو يده مُمسكة، يعني أنه بخيلٌ، أو أنه عاجزٌ غير قادر.

وبناءً على ما تقدم، يكون المراد من ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لَعْنُ اليهود والحكم عليهم -بعبارة مجازيّة- بالفقر والعجز، أو أن يكون التعبير على الحقيقة ويُقصَد بها أنهم ستُغلُّ أيديهم في الجحيم. وقد استدل المُجسِّمة بمثل هذه الآيات على أن لِلَّهِ يدًا، ونقول في الردِّ عليهم:

أولاً: غَلُّ اليدِ تعبيرٌ لغويٌّ مجازيٌّ عن البخل كما ذكرنا.

ثانيًا: لليد في لغة العرب معانٍ عديدة أحدها ذلك العضو المعروف في جسم الإنسان. والمعنى الثاني لليد: النِّعمة، كما تقول: «لفلان عندي يدٌ أشكره عليها». والمعنى الثالث:

القُدرة، كما يُقال: فعل كل ما أمكنته يدهُ، أي كل ما قدر عليه، ومن هذا قوله تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ [الفتح: ٢٠].، وقال عن نفسه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يس: ٨٣].

إذن، إذا كان معنى اليد القُدرة فعندما تأتي كلمة اليد مُثنَّاة أو بالجمع يكون معناها كمال القُدرة، كما قال تعالى عن خلقه لآدم: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وفي الآية التي نحن في صددها قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ أي أن الله يتصف بالجود الكامل والقُدرة التامة. وقال تعالى في سورة يس: ﴿خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، حيث يُراد من هذا التعبير كمال القُدرة، كما نقول في الفارسيّة [ما معناه]: «إن وراء هذا الأمر يد الحكومة» أي قدرتها ونفوذها.

ثالثًا: ينبغي أن نقول إن يد كل شيءٍ من الأشياء تتناسبُ معه، فمثلاً يد الجرّة تختلف عن يد الفنجان وعن يد الجاروف وعن يد الإنسان، ويد الاستعمال تختلف عن يد الرحمة، ويد الاستعمار معناها نفوذه. و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ تختلف عن يد المخلوق، فإن كان صاحب اليد ذا جسم كانت يده جسميّةً، وإن لم يكن ذا جسمٍ كانت يده أيضًا غير جسميّة، فلا يُمكن القول بأنه لما قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ دلَّ ذلك على أنه جسم نعوذ بالله.[1]

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ

١- إن من عقيدة السلف الصالح، الاعتقاد بأن لِلَّهِ تعالى يدًا كما أثبت لنفسه من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تجسيم، كما يليق بجماله وجلاله وعظمته. انظر تعليق المُصحح في تفسير الآية ٧٥ من سورة «ص» في هذا التفسير. [المُصحح]

مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ [المـائدة: ٦٥-٦٧].

الفوائد: نزلت هذه السورةُ وهذه الآياتُ آخرَ عُمْرِ النبيِّ ﷺ وكان جميع أهل الحِجاز تقريبًا قد اعتنقوا حينَهَا الإسلامَ، ومعظم هذه الآيات نزلت لإرشاد اليهود والنَّصارى وهدايتهم، إذ كانوا يملكون دولةً وامبراطوريّةً كبيرةً هي الامبراطوريّة الرومانيّة، لكنهم انحرفوا عن الدين الحقيقيّ الصحيح، ولذا قال تعالى لو أن أهل الكتاب هؤلاء آمنوا إيمانًا حقيقيًّا واتقوا الله لغفرنا لهم سيئاتهم وأدخلناهم جنَّات النَّعيم، ولو أنهم أقاموا كتاب الخالق إليهم، أي التوراة والإنجيل، أي عملوا بهما، لَفَتَحَ اللهُ عليهم البركات من السماء والأرض، فالـمُراد من كلمة ﴿فَوۡقِهِمۡ﴾: السماء، والـمُراد من عبارة ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾: الأرض.

وكان رسول الله ﷺ يأخذ جانب الحِيطة والحذر في مُواجهته لليهود والنصارى ودولتهم لأنهم كانوا أقوياء وكان لديهم أتباع وأنصار في الحِجاز، وقد يغتالون رسول الله ﷺ، ولذا قال في الآية ٦٧: بلِّغ ما أنزل إليك -أي ما أنزل إليك بشأن اليهود والنصارى، (بقرينة الآيات التي جاءت قبل هذه الآية وبعدها في هذه السورة)- ولا تَـخَفْ، والله لا يهدي هؤلاء الكافرين، أي اليهود والنَّصارى، لأنهم ليسوا طُلاب هداية. وقد ذكر أكثر الـمُفسِّرين هذا الـمعنى الذي ذكرناه، ولكنهم، بعد ذِكرهم لهذا الـمعنى، ذكروا معانيَ مُحتملةً أخرى أيضًا، ليست الآيةُ ظاهرةً في أيٍّ منها، ومن هذه الـمعاني:

١- أنَّ «ما أُنزل إليك وما قصَّر رسولُ اللهِ ﷺ في إبلاغه» كان آية القِصاص.

٢- أنَّ «ما أُنزل إليك وما امتنع رسول الله ﷺ حتى ذلك الحين عن إبلاغه» كان بيان معايب اليهود واستهزائهم بأحكام الإسلام.

٣- أنَّ «ما أُنزل إليك وما لم يَقُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بإبلاغه وكان يخاف من تبليغه» كان حريّة الرجل في طلاق الزوجات أو الإمساك بهنَّ.

٤- أنَّ ما كتمه رسول الله ﷺ كان قصة زيد وزينب.

٥- أنَّ الأمر الذي كُتِم كان ترغيب الناس بالجهاد.

٦- أنَّ الأمر الذي كان رسول الله ﷺ يكتمه: إظهار معايب عبادة الأصنام وسَبِّ آلهة الـمشركين.

٧- هي أنَّ الأمر الذي لم يكن رسول الله ﷺ قد بيّنه حتى ذلك الحين: كان حقوق الـمسلمين، فبيّنه ﷺ في حجَّة الوداع عملاً بهذا الأمر الذي جاءه في هذه الآية.

٨- الآية ترتبط بموضوع قتل الرسول ﷺ نفسه على يد النَّصارى واليهود.

٩- الآية ترتبط ببيان فضائل أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام.

ولكن يُمكننا أن نقول على وجه اليقين: إن هذه الاحتمالات جميعها تُخالف ظاهر آيات القرآن، لأن الاحتمالات من الأول حتى السابع كلها ذُكِرت في القرآن؛ وَمِنْ ثَمَّ فقد أبلغها رسول الله ﷺ. وأما الاحتمال الثامن فهو ما ذكرناه استنادًا إلى الآيات التي جاءت قبل هذه الآية وبعدها، أي بقرينة السياق. والاحتمال التاسع غير صحيح لعدة أدلة:

الأول: أنه مُخالفٌ لسياق الآيات.

الثاني: لو قلنا: إن الآية تتعلق بإبلاغ ما أنزله الله من فضائل عليّ عليه السلام التي لم يكن رسول الله ﷺ قد أبلغها للمسلمين بعد، فالسؤال: أيُّ آياتٍ هذه التي تتعلق بشكل خاص بحضرة عليّ عليه السلام والتي كان على النبيّ ﷺ إبلاغها بعد هذا الخطاب له؟ إننا لا نملك، لا قبل هذه الآية ولا بعدها، مثل هذه الآية التي نزلت بشأن عليٍّ عليه السلام والتي كان على النبيّ ﷺ أن يُبلِّغها لكنه لم يُبلِّغها بعد.

الثالث: لو اعتبرنا أن هذه الآية (٦٧ من سورة الـمائدة)- طبقًا لميل بعض الـمُفسِّرين- تتعلق بإبلاغ أمرٍ يَـخُصُّ عَلِيًّا عليه السلام، لكان لهذا الأمر تَوَالٍ ولوازمُ باطلة لا يرضاها اللهُ ولا رسولُهُ ﷺ ولا أميرُ الـمؤمنين نفسه، لأننا يجب أن نقول عندئذ -كما قال أصحاب هذا الرأي- إن الـمُراد من كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ [في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾]، أصحاب رسول الله ﷺ وأنه ﷺ كان يخاف منهم، وأن الـمقصود من القوم الكافرين في هذه الآية أصحاب رسول الله أيضًا، الذين كانوا كافرين جميعًا إلا ثلاثة أفراد منهم! ولا أظنُّ أن مسلمًا عاقلاً يُمكنه أن يقول مثلَ هذا القول، ويُفقد الإسلام والقرآن قيمتهما، لأن رواة الإسلام هم الصحابة أنفسهم الذين

مدحهم القرآن مرارًا، فإذا كان هؤلاء كافرين فلن يبقى للإسلام رواةٌ إلا أخبار آحاد، وهي لا تُفيد العلم. إضافةً إلى أن هذا القول يستلزم كذب ثناء القرآن ومدحه الـمُكرَّر لهؤلاء الصحابة – والعياذ بالله، وستُصبح الآيات التي أنزلها الله في فضائل الـمُهاجرين والأنصار بلا مصاديق خارجية وسيظهر أن الله أخطأَ، نعوذ بالله، وسيُصبح القرآن كله ساقطًا من الاعتبار، ومثل هذا الكلام هو كلام أعداء الإسلام ولا يُمكن لـمسلم القبول به.

إضافةً إلى أن رسول الله ﷺ عندما كان وحيدًا أول بعثته لم يخشَ أحدًا وأبلغ آيات الله، فكيف أصبح في آخر سنة من دعوته، بعد أن أصبح له أكثر من سبعين ألفَ صاحبٍ ونصيرٍ وبسط سيطرته على الحِجاز كلِّه، وعمّ الإسلامُ شرق الجزيرة العربيّة وغربها، يخاف إبلاغ ما أُنزل إليه من ربِّه؟! ويخاف ممن؟ من أصحابه الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الإسلام وكانوا يتنافسون في طاعته وَيُضَحُّون في سبيل دعوته بالغالي والنَّفيس، فهل يُعقل أن يقول اللهُ لرسوله ﷺ: لا تخف من أصحابك إن الله يعصمك من أصحابك الذين هم من القوم الكافرين؟!

قطعًا ليس الأمر كذلك، بل إن رسول الله ﷺ في آخر عمره بدأ يُواجه دول الكفر الكبيرة واليهود والنَّصارى وكانت هناك أخطار كثيرة مُحدقة به من احتمال اغتياله أو دسِّ السُّمِّ له، فقال تعالى أبلغ أيها الرسول ما أنزلتُ إليكَ من الآيات بشأن اليهود والنَّصارى، ولا تخشَ القوم الكافرين. يُضاف إلى ذلك أن الله تعالى كرر عبارة القوم الكافرين بألف ولام التعريف، يعني أولئك القوم الكافرين ذاتهم الذين ذُكِروا في الآيات السابقة واللاحقة، وهي آياتٌ تتحدَّث بصراحةٍ عن اليهود والنصارى وَتَصِمُهُم بالكفر.

يُضاف إلى كل ذلك أن أميرَ الـمؤمنين عليًّا ؈ لم يستدل في احتجاجاته أمام أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الآية [على إمامته وخلافته]، فهذا يُبَيِّـنُ على نحوٍ قاطعٍ أن هذه الآية لم تكن مُتعلِّقَةً بحضرته، فإذا كان الأمر كذلك ورأينا أن عددًا من الـمُفسرين من الشيعة والسنّة نقلوا لنا روايات مُخالفة لظاهر القرآن تُفقد القرآن قيمته وجب علينا أن نرفض هذه الروايات خاصةً أنهم يقولون بالتحريف في هذه الآية، فكأن ناقلي تلك الروايات كانوا نائمين أو كانت لهم خصومة مع القرآن.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة: ٦٨].

الفوائد: مفهوم هذه الآية أنه لو تحلَّى اليهود والنصارى بآلاف صفات الكمال والعلم، وكتبوا آلاف الكتب العلميّة المُفيدة للبشر فلن ينفعهم ذلك كله ولن يضعوا قدمهم في طريق الله إلا إذا عملوا بكتابهم السماويّ، وهذا الكلام ذاته ينطبق على المسلمين أيضًا، فلو قرأ المسلمون آلاف كتب الحديث والشِّعر والقصص وعملوا بها لن يكونوا على شيء من الدين ما لم يعملوا بالقرآن ويُقيموا أحكامه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: ٦٩].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآية أن أهل الأديان السابقة والحالية لو آمنوا بالله والقيامة وعملوا الصالحات سينالون النجاة والسعادة، وَمِنْ ثَمَّ يُمكننا أن نقول استنادًا إلى هذه الآية إن أصول الدين ثلاثة: التوحيد والمعاد والعمل. ولكن ينبغي أن نعلم أن من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعتقد بالله اعتقادًا حقيقيًا صادقًا، يُطيع أوامر الله، لذا عندما يسمع قول الله تعالى في كتابه: آمنوا بالأنبياء فإنه يؤمن بذلك. وعلى كل حال، فلا تعارض بين هذه الآية وبين آية: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ [آل عمران: ٨٥]، ويُراجع في ذلك الآية ٦٢ من سورة البقرة.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة: ٧٠-٧١].

الفوائد: المُراد من أخذ الميثاق، ميثاق العقل والفِطرة والشرع على التوحيد ونُبوَّة الأنبياء. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ﴾ أن الأنبياء جاؤوا لمنع البشر من اتباع أهوائهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ أن عادة بني إسرائيل كانت قتل الأنبياء، وقد جاء الفعل بصيغة المستقبل مُراعاةً لقافية نهاية الآيات. والمُراد من العمى والصمم: العمى والصمم المجازيّان، لأن من لا يسلك طريق الهداية ويضل الطريق الصحيح يكون كالأعمى.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ [المائدة: ٧٢-٧٤].

الفوائد: قالت طائفةٌ من النصارى يُدْعَون اليعاقبة: إن الله هو المسيح. فكيف ذهبوا إلى هذا الشرك؟ هل قالوا بحلول الله في المسيح؟ أم اعتبروا الوجود الناسوتيّ للمسيح وجودًا لاهوتيًّا؟ وأيًا كان، فإن المرء يتعجب من ضلالهم هذا، ولكن التعجُّب الأكبر هو من مشركي زماننا الذين يملكون مثل هذا القرآن، الكتاب الهادي والمُرشد، ومع ذلك يعتبرون عليًّا عليه السلام الله، أو يقولون: نحن لا نعتبر أن عليًّا هو الله ولا نعتبره منفصلاً عن ذات الله!

والعجب الأكثر من القوم الذين يدَّعون الإسلام ويدْعُون عليًّا في قيامهم وقعودهم، ويعتبرونه مثل الله حاضرًا ناظرًا في كل مكان. وينبغي أن نقول لهم كما قال الله: ألا تتوبون إلى الله وتستغفرونه وتكُّفون عن هذا الشرك؟

والمقصود من ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ التثليث الذي يعتقدونه وهو إيمانهم بثلاثة قدماء وثلاثة أقانيم هي: الآبُ وَالِابْنُ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ.

بعد هذه الآيات بيّن اللهُ -إرشادًا للنصارى والمسلمين- الدليل على عدم إلهيّة المسيح وهو أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، وأكل الطعام يستلزم الذهاب إلى بيت الخلاء، فمن يأكل الطعام ويحتاج إلى دفعه كيف يُمكن أن يكون الله؟ أو تكون له صفات الله أو يُشارك الله في أفعاله؟ ولا ينقضي العجب من أن أحد مُشركي زماننا الذي لَقَّبَ نفسَه بآية الله العُظمى وكتب

كتابًا بعنوان «امراى هستى» أي «أمراء الوجود»! واعتبر فيه ١٤ شخصًا أمراءَ للوجود مثلَ اللهِ!

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٥-٧٧].

الفوائد: بيّن الحقّ تعالى بشكل واضح أن المسيحَ وأمَّه مُحتاجان إلى الطعام والقوت، وأن المسيح وإن أتى بمُعجزات فإن هذا لا يدل على إلهيته، بل هو مثل الأنبياء الذين خلوا من قبله. كما صرح تعالى في هذه الآيات بكل وضوح أن عيسى المسيح عليه السلام لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًّا، وأن عبادتكم إياه لا تُفيدكم شيئًا، كما أن دعاءكم إياه لا يُفيدكم بشيء، لأنه بعد وفاته انقطعت صلته عن الدنيا؛ فإذا كان هذا شأن المسيح، فلا شك أن شأن أوصياء الأنبياء والأئمة وأولادهم وذراريهم هو كذلك.

وجملة ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ خطاب لأهل الكتاب جميعهم، سواءً كانوا من اليهود أم النصارى أم المسلمين، والغُلوُّ تجاوز الحدّ في أمور الدين، كأن ننسب إلى الأنبياء صفات الله أو نُعطي الأوصياء صفات الأنبياء.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اِحْذَرُوا على شَبَابِكُمُ الغُلاةَ لا يُفْسِدُونَهُم، فإنَّ الغُلاةَ شرُّ خَلْقِ اللهِ، ... وَاللهِ إنَّ الغلاةَ شرٌّ من اليَهُودِ وَالنَّصَارى وَالمجُوسِ وَالذِينَ أَشْرَكُوا...**»[١]. أي ليجتنب شبابكم الغُلاة ويبتعدوا عنهم كي لا يُفسدوهم (أي لا يحضروا خُطبهم ولا يستمعوا إلى كلامهم ولا يقتدوا بهم في الصلاة). وللأسف، إن معظم المسلمين أُبتلوا بمرض الشرك والكفر وَغَلَوا في عُظمائهم غُلوًّا يتعارض مع القرآن، واعتبروا ذلك الغُلوّ إثباتًا لفضائل أولئك العظماء.

١- الشيخ الطوسي، **الأمالي**، ص ٦٥٠.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ [المائدة: ٧٨-٨١].

الفوائد: يُستفاد من جملة ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨﴾ أن بني إسرائيل لُعنوا على ألسنة أنبيائهم بسبب عقائدهم الباطلة وعِصيانهم تعاليم أنبيائهم وتعدِّيهم حدود الله وأحكامه وإفسادهم في الأرض وغُلوِّهم في عُظمائهم وأنبيائهم، فكل من حذا حذوهم فغلا بحقِّ أئمة الإسلام وعُظمائهم استحقَّ قطعًا لَعْنَ أولئك العُظماء والأئمة أنفسهم، كما يُستفاد ذلك أيضًا مما رُويَ من أحاديث عن الأئمة.

﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٨٦﴾ [المائدة: ٨٢-٨٦].

الفوائد: بعد أن بيَّنَ الحقُّ تعالى طرفًا من صفات اليهود الذميمة، بيَّن لنا هنا أن أشد الناس عداوةً لأهل الإيمان اليهود لأنهم أهلُ دنيا وحريصون عليها، ولا يتورَّعون عن ارتكاب أي جرم في سبيل دنياهم، ويعادون جميع الناس، ويعتبرون أموال جميع الناس مباحة لهم، وقد قدَّم اللهُ اليهودَ على المشركين في عداوة المؤمنين.

أما النصارى فعداوتهم للمؤمنين أقلّ، بل هم أقرب إلى مودَّة المؤمنين، لأن بينهم كثيرين

من الزاهدين في الدنيا، وباختصار ليسوا حريصين على الدنيا كحرص اليهود عليها، وهذا بالطبع لا يشمل النصارى جميعهم، وهذه الآيات تتعلق ببعض النصارى ومن جملتهم: النجاشيّ وأصحابه، وقصتهم كالتالي:

«لما اشتدَّت قريش في أذى رسول الله ﷺ وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى الحبشة، وقال: إن فيها ملكًا صالحًا، فهاجر المسلمون سرًّا إلى أرض الحبشة، وكان أول من خرج عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ مع ١٣ فردًا آخرين، وذلك في شهر رجب السنة الخامسة للبعثة. فهاجروا مع جعفر بن أبي طالب وآخرين وتتابعوا حتى وصل عدد المهاجرين إلى الحبشة ثمانين نفرًا عدا النساء والأطفال.

فلما بلغ قريشًا خروجُهُم بعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ومعهم هدايا ليردَّ النجاشيُّ المسلمينَ إليهم. وكان عمرو وعمارة متعاديين، فخرج عمارة وكان حسن الوجه شابًّا مترفًا، فأخرج عمرو بن العاص أهله معه، فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر، فقال عمارة لعمرو بن العاص: قل لأهلك تقبّلني، فقال عمرو: أيجوز هذا؟ سبحان الله! فسكت عمارة، فلما انتشا عمرو وكان على صدر السفينة، دفعه عمارة وألقاه في البحر فتشبث عمرو بصدر السفينة وأدركوه فأخرجوه، ولكن عداوة عمرو وعمارة تبدَّلت وألقى الله بينهما العداوة قبل أن يدخلا على النجاشي.

و وَرَدُوا على النجاشي وقد كانوا حملوا إليه هدايا فقبلها منهم، فقال عمرو بن العاص: أيها الملك! إن قوما منا خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وصاروا إليك فردَّهم إلينا، فبعث النجاشي إلى جعفر فجاءوا به فقال: يا جعفر! ما يقول هؤلاء؟ فقال جعفر: أيها الملك! وما يقولون؟ قال: يسألون أن أردَّكُم إليهم، قال: أيها الملك! سلهم أعبيد نحن لهم؟ فقال: عمرو لا بل أحرار كرام، قال: فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال: لا ما لنا عليكم ديون، قال: فلكم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟ قال عمرو: لا، قال: فما تريدون منا؟ آذيتمونا فخرجنا من بلادكم، فقال عمرو بن العاص: أيها الملك! خالفونا في ديننا وسبوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرَّقوا جماعتنا فرُدَّهُم إلينا لنجمع أمرنا، فقال جعفر: نعم أيها الملك! خالفناهم بأنه بعث اللهُ فينا نبيًّا أمرنا

بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة، وحرَّم الظلم والجور، وسفك الدماء بغير حقها والزنا والربا والـميتة والدم، وأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهانا عن الفحشاء والـمنكر والبغي. فقال النجاشيُّ: بهذا بَعَثَ اللهُ عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم قال النجاشيُّ: يا جعفر! هل تحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئًا؟ قال: نعم، فقرأ عليه سورة مريم فلمَّا بلغ إلى قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]، فلمَّا سمع النجاشيُّ بهذا بكى بكاءً شديدًا، وقال هذا والله هو الحقّ....»[1].

وقيل: بل نزلت هذه الآيات في ثمانين نفرًا قدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الـمدينة، وكانوا أربعين رجلاً من أهل نجران، و٣٢ من أهل الشام، وثمانية روميّين، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورةَ يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وأسلموا[2].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ أن الله تعالى يثيب الإنسان كذلك على اعتقاده وعلى كلامه الذي يقوله انطلاقًا من الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الـمائدة:٨٧-٨٩].

الفوائد: تحتمل جملةُ ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ عدَّة معانٍ: **الأول:** لا

١- يُنْظَر: **تفسير علي بن إبراهيم القمي**، ج ١/ ص ١٧٦- ١٧٧، والطبرسي، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، ص١١٥ - ١١٦.

٢- يُنْظَر: البغوي، **معالـم التنزيل**، ج ٣/ ص ٨٧.

تعتقدوا حُرمة ما أحلّه الله. **الثاني**: لا تقولوا بألسنتكم هذا حرام، أي لا تحكموا بالحُرمة على ما أحلّه الله. **الثالث**: لا تجتنبوا ما أحلّ الله مثل اجتنابكم ما حرّمه. **الرابع**: لا تُحرّموا على أنفسكم الحلال بالنذر والحِلف. **الخامس**: لا تخلطوا الحرام بالحلال فيُصبح الكلُّ حرامًا، ولا تخلطوا النجس بالطاهر.

تحتمل الآية المعاني السابقة كلّها، لكنَّ سبب نزولها هو المعنى الرابع، إذْ رُوِيَ في الحديث: «أنه ﷺ وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون وبالغ وأشبع الكلام في الإنذار والتحذير، فعزموا على أن يرفضوا الدنيا ويحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل، وأن لا يناموا على الفرش، ويُخْصُوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض، فأُخْبِر النبيُّ ﷺ بذلك، فقال لهم: «إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منِّي »[1].

والمُراد من جملة: ﴿بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أن من حلف بالله دون نيّة ودون إرادة القَسَم، فلا كفَّارة عليه، وكذلك إذا حلف على ترك واجب أو فعل حرام فأَيْمانُهُ لَغوٌ لا كفَّارة على الحِنث بها رغم أن مثل هذا الحِلف إثم في حدّ ذاته.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ على أنه لا يجوز أن يُسرع الإنسان في الحلف بالله على كل شيء.

أما لو أَقسم الإنسان بإرادته ونيّته فحَنَثَ بِقَسَمِهِ وَجَبَتْ عليه الكفارةُ التي ذُكرت في الآية تكفيرًا عن ذنب نَقْضِهِ لِقَسَمِهِ، وعليه التوبة من هذا الفعل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٧/ ص ٥٩.

مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

الفوائد: بيَّنَّا في التعليق على الآية ٣ من هذه السورة معنى **الأزلام**، فلتُراجَعْ ثمَّةَ.

وقد أكَّد الله تعالى حرمة الخمر والميسر - أي القمار - في هاتين الآيتين بعشرة تأكيدات هي التالية:

الأول- تصدير الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ [التي تفيد الحَصْر، فكأنَّه تعالى قال: لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه المحرّمات].

الثاني- أنه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان.

الثالث- أنه تعالى وصفهما بالرِّجْس، ومعنى الرِّجْس: الشيءُ الخبيثُ والقَذِرُ والنَّجِسُ.

الرابع- أنه تعالى قال عنهما إنهما: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الخامس- أنه تعالى قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، فأمر باجتنابها، وظاهر الأمر للوجوب.

السادس- أنه تعالى قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فجعل الاجتناب فلاحًا، [وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبةً].

السابع- جملة ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ التي تدل على أن الخمر والميسر سبب للعداوة والكراهية بين الناس.

الثامن- جملة ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

التاسع- عبارة: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

العاشر- جملة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ التي تتضمَّنُ تهديدًا شديدًا.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٢-٩٣].

الفوائد: تَدُلُّ جملةُ: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ...﴾ أن وظيفة رسول الله ﷺ ومهمّته هي

التبليغ فحسب، أما أن يكون من وظائفه التصرُّف في الكون على نحوٍ خاصٍّ مغايرٍ لتصرُّف الإنسان العادي، فلا.

والـمُراد من جملة: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الإجابة عن سؤالٍ سأله الصحابةُ من رسولِ الله ﷺ بعد نزول تحريم الخمر إذْ قال أبو بكر: «إن إخواننا كانوا قد شربوا الخمر يوم أُحُد ثم قُتِلوا فكيف حالهم؟!» فقال تعالى: لا جُناحَ عليهم فِيمَا طَعِمُوا إِذَا كانوا مِنَ الذين آمنوا واتَّقَوْا، واجتنبوا سائر الـمحرمات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [الـمائدة: ٩٤-٩٥].

الفوائد: تَدُلُّ جملةُ: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ على حرمة قتل الصيد البرِّيّ أثناء الإحرام. ويُسْتَفاد من جملة ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أنه لو اصطاد الـمُحْرِمُ حيوانًا وقتله عن عمدٍ فعليه أن يهدي إلى الكعبة أي يذبح أو ينحر لها حيوانًا مماثلاً لما اصطاده، فمثلاً إذا اصطاد نعامةً أهدى إلى الكعبة بَدَنَة، وإن اصطاد حمارًا وحشيًّا أهدى بقرةً، وإن اصطاد ظبيًا أهدى شاةً.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أن الـمُحْرِمَ الذي اصطادَ مُخَيَّرٌ بين أن يهدي إلى الكعبة ما ذكرناه من أنعام، وبين أن يشتري بقيمة تلك الحيوانات ذاتها قمحًا ويقدّمه إلى الـمساكين في الحرم فيعطي كل مسكين نصف صاع أي مُدَّيْن (وهو ما يعادل كيلوغرام ونصف تقريبًا)، أو يصوم يومًا مقابل كل نصف صاع. فإذا اشترى قمحًا بقيمة جمل ووزَّع القمح على ستين مسكينًا كان ذلك حسنًا، لأن الكفارة لا تزيد

عن ستين مسكينًا. وإن كان القمح، الذي اشتراه بقيمة الجمل، يزيد عن نصيب ستين مسكينًا فلا يجب عليه إعطاء الزيادة، أما لو قلَّ هذا القمح عن نصيب ستين مسكينًا فلا حرج بل يُعطي ما أمكنه من المساكين سهمهم ولو كانوا أقل من ستين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ على عدم جواز صيد ما يُنال بالأيدي من الصيد أيضًا، مثل الفِراخ والبيض. وكفَّارة صيد الفِراخ والبيض هديُ عنزة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ على أن تكرار الصيد مُحرّم، ولكن جزاءه وكفَّارته هي الانتقام الإلهيّ، وليس على الصيد الثاني والثالث كفَّارة، هذا إذا كان الصيد مُتعمَّدًا، أما لو كان خطأً فتتكرَّر الكفَّارة مع تكرُّره.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾ [المائدة: ٩٦].

الفوائد: تدلُّ هذه الآية على جواز صيد البحر للمُحرِم، سواءً كان الصيد للأكل، أم كان للبيع مثل صيد اللؤلؤ والصدف، أو لأجل بيع عِظام وأسنان السمك، لأن الآية مُطلقةٌ، وسواءً اصطاد الصياد لنفسه أم لسائر أهل القافلة بدليل كلمة: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾ [المائدة: ٩٧-١٠٠].

الفوائد: المُراد من جملة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ أن الحرم -أي مكة وما حولها- مكانٌ إلهيٌّ آمنٌ لا يجوز التعرّض فيه لأحد، وأن الله جعله قوامًا لأمور الدين والعبادة وأمور المعيشة والحياة. والأمر ذاته ينطبق على الأشهر الحُرُم والأضاحي والجمال التي تُعلَّق القلائدُ على أعناقها إعلانًا لكونها مُهداةً إلى الحَرَم، فكل هذه الأمور جعلها الله قوامًا

للعبادة إضافةً إلى كونها إعانةً لمعيشة الفُقراء والضُّعفاء.

ويُستفاد من عبارة: ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أن الخُبثاء هم الأكثريّة دائمًا، الأمر الذي يُثيرُ إعجاب الإنسان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢].

الفوائد: رُويَ أن بعض الصحابة كان يسأل رسول الله ﷺ أسئلةً لا محلّ لها، فقد رَوَى أنسٌ «أنهم سألوا النبي ﷺ فأكثروا المسألة، فقام على المنبر فقال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دُمت في مقامي هذا إلا حدثتكم به»، فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يُطْعَنُ في نسبه، فقال يا نبي الله! من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة بن قيس». وقال سراقة بن مالك ويُروى عكاشة بن محصن: يا رسول الله! الحج علينا في كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد مرتين أو ثلاثة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ويحك وما يُؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلتُ: نعم لوجبت، ولو وجبت لَتَرَكْتُمْ، ولو تَرَكْتُمْ لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه»، وقام آخر فقال: يا رسول الله! أين أبي؟ فقال: «في النار»، ولما اشتدَّ غضب الرسول ﷺ قام عمر وقال: رضينا بالله ربًا وبالاسلام دينًا وبمحمد نبيًا فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

فالسؤال يجرُّ أحيانًا إلى ظهور أمورٍ لا مصلحة للإنسان في ظهورها، ويُؤدي أحيانًا إلى إيجاد المشقة في التكاليف، فيجب أن نفهم ما بيّنه الله لنا، أما ما سكت عنه فلم يُبيّنه فلم يطلب اللهُ منا معرفته، لذا قال في هذه الآية: لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم.

والمقصود من ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أن الله لم يُرد منكم تلك الأسئلة.

والمُراد من جملة: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أنه إذا سألتم

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٢/ ص ١٤٢.

رسول الله ﷺ حين نزول آيات القرآن عن كيفية التشريعات وكميّتها أجابكم عن ذلك، إذا كانت أمورًا تكليفيّةً يلزم السؤال عنها.

والمُراد من جملة ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ تلك الأسئلة التي كان الأقوام السابقون يسألون أنبياءهم عنها، فيهلكون، كسؤال قوم صالح عن الناقة ثم عقرهم إيّاها وهلاكهم بسبب ذلك، وقول قوم موسى لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقول آخرين لنبيّهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ..... فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ..﴾ [البقرة:٢٤٦].... وهكذا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٣-١٠٤].

الفوائد: راجت في زمن الجاهلية بعض القوانين الخاصَّة بالأنعام ومنها:

﴿بَحِيرَةٖ﴾: وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكرًا، شقُّوا أذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها وسيَّبُوها لآلهتهم، ولا يُـجَزُّ لها وبر، ولا يُحْمَل على ظهرها، ولا تُطرد عن ماء، ولا تُمنع عن مرعى، وحرَّموا على أنفسهم أكل لحمها.

و ﴿سَآئِبَةٖ﴾: وهي الناقة التي كان صاحبها ينذر أن يُسَيِّبَهَا فتصبح سائبةً لا تُرْكَب ولا تُحْمَل الأثقال على ظهرها [ولا تُحْلَب ولا يُجزُّ لها وبر..الخ].

و ﴿وَصِيلَةٖ﴾: النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ وَلَدَيْنِ فِي بَطْنٍ واحدةٍ قَالُوا وَصَلَتْ، فشقُّوا أذنها وتركوها سائبةً فلم يَسْتَحِلُّوا ذَبْحَهَا وَلَا أَكْلَهَا، أو أنها الناقة أو الشاة إذا ولدت وَلَدَيْنِ فِي بَطْنٍ أحدهما ذكر والآخر أنثى سمُّوها ﴿وَصِيلَةٖ﴾.

و﴿ٱلۡحَامِ﴾ فَحْلُ الْإِبِلِ المخصَّص للضراب فإذا قام بهذا الأمر عشر سنين خُلِّيَ سبيلُه وحرَّموه على أنفسهم [وقالوا: قد حمى ظهره فلا يُحْمَل عليه ولا يُمْنَع من ماء ولا من مرعى].

ولم يوجِب الله تعالى عليهم هذه الأحكام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أن دين الناس كان دائمًا دينًا تقليديًّا للآباء والأجداد والبيئة، كما هو الأمر في زماننا، ولم يكن دين تعقُّل وبحث، ومثل ذلك الدين باطلٌ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٥-١٠٨].

الفوائد: للغة العربية مزايا وخصائص يُمكن من خلالها فهم مرامي المتكلم على نحو ممتاز، أي أن العربيّ الذي يسمع الكلام يفهمه بشكل جيد، ولكن هذه الجمل العربية ذاتها عندما تُنقل إلى الفارسيّة لا تُفهم ضمن تلك المزايا والخصائص لأنها تزول عن الكلام عند ترجمته إلى الفارسيّة.

وعلى كل حال، سنشرح هذه الآيات جملةً جملة كي يُدرك القارئ المقصود منها جيدًا.

«كان تَمِيمٌ الدَّارِيُّ مُسْلِمًا فخرج من المدينة إلى الشام في تجارةٍ له برفقة رفيقين نَصْرَانِيَّيْنِ، فَاعْتَلَّ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ في الشامِ فكتب وصيةً بيده وذكر فيها ما كان في متاعه، ودسها في متاعه ولم يخبر رفيقَيْهِ عنها، وأوصى إليهما وقال: أوصلا متاعي هذا إلى أهلي، وماتَ، ففتشا متاعه وأخذا

منه إناء من فضة منقوشًا بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة فغيَّباهُ، ووجدا قِلَادَةً أيضًا فأخذاها، وأوصلوا باقي متاعه إلى أهله. ففحص أهله الـمتاع ووجدوا الرسالة التي ذكر فيها إناء الفضة والقلادة ولكنهم افتقدوها في الـمتاع! فَقَالَ أَهْلُ تَمِيمٍ لَهُمَا: هَلْ مَرِضَ صَاحِبُنَا مَرَضًا طَوِيلاً أَنْفَقَ فِيهِ نَفَقَةً كَثِيرَةً؟ فَقَالَا: لَا مَا مَرِضَ إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِلَ. قَالُوا: فَهَلْ سُرِقَ مِنْهُ شَيْءٌ فِي سَفَرِهِ هَذَا؟ قَالَا: لَا. قَالُوا: فَهَلِ اتَّجَرَ تِجَارَةً خَسِرَ فِيهَا؟ قَالَا: لَا. قَالُوا: فَقَدِ افْتَقَدْنَا أَفْضَلَ شَيْءٍ كَانَ مَعَهُ آنِيَةً مَنْقُوشَةً بِالذَّهَبِ مُكَلَّلَةً بِالْـجَوْهَرِ وَقِلَادَةً! فَقَالَا: مَا دَفَعَ إِلَيْنَا فَقَدْ أَدَّيْنَاهُ إِلَيْكُمْ.

فَقَدَّمُوهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر: «بالله الذي لا إله إلا هو، ما قبضنا له غيرَ هذا، ولا كتمنا». فحلفا ذلك، فَخَلَّى سَبِيلَهُمَا. قال: فمكثا ما شاء الله أن يمكُثَا، ثُمَّ ظَهَرَتْ تِلْكَ الْآنِيَةُ وَالْقِلَادَةُ عَلَيْهِمَا، فَجَاءَ أَوْلِيَاءُ تَمِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ ظَهَرَ مَا ادَّعَيْنَاهُ عَلَيْهِمَا، فَانْتَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الوَحْيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيَانَ الْـحُكْمِ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى الآيات الـمذكورة أعلاه، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْلِيَاءَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنْ يَحْلِفُوا بِاللهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَحَلَفُوا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقِلَادَةَ وَالْآنِيَةَ مِنَ النَّصْرَانِيَّيْنِ وَرَدَّهُمَا إِلَى وَرَثَةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ»[1].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ على أن الإشهاد على الوصيّة أمرٌ لازمٌ ومشروعٌ كي لا يضيع ما تركه الإنسان. وتدل عبارة ﴿ذَوَا عَدۡلٍ﴾ أنه يجب أن يكون الشاهدان عدلين. كما تدل كلمة ﴿مِنكُمۡ﴾ أنهما يجب أن يكونا مسلمين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ....﴾ أنه لو لم يتوفَّر الشاهدان الـمُسلمان في السفر فعليكم بإشهاد شاهدين غير مسلمين يكونان عدلين في مذهبهما، ولا يكونان من الكاذبين

١- جَمَعَ الـمؤلفُ فما ذكره من قصة بين أكثر من رواية ودمج بينها، والرواية أصلها لدى الكُلَيْنِيّ، في **الكافي**، ج ٧ / ص ٥- ٦، وفي **تفسير علي بن إبراهيم القمي** لدى تفسيره للآيات الـمذكورة. ولكن القصة مروية بصورة مختلفة تمامًا من ناحية الأشخاص والـمتاع وإن اتّفقت من حيث الجوهر، في التفاسير الـمعروفة **كجامع البيان** للطبري و**معالـم التنزيل** للبغوي و**مجمع البيان** للطبرسي وغيرها.

والـمحتالين. وَتَدُلُّ جملةُ: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ أنه لو شك الورثة في صدق الشاهدين فعليهما أن يُقسما على النحو الذي ذكرته الآية.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أن القسم يجب أن يتم في الـمسجد أو في مكانٍ مُقدَّسٍ بعد الصلاة وأمام الناس، كي يكون هناك جوٌّ من الهيبة والتعظيم، رغم أنه في الأصل لا قسم على الشاهد، ولكن في هذا الـمورد أصبح الشاهد في موقع الـمُنْكِر، فتنطبق عليه قاعدة: «اليمين على من أنكر».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ القَسمَ على عدم كتمان الشهادة وعدم الخيانة فيها، يجب أن يكون بالله لا بمُقدسات أخرى.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [الـمائدة: ١٠٩].

الفوائد: الـمقصود من ﴿يَوۡمَ﴾ يوم القيامة، وهذا اليوم مفعول لفعل ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي جاء في الآية السابقة. وتدل هذه الآية على أنه بعد رحيل الأنبياء عليهم السلام عن هذه الدنيا، ينتقلون إلى عالـم آخر وتنقطع صلتهم عما يجري فيها، وبشكل خاص لا يعلمون الأمور الغيبيّة رغم أنهم كانوا، زمن حياتهم، مُطَّلعين على ظواهر أحوال أمتهم.

قال الـمرحوم الطَّبْرِسِيّ في مجمع البيان ذيل تفسيره لهذه الآية:

«.. وذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره أنها [أي هذه الآية] تدل على بطلان قول الإمامية: إن الأئمة يعلمون الغيب. وأقول [أي الطبرسي]: إن هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم، فإنا لا نعلم أحدًا منهم بل أحدًا من أهل الإسلام يصف أحدًا من الناس بعلم الغيب، ومن وصف مخلوقًا بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإمامية برآء من هذا القول، فمن نسبهم إلى ذلك فالله فيما بينه وبينهم».

يقول الكاتبُ (البرقعي): نعم لم يكن علماء الإمامية الـمعاصرون للطبرسي والذين كانوا قبله، يعطون للأئمة صفات الله تعالى، بل كانوا يعتبرون ذلك كفرًا، ولكن [كثيرًا منهم] في زماننا

يعتبرون الإمام عالـمًا بالغيب، بل بعضهم يعتبر ذراري الأئمة أيضًا عالـمين بالغيب، ولو نبَّهْتَهُم إلى خطئهم هذا كفّروكَ وفسَّقُوكَ، وعلى قول الـمرحوم الطبرسي قالوا: إنك فارقتَ الدين وأعرضوا عنك!.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [الـمائدة: ١١٠].

الفوائد: ذكرنا في التعليق على الآيات من ٤٥ إلى ٤٩ من سورة آل عمران الأمور التي ذُكرت في هذه الآية، وأوضحنا شيئًا منها هناك فلترُاجع ثمَّة.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الـمائدة: ١١١-١١٥].

الفوائد: سُمِّيت هذه السورة بسورة الـمائدة لنزول الآيات الـمُتعلقة بقصة إنزال الـمائدة فيها، وكان يوم نزول الـمائدة يوم الخميس الذي يتخذه النصارى عيدًا، واختلف الـمُفسرون في عرض تلك السفرة وطولها والطعام الذي كان فيها، فقال بعضهم: كانت خُبزًا ولحمًا واللحم فيها كان لحم سمك، وأنها لما أُنزلت خاف عيسى عليه السلام وخرَّ ساجدًا وبكى وقال: «اللهم اجعلني من

الشاكرين. اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها مثلاً وعقوبةً». فسأل الحواريُّون عيسى عليه السلام: هل هذه المائدة مِنْ طعام الدنيا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى عليه السلام: ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة[1].

وأيًّا كان الأمر، فعندما نزلت المائدة لم يأكل منها يومئذ زَمِنٌ إلا صَحَّ ولا مريضٌ إلا بَرِئَ ولا فقيرٌ إلا استغنى... ولما نزلت اجتمع إليها الفقراء والأغنياء، فلم يُعْجِب ذلك الأغنياءَ، وكان سببًا في شكِّهم، فمُسِخَ عددٌ منهم، وَرُفِعَت المائدة.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١٢٠].

الفوائد: اعترض بعض الكتاب هنا قائلين: لم يتخذ أحد حضرة عيسى وأمه عليهما السلام إلهين حتى يقول الله تعالى مُعاتبًا: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾؟

ومنشأ هذا الإشكال تخيّل صاحبه أن معنى ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ ربَّين خالقين [اللَّهَيْنِ]، أي اعتبار معنى إله: الله. وبالطبع لم يعتبر أحد من النصارى أن عيسى هو الله الموجِدُ الخالقُ، وليس معنى الإله في اللغة: الله، بل الإله مشتق من مادة أَلِهَ بمعنى «**من يُقصَد إليه في الحوائج**»، والإله معناه

١- الطبرسي، **مجمع البيان**، والبغوي، **معالم التنزيل**، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، وغيرهم ذيل تفسيرهم للآية المذكورة.

أيضًا: المألوه أي هو مصدر بمعنى المفعول. ولا شك أن النصارى يتوجّهون في طلب حوائجهم إلى عيسى المُتخيّل في أذهانهم. ألا ترى أنهم في جميع الكنائس والمستشفيات في أمريكا وأوروبا يطلبون من عيسى شِفاء الأمراض، وهذا هو المعنى الذي يُعاتب الله فيه عيسى فيقول له: أأنت قلت للناس أن يتَّجهوا في طلب حوائجهم إليك فيتَّخذوك إلهًا؟ وقد أجاب عيسى عليه السلام بكل عجزٍ وانكسار: لم أقل لهم ذلك وما يكون لي أن أقول مثل هذا الكُفر، لأنني بعد أن رحلتُ عن الدنيا انقطعت صلتي عن أمَّتي، فكيف لي أن أكون سميعًا بصيرًا مُلبِّيًا لحوائجهم؟

وهذا المعنى يظهر واضحًا في الآيات، فقد قال عيسى لقومه: إن ربِّي وربّكم واحد هو الله، أي أنا لست بربِّكم أيُّها الناس فلا ترجعوا إليَّ [بالاستمداد والتضرُّع]، وقال في مقام آخر: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: ١١٧]. أي لستُ رقيبًا على أحوالهم بل اللهُ رقيبٌ على جميع الناس وهو وحده الحاضر الناظر [في كل زمان ومكان].

ويا للأسف! كيف صمَّ المسلمون آذانهم عن هذه الآيات القرآنية الواضحة واعتبروا كلَّ عبدٍ مُقرَّب ملجًا لطلب حوائجهم وقالوا: فلانٌ باب الحوائج إلى الله؟ وليت شِعري! هل لِلَّهِ باب؟ وهل العبد الصالح الفُلانيّ مُراقب للناس في كل مكان وشاهد وناظر مثل الله؟ هل الذي يُلقِّنون الناس مثل هذه العقيدة الشركيّة في المجالس والمحافل مؤمنون حقًا بالله واليوم الآخر؟ لا والله. نعوذ بالله من مُضِلات الفتن.

سورة الأنعام

مكيّة وهي مئة وخمس وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ١-٣].

الفوائد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ خبريّةٌ يحمد حضرة الحقّ تعالى فيها نفسه، والألف واللام في الحمد للاستغراق، أي جميع المحامد تليق بذاته سبحانه وتعالى.

ولما جمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أمكن القول: إن الظُّلمات أكثر من النُّور، كما أن طُرُق الباطل كثيرةٌ وطريقُ الحقِّ واحد.

والمقصود من جملة ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ أن الله أبدل النباتات التي نشأت من التراب إلى نُطفةٍ وأبدل النُّطفة إلى بشر.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا

ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام: ٤-٦].

الفوائد: يُمكن أن يُراد من جملة ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ آيات القرآن أي الآيات التشريعيّة، ويُمكن أن يُراد الـمُعجزات أي الآيات التكوينيّة.

والـمقصود من جملة: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥﴾ نتائج تلك الأنباء التي وُعِدُوا بظهورها يوم القيامة.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا
سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ
۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ
مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ٧-١٠].

الفوائد: كان فريقٌ من الـمشركين يقولون: يا محمّد! لن نُؤمن لك حتى تَأتِينا بكتاب معه أربعة من الـملائكة يشهدون أن ذلك الكتاب هو من عند الله وأنك رسول الله! فقال تعالى: لو أنزلنا عليك ما طلبوه منك لقالوا: هذا سحر.

وقال فريقٌ آخر من الـمشركين: لماذا لا ينزل على محمَّدٍ ملاكٌ من السماء فنراه بأعيننا؟ فقال تعالى: لو أنزلنا عليهم ملكًا يرونه لن يُقبل بعد ذلك منهم أي عذر على كُفرهم وسينزل بهم العذاب، هذا إضافةً إلى أن الـملاك ليس جسمًا مرئيًا، وإذا جسَّدنا لهم ملاكًا سيشتبه الأمر على الضعفاء ويقولون: ليس هذا بملاك بل هو بشر، ثمّ يقول تعالى مُسلِّيًا رسولَه: لقد كان الكفار يستهزؤون قبلك بسائر الأنبياء ويخترعون الإشكالات الباطلة لكن العاقبة كانت في النهاية أن حاق بالـمُستهزئين العِقاب ذاته الذي كانوا يستهزؤون منه.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ قُل لِّمَن مَّا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا
رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ

وَلَا يُطْعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: ١١-١٥].

الفوائد: بعد أن أثبت الله تعالى في هذه الآيات، بالدلائل الواضحة، قدرته وأنه مالك الموجودات والمُتصرِّف في كل شيء وأنه أوجب على نفسه الرحمة والخير لعباده، قال بعد ذلك لرسوله: إذن فلا تعتبر غير الله وليًّا لك، أي أنك لو اعتبرت أحدًا غيرَ اللهِ وليَّ أمرك الذي بيده ناصيتك والقَيّم عليك أشركت به، لأن الولاية التكوينيّة والحاكميّة والسيادة الحقيقيّة إنما تكون لمن خلق كل شيء وأطعم ورزق كل المخلوقات ولا يُطعمه أحد، ولا أحد له مثل هذه الصفات سوى الله؛ فلا يملك أحدٌ ولايةً تكوينيّةً سواه.

والمقصود من جملة ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾ أن محمدًا نفسه أول المسلمين وأنه مُطيع لأوامر الله وتشريعاته.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أن محمدًا ﷺ نفسه إن عصى الله خاف من عذابه، فعلى الآخرين أن لا يعصوا الله.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: ١٦-١٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ على أنه لا يُمكن لأحد سوى الله أن يدفع الضُّر أو يجلب الخير أو يشفي من المرض أو يُلبِّي الحاجة أو يكون واسطةً لفعل هذه الأمور، وأن الله لم يُوكل فعل مثل هذه الأمور لأحد.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ أن اللهَ وإن كان قد أعطى عباده الإرادة الحرَّة

والقدرة على اختيار أفعالهم، إلا أن هذا لم يخرجهم من تحت سلطانه وتصرُّفه وقهره، بل هو قادرٌ عليهم بقدرته الغالبة ومالكٌ لنواصيهم، ويُمكنه - إن شاء - أن يمنع أيَّ أحد من فعل أي شيء.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أن القرآن حُجَّةٌ على كل من وصله القرآنُ ولو لم يكن من العرب، وأن على رسول الله ﷺ أن يُبلِّغ الناس هذا القرآن ويُرشدهم به.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾ أن طلب الحوائج من غير الله والتَّضرع والتذلُّل لغير الله شِرك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠].

الفوائد: يُسْتَفَاد من هذه الآية - كالآية ١٤٧ من سورة البقرة - أن اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنَّ كتابَ الله ورسولَ الله ﷺ حقٌّ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٣ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢٤﴾ [الأنعام: ٢١-٢٤].

الفوائد: كان كُفَّارُ الجاهلية واليهودُ يفترون على الله الأكاذيب كقولهم: إن الله جعل الأصنام شُفعاء للناس عنده أو أن الملائكة بنات الله ونحو ذلك من الافتراءات، وهذا يُماثل فعل بعض المسلمين في زماننا الذين هم أسوأ من الكفار والذين افتروا على الله ما شاؤوا من الأحكام باسم الدين واعتبروا كلَّ بِدعة ابتدعوها أمرًا من أوامر الله، وقد اعتبر الله مثل هؤلاء الأشخاص أظلم من كل ظالم. وبالنسبة إلى الآيتين ٢٣ و٢٤ اللتين نقل الله تعالى فيهما لنا قول المشركين، فقد اعتبر المُفسِّرون أن هذا القول الذي يقوله المشركون يقولونه في الآخرة، أي أنهم يوم القيامة يُقسمون مثل هذا القسم ويفترون مثل هذا الافتراء، ولكننا نرى أن قول المشركين هذا إنما يكون في هذه الدنيا، إذ يُقسمون في هذه الدنيا أنهم غير مشركين، كما نرى في زماننا الذين

يُنادون غير الله في أدعيتهم وعباداتهم بل يصيحون بأسمائهم حتى منتصف الليل ثم رغم ذلك يُقسمون بالله أنهم غير مشركين. ومما يدل على ما ذهبنا إليه أن الأفعال في هذه الآية جاءت بصيغة الماضي.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦].

الفوائد: التعصب للباطل بمثابة حجاب يحجب الإنسان عن الرؤية الصحيحة والتفكير السليم فيُصبح عاجزًا عن إدراك الآيات الإلهيّة، وهذا ما وقع زمن رسول الله ﷺ وهو ما يقع في زماننا أيضًا، فالحقُّ تعالى ترك الناس أحرارًا في اختيار طريق الخير أو الشَّر فاختار بعضهم الغفلة والتعصب والإعراض عن الحقّ وجعلوا على قلوبهم حجابًا ساترًا يحجبها عن رؤية الحقيقة، ولما كان الحقُّ تعالى هو الذي أعطى العباد هذه القدرة على فعل هذا الأمر واختياره فكأنه هو الذي ألقى -بشكل غير مباشر- تلك الحُجب على قلوبهم. ولما لم يكن لدى الكفار دليلٌ يستندون إليه في مجادلتهم ودفاعهم عن خرافاتهم، كانوا يقولون: إن هذه الآيات ليست سوى أساطير الأولين وكانوا يبتعدون عنها ويُبعدون الناس عنها أيضًا.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

الفوائد: إن الله تعالى يعلم كلَّ شيء وكلَّ حادثة قبل وقوعها، كما نجد أنه يُخبرنا في هذه الآيات عن وقائع يوم القيامة قبل وقوعها، ويُبيّن لنا أن الكفار سيقولون كذا وكذا في ذلك اليوم وأنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى ضلالهم ذاته واستمروا فيه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٢].

الفوائد: المقصود من عبارة «لقاء الله» في ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، أنه لا يكون في القيامة حكمٌ ولا سلطانٌ إلا لِلَّهِ، ولا تكون هناك قدرةٌ إلا قدرة الله وحده، ولا قدرة لأحد على الدفاع عن أحد، بل الأمر في الآخرة كلُّه لِلَّهِ وحده، ولذا قال لقاء الله على سبيل الكناية[1].

١- الأسلم عدم التأويل والقول بالكناية وعدم صرف اللفظ عن ظاهره بغير صارف شرعيّ. وقد دلت الأدلة على أن المؤمنين يلقون ربهم بعد موتهم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وفي الصحيحين من حديث عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». وفي رواية للبخاري: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلاَ حِجَابٌ يَحْجُبُهُ». وله أيضًا: «وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ». وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي

سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.....». الحديث. وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

وقد دلت هذه الأدلة على أن اللقاء متضمن لرؤية الله تعالى، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة، بعد السلوك والمسير، وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى واحتجوا بآيات اللقاء على من أنكر رؤية الله في الآخرة من الجهمية، كالمعتزلة وغيرهم. انتهى».

وظاهر هذه الأدلة يدل على أن الكفار يلقون ربهم ويرونه يوم القيامة، كما هو قول طائفة من السلف، ويدل عليه أيضًا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ [الانشقاق: ٦-١٥]. لكن رؤية الكفار له لا تتضمن كرامة لهم ولا نعيمًا، بل يعقبها الحجب والحرمان، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقوله: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا، ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ فعلم أن الحجب كان يومئذ، فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم، وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية، فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة». [مجموع الفتاوى ٦/ ٤٦٦]. فالمؤمن يحب لقاء الله ويحب الله لقاءه، والكافر يكره لقاء الله، ويكره الله لقاءه، والجزاء من جنس العمل. وأكمل اللقاء وأتمه إنما يكون بعد دخول المؤمنين للجنة، ورؤيتهم ربهم الكريم الرحيم، فما أعطوا نعيمًا أعظم من نظرهم إلى الله، كما صحت بذلك الأحاديث وأجمع عليه أهل السنة. والحاصل أن الإنسان -المؤمن والكافر- يلقى ربه يوم القيامة، وينفرد المؤمن برؤية ربه في الجنة. [المُصحح]

أما بالنسبة إلى اعتبار الحياة الدنيا لَعِبًا وَلَهْوًا فوجهُهُ ما يلي: **أولاً**: كما يصرف الإنسان عمره باللهو واللعب كذلك تمضي الدنيا. **ثانيًا**: كما يندم الإنسان بعد انتهائه من اللهو واللعب ولا تبقى له منهما إلا الحسرة، كذلك عندما ينتهي عمر الإنسان يتحسَّر ويتمنى لو أنه استفاد من عمره أكثر. **ثالثًا**: أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة الدنيا كذلك. **رابعًا**: كما أن اللعب واللهو لا بدّ وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى وقوع نزاعات أو إلى شيء من المكاره، كذلك لذات الدنيا متعة قليلة تعقبها الآلام والأمراض والندم والآفات الأخرى. **خامسًا**: كما ينظر العقلاء إلى ألعاب الأطفال نظرة احتقار بوصفها أشياء لا قيمة حقيقية لها، كذلك ينظرون إلى من انشغل في حياته بالملذات وَاِتِّباع الشهوات نظرة احتقار. **سادسًا**: كما أن اللعب واللهو لا يلتذُّ بهما الإنسان الكامل بل الأطفال، كذلك ملذات الدنيا لا يغترُّ بها الإنسان الكامل. **سابعًا**: خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج، وهي في نهاية الخساسة، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان، فإن الجمل أكثر أكلاً، والديك والعصفور أكثر وقاعًا، والذئب أقوى على الفساد والتمزيق، والعقرب أقوى على الإيلام. **ثامنًا**: ومما يدل على خساستها أنها لو كانت شريفةً لكان الإكثار منها يوجب زيادة الشرف، ولَكَانَ الإنسانُ الذي وَقَفَ كلَّ عمره على الأكل والوقاع أشرفَ الناس وأعلاهم درجةً، ومعلوم بالبديهة أنه ليس الأمر كذلك بل العكس هو الصحيح، فكُلَّما انغمس الإنسان في الملذات والشهوات أكثر أصبح ممقوتًا ومستقذرًا ومستحقرًا أكثر، وكلَّ من أفرط في الأكل أكثر، استحقره الناس أكثر، ولذلك كان العقلاء عند الاشتغال بالوقاع يختفون ولا يُقْدِمُون على هذه الأفعال بمحضر من الناس، وذلك يدل على أن هذه الأفعال لا توجب الشرف بل النقص. **تاسعًا**: مما يدل على خساسة الاشتغال بالشهوات أيضًا أن الناس إذا شتم بعضهم بعضًا لا يذكرون في شتائمهم إلا الألفاظ الدالة على الوقاع، ولولا أن تلك اللذة من جنس النقصانات لما كان الأمر كذلك. **العاشر**: لذات الدنيا ترجع في حقيقتها إلى دفع الآلام، ولذلك فإن كل من كان أشد جوعًا وأقوى حاجةً كان التذاذه بهذه الأشياء أكمل له وأقوى، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه لا حقيقة لهذه اللذات في نفس

الأمر، كما أن لذات الدنيا يرافقها في الغالب غصب حقوق الآخرين.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فَسَبَبُهُ أن منافعَ الدنيا مظنونةٌ ومنافعَ الآخرة مقطوعٌ بها. ومنافعُ الدنيا زائلةٌ ومنافعُ الآخرة باقيةٌ. ولما كان كشف تلك الأمور يتم بفضل العقل قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤].

الفوائد: الكفَّارُ الذين كذَّبوا رسول الله ﷺ وقالوا عن معجزاته: إنها سِحْرٌ، واعتبروا آيات الله أساطيرَ الأوَّلين، إنما كذَّبوا في الحقيقة بالله تعالى وآياته وأعرضوا عنها، بل أنكروها، ولذا يُسَلِّي اللهُ تعالى رسوله ويقول له: إنهم لا يكذِّبُونك على التعيين بل قد كُذِّبَ جميعُ الأنبياء والرسل من قبلك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أن لا أحد يستطيع أن يغير قوانين الله وآياته وكلماته سواء كانت كلماته التكوينية أم أوامره وكلماته التشريعية، لأنَّ الآيَةَ مطلقةٌ.

وحرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ للتبعيض ويَدُلُّ على أنَّ الله أوحى إلى رسوله ﷺ بعض أخبار الأنبياء عليهم السلام فحسب، وأنه ﷺ لا علم له بما لم يُوحَ إليه.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٧].

الفوائد: جاء جماعة من المشركين إلى رسول الله ﷺ وقالوا: لماذا لم تُعْطَ مثل المعجزات

التي أُعْطِيَت للأنبياء من قبلك؟ يا محمد! ائتنا من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنا نُصَدِّق بِكَ، فأبى الله أن يأتيهم بآية، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فشقَّ ذلك عليه، فنزلت هذه الآية، أي إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ فَأْتِهِم بها، لكنَّك لن تستطيع، وَلَوْ أراد اللهُ أن يأتيهم بآيةٍ لفعل ذلك لكنه لا يرى مصلحة في هذا الأمر؛ فلا يَشُقَّنَّ عليك ذلك ولا تكونَنَّ من الجاهلين. والآية ٣٧ صريحة وواضحة في أن المعجزة فعل الله وأثر قدرته تعالى، ولا يملك الأنبياء فعلها بأنفسهم، ويمكن أن نستنبط من هذه الآية أن معجزة النبيِّ ﷺ هي القرآن الكريم فقط.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

الفوائد: تدُلُّ هذه الآية على أن جميع الحيوانات سواء كانت أنعامًا أم طيورًا أم زواحفَ، أممٌ كأمم البشر. والسؤال هو: من أي ناحية هي كالبشر؟

يمكن أن نقول: إنّها مثل البشر في التسبيح والتحميد للحق تعالى، لأنه تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي جميع الكائنات تسبح الله بلسان حالها.

ويمكن القول أيضًا: إن البهائم لا تفكير عقلي لها إلا في أربعة موارد: **معرفة الله، معرفة الرزق وابتغاؤه، معرفة الذكر والأنثى، وأن كل واحد منها مسخَّرٌ للآخر**. ويُمكن القول: إن الحيوانات التي يُشبه بعضها بعضًا تُشكل أممًا وجماعات يأنس بعضها ببعض وتتوالد وتتناسل كالإنسان، وكل من يرجع إلى الأبحاث التي قام بها العلماء في هذا المجال يُدرك هذه الحقيقة بشكل أفضل، فمثلاً إذا درس الإنسان حياة حيوان صغير جدًا كالنمل أصابته الحيرة، فمملكة النمل تحت الأرض والأبنية والطُّرق والمخازن التي يقوم النمل بإعدادها، وما بين أفراد النمل من تعاون ومشاركة، أمرٌ يُحيِّرُ العقول ويعجب منه الإنسان، ويتعلم منه دروسًا مهمة في معرفة الله. والأمر ذاته ينطبق على دراسة حياة سائر الحيوانات.

ويُمكننا القول: إن الحيوانات تُشابه الإنسان في أن الله هيَّأ لها رزقها وتكفَّل بكل ما تحتاجه.

ويُمكننا أن نقول أيضًا: إن الحيوانات مثلها مثل البشر قد كتب الله لها رزقها وعمرها وعاقبة أمرها، وكلها تتمتع بفضل الله وعنايته. ويُمكن أن نقول أيضًا: إن صفات الحيوانات متفاوتة كصفات البشر: فبعضها يتصف بالسَّبُعيّة كالذئاب وبعضها يتصف بالتملُّق كالكلاب والقطط وبعضها يتصف بالسرقة كالفئران وبعضها يلسع الآخرين كالحية والعقرب وبعضها دَيُّوثٌ لا غيرة عنده كالخنزير وبعضها حذر محتاط كالغراب وبعضها وفيٌّ كالكلاب... وهكذا.

والمقصود من جملة ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ أن كل ما يلزم من أمور الدين جاء بيانه في القرآن وكل ما لم يذكره القرآن فهو ليس من الأمور اللازمة في الدين. فإن قيل: إن القرآن لم يُبيّن لنا تفاصيل الأحكام. قلنا: بلى، لأنه عندما قال تعالى لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فقد أرشدنا إلى جميع تفاصيل الأحكام التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ أو بيَّنها لنا ﷺ عمليًّا، فالقرآن ثَبَّت كل ذلك، كما أنه تعالى لما قال لنا في سورة النساء: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]، أثبت لنا جميع المسائل التي أجمع عليها المسلمون كافة، ولما قال: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ثَبَّت لنا جميع المسائل العقلية الدينية. أضف إلى ذلك أن القرآن ذكر لنا قواعد كليّة تنطبق على آلاف المسائل الجزئية مثل قاعدة الاضطرار والإكراه ورفع الحرج وقُبح العقاب بلا بيان وأمثالها. إذن، فقد ذكر لنا القرآن جميع المسائل التفصيلية [إما بشكل مباشر أو غير مباشر].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أن جميع الحيوانات ستُبعث يوم القيامة وتُنْشَرُ وتُحشَرُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥]، ولكننا لا ندري كيفية حشر الحيوانات؟ وهل هو لأجل الاقتصاص من الظالم للمظلوم؟ أم لغير ذلك؟ الله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٣٩-٤١].

الفوائد: مَثَلُ الذين يمرُّون مرور الكِرام على جميع هذه الآيات الإلهيّة وكأنهم لم يُشاهدوها ولم يسمعوها، أو الذين يُكذِّبون بآيات الله، مثلُ الـمُصابين بالصمم والعمى والبُكم الذين هم في الظلمات غافلون، أسرى للتعصب فلا يرون الحقَّ ولا يسمعونه، لذلك وصفهم الله بأنهم صُمٌّ عُميٌ بُكمٌ لأنهم لم يستفيدوا من أعينهم وآذانهم وألسنتهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ أن الـمشركين وعُبَّاد الأصنام [زمن الجاهلية] كانوا يدعون الله وحده عند الشدائد والعذاب وعند مواجهتهم للموت ويتركون من عداه. لكنّ مشركي زماننا يدعون غير الله من عباده الصالحين حتى في الشدائد والـمُلِمَّات زاعمين أن هؤلاء العباد يتوسَّطون لهم عند الله، أو مخترعين لأنفسهم حُججًا أخرى هم أعلم بها! فَشِرْكُهُم -من هذه الناحية- أسوأ من شرك أهل الجاهليّة.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

الفوائد: يبتلي اللهُ تعالى الناسَ بالشدائد والمصاعب كي يُوجِّهَهُم نحو الله فيتجهوا إليه بالتضرُّع والإخلاص، والذين لا يتَّجهون إلى الله في مثل هذه الأحوال الصعبة واقعون في غفلة شديدة أو قسوة للقلوب، وعليهم الحذر من أن يحلّ بهم عذاب الله بغتةً فيأخذهم في حال يئسوا فيها من الخلاص. وقد حمد اللهُ ذاتَهُ على قطع دابر الظالـمين وإهلاكهم، ونحن أيضًا نحمد الله على هذا الأمر.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ۝٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ

عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧].

الفوائد: جملة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ...﴾ سؤالٌ عن الرؤية الفكرية والعقلية، وتوجيهٌ للمُخاطَب نحو حقيقة الأمر وطلب بيانه، ويُمكن اختصار هذا المعنى كلَّه بعبارة «أخبروني» كما ترجمناها. فإن قيل: عندما يحل عذاب الله لا يقتصر على عقاب الظالمين فقط ولكنّه يُدمِّر الأخضر واليابس؟ فالجواب: إن الله عندما يُنزل عَذَابَهُ، يُنقذُ الذين لم يتعاونوا مع الظالمين ولم يُساعدوهم في ظلمهم ولم يسكتوا عن ذلك وإذا هلكوا مع الآخرين فإن هلاكهم لن يكون كهلاك الظالمين، بل سينالون أجرًا كبيرًا جزاءً على ما أصابهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩].

الفوائد: يَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أن وظيفةَ الأنبياء جميعِهم: التبشير والإنذار وإبلاغ الوحي للناس، ولا وظيفة أخرى لهم، فلا يجوز الغُلوُّ بشأنهم والاعتقاد بأنهم وُزراء الله وأصحاب سلطة ومشاركة في أفعال الله.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآية الكريمة على أن خزائن القدرة والعلم والحياة والرزق والشفاء ليست عند رسول الله ﷺ، فلا يجوز أن نغْلُوا في حقِّ رسول الله ﷺ كما غلت النصارى في نبيّهم ولا أن نتوقَّع منه أمورًا تكوينيّةً كالتي جاءت في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء:٩٠]، والتي أجاب الله عنها بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٣].

وجملة ﴿لَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ صريحة في نفي علم الغيب عن رسول الله ﷺ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أن مقام خَاتَم الأنبياء، رغم أنه أشرف بني

آدم، أدنى من مقام الـملاك، لأن الـملائكة أفضل من الأنبياء.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أن رسول الله ﷺ لا يحكم من عند نفسه ولا يُشرِّع أحكامًا من عند نفسه كما يفعل مُجتهدونا، ولا يحكم برأيه.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٠-٥١].

الفوائد: عن عبد الله بن مسعود قال: مرّ الـملأ من قريش بالنبيّ ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء الـمسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك! فقال ﷺ: «ما أنا بطارد الـمؤمنين». فقالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فأراد رسول الله ﷺ أن يقبل طلبهم هذا إذ نزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ...﴾. فقال رسول الله ﷺ لأولئك الـمؤمنين: «**مرحبًا بمن عاتبني ربِّي فيهم**». وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قومٍ من أمتي، معكم الـمحيا ومعكم الـممات»[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٣-٥٤].

١- يُراجَع: البغوي، **معالـم التنزيل**، والطبري **جامع البيان**، والرازي، **مفاتيح الغيب**، ذيل تفسيرهم الآيةَ ٥٤ من سورة الأنعام، وقد جمع الـمؤلف بين ما ذكروه جميعًا.

الفوائد: تتكلم هذه الآيات عن الفقراء والأغنياء الذين جعل الله كلاً منهم اختبارًا للآخر، ويُستفاد من هذه الآية أن من آمن ثم ارتكب ذنبًا، يقبل الله توبته، وإذا جاء مثل هذا الشخص إلى رسول الله ﷺ فإن النبيّ كان مأمورًا أن يُسلِّم عليه، أي يُبلِّغه رحمةَ اللهِ، حتى لو كان فقيرًا أُمِّيًّا.

وليس المقصود من جملة: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ...﴾ ارتكاب الذنب عن خطأ أو من غير قصد، [لأن الله رفع عن أمة محمد الخطأ]، بل المقصود أن كل من ارتكب سوءًا وإثمًا فقد جَهِل أي عمل عملاً جاهلاً ولو كان قد ارتكب هذا العمل عن علم ومعرفة، وذلك لأنه رجَّح اللَّذة الضَّئيلة الفانية على اللَّذة العظيمة الدَّائمة، ومن يفعل ذلك فهو جاهل بمقدار الدرجات التي خسرها وجاهل بآثار الذنب الذي ارتكبه ومفاسده.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: ٥٥-٥٧].

الفوائد: عبَّر الله تعالى عن الأصنام بجملة ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع أن كلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تُطلق على العُقلاء، والأصنام ليست من ذوي العقول، وسبب ذلك أن الأصنام كانت تماثيل لأشخاص ذوي عقول ولعباد صالحين، وَمِنْ ثَمَّ فعبّاد الأصنام كانوا يتوجهون إلى أولئك الصالحين لقضاء حاجاتهم ويدعونهم ليُحقِّقوا لهم مُراداتهم، فاعتبر الله هذا العمل عينه ضلالاً كما نهى عنه رسول الله ﷺ.

وتُشير جملة ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ إلى العذاب الذي كان الكفار والمشركون يطلبونه من رسول الله ﷺ ويقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وأن رسول الله ﷺ أُمِرَ أن يقولَ لهم: إن العذاب ليس بيدي ولا أملكه.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٨-٥٩].

الفوائد: تَدُلُّ الآيةُ ٥٩ على أن الله تعالى عالـم بكل ذرة من ذرات الكون وخزائنه، وتقديم ﴿عِندَهُۥ﴾ يدل على الحصر، أي لا أحد عنده مفاتح الغيب ويعلمها إلا الله. وكلمة ﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع مَفْتَح ومِفْتَح أي الـمفاتيح، ويُمكن أن نأخذها على معنى الخزائن أيضًا.

والـمقصود من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أمّ الكتاب أو اللوح الـمحفوظ الذي يتضمن العلم بالكائنات جميعها وبكل ما في الكون، والـملائكة تأخذ علمها من ذلك الكتاب الـمُبين أيضًا. والقول بأن الكتاب الـمُبين هو علم الحقّ تعالى أقرب إلى الصواب، والله العالـم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾[الأنعام:٦٠-٦٢].

الفوائد: قهر الله معناه سيطرته وسلطانه على الكون، فهو يُوجد من العدم ويفني الـموجودات ويعيدها إلى العدم، والكون كلُّهُ نال الوجود من الله، وقد خلق اللهُ لكل شيء ضدًّا ووجود الضد للشيء يدلُّ على نقص هذا الشيء، وهذا دليل على أن اللهَ تعالى لا ضدَّ له، وقد خلق لكل موجود ضدًا إظهارًا لعجز هذا الـموجود الذي يعجز عن إعدام ضده، فللفوق ضد هو تحت، وللماضي ضد هو الـمستقبل، وللنور ضد هو الظلمة، وللحياة ضد هو الـموت، ولليل ضد هو النهار، وللكربون ضد هو الأكسجين، وللحرارة ضد هي البرودة... وهكذا. وهو الذي قهر الأشياء جميعها وَجَمَعَ بين متضادَّاتها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أن الله جعل على كل إنسان حفظة من عنده يحفظونه، فإذا حان موعد موته تركوه كي يقبض رُسل الله روحَه.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

الفوائد: يَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أن مشركي مكة كانوا يؤمنون بالله وكانوا يدعونه ويتضرعون إليه خُفيةً في الـمُلِمَّات والحوادث الـمُرعبة في ظُلُمات الصحارى والبحار، ولكنهم عندما يُنجيهم الله من تلك الـمُلِمَّات والـمخاوف يعودون إلى عبادة الأصنام ولا يبقون على إخلاصهم ذاك. وَمِنْ ثَمَّ ينبغي أن نعلم أن مشركي زماننا أسوأ في هذا الأمر من أولئك الـمشركين لأنهم يدعون في الـمُلِمَّات والـمخاطر عبادَ الله الـمُقربين ويعتبرونهم أرحم بهم من الله!

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٨].

الفوائد: الـمقصود من جملة ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ إما العذاب الذي ينزل من السماء، أو عذاب من هم أقوى منهم وأعلى رُتبةً أي الجبابرة والأُمراء، والـمقصود من ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ إما العذاب الذين يظهر من الأرض، أو عذاب من هم تحتكم رتبةً كالعبيد والتابعين والسفلة. والـمقصود من جملة ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ التشرذم والتفرق إلى فرق مُتناحرة يُقاتل بعضها بعضًا ويلعن بعضها بعضًا ويشتمه أو يقتله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، شقَّ ذلك على الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «ما بقاء أمتي إن عوملوا بذلك؟» فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك فادع ربك لأمتك، فسأل ربه أن لا يفعل بهم ذلك. فقال جبريل: إن الله قد أمنهم من خصلتين: أن لا يبعث عليهم عذابًا من فوقهم كما بعثه على قوم نوح ولوط، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون، ولم يُـجِرْهُمْ من أن يلبسهم شيعًا بالأهواء الـمختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف»[1] .

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٣/ ص٢٠.

والمقصود من جملة ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ التكذيب بالقرآن.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٨-٧٠].

<u>الفوائد</u>: لما نهى الله المسلمين عن مُجالسة المشركين حين يستهزئون بالقرآن، قال المسلمون: إذن ينبغي أن لا نذهب إلى المسجد الحرام ولا نطوف به لأننا لو فعلنا ذلك لسمعنا كلمات المشركين القبيحة بحقّ الإسلام والقرآن، فنزلت آية: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ ومفهومها أن المؤمنين الأتقياء الذين يعظون المشركين لا إثم عليهم إذا سمعوا من المشركين الكلمات القبيحة والمُهينة [بحق القرآن والإسلام] ولن يُحاسَبوا على ذلك.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

<u>الفوائد</u>: الذين يدعون الناس إلى الشرك والضلال إنما يدعون أشخاصًا يمتلكون خصائص مُعيّنة ذكرتها جملة ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ... ٱلْآيَةَ﴾ وهي:

الأول: أنهم يتّبعون أهواءهم الشيطانيّة.

الثاني: أنهم حائرون في أمور دينهم، ولم يكن لديهم دين عقلانيّ ومنطقيّ.

الثالث: أنهم ممن يُمكن مُصاحبتهم وخداعهم كما قال تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ﴾.

الرابع: أنهم يُضلونهم باسم دعوتهم إلى الهُدى، فمثلاً باسم إقامة مجلس دعاء ومناجاة الله يقرؤون دعاء «النُّدبة» ويُنادون غير الله ويطلبون حاجاتهم من غير الله.

الخامس: أنهم يقولون لهم ﴿ٱئۡتِنَا﴾، أي تعال لننظر، لكن الحقّ تعالى يقول: **انظر أولاً ثم تعال.**

﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٢-٧٣].

__الفوائد__: المقصود من خلق السماوات والأرض بالحقّ أنه تعالى لم يخلقها باطلاً أو لغوًا بل خلقها لهدف وغاية وأن هناك حسابًا وكتابًا وحكمةً، والمقصود أيضًا أن قول الله حقّ أي مُطابق للواقع والمصلحة وليس فيه لغوٌ أو كذب.

﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٨].

__الفوائد__: المقصود من إراءة ملكوت السماوات والأرض الوقوف على القوانين العلميّة المُنظِّمة للكون وعلى الآيات الباهرة المُظْهِرَة لقدرة الحقّ تعالى، فالإراءة إراءة عقلية لا بصرية، لأن استدلالات إبراهيم عقليةٌ كلُّها، إضافةً إلى أن الإراءة بالبصر ليس فيها ما يستحق المدح، فالذين لم يُشاهدوا الملكوت ببصرهم كيف يؤمنون به؟ وقد استدل إبراهيم عليه السلام بالأُفول والغروبَ على الحدوث لأن الموجود الذي تضعُفُ آثارُه أو تتغير أو يعرض له الحركة والسكون ليس واجبَ الوجود لأنه يحتاج إلى مؤثِّرٍ آخرَ ومُحرِّكٍ يُحرِّكُهُ.

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن

يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٧٩-٨١].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآيات أن دين الحقّ يجب أن يكون قائمًا على الحجَّة والدليل، وأن دين الأنبياء كان قائمًا على الحجة لا على التقليد، والمقصود من قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ أنه ليس لديكم دليل من عند الله على توجُّهكم إلى الأصنام وعبادتكم لها، فمثلاً لم يُنزل الله تعالى كلامًا يقول فيه: اجعلوا أصنامكم قبلة أو ادعوا الله في حضرة الأصنام أو اجعلوا أصنامكم واسطةً بينكم وبين الله، وهذا المعنى مُماثل لقوله تعالى أيضًا: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: ١١١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: ٨٢-٨٨].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ المؤمنون الذين لم يشوبوا إيمانهم بالشرك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أن الله تعالى صدَّق وأقرَّ استدلالات إبراهيم العقلية واعتبرها إلهامًا وتوفيقًا من عند الله، فعلى الناس أيضًا أن يستخدموا عقولهم للتمييز بين الحقّ والباطل.

وقد اعتبرت الآيةُ هنا عيسى عليه السلام من ذُرِّية إبراهيم عليه السلام والـمقصود أن عيسى من ذُرِّية إبراهيم من ناحية أمِّه، وهذا يدل على أن أولاد البنت يُعتبرون من الذُّرية أيضًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: ٨٩-٩١].

الفوائد: الـمقصود من الكتاب هنا الكتب السماوية، والـمقصود من الحكم الحكومة والإمارة الإسلامية مثل حكومة يوسف وسليمان عليهما السلام، ويُمكن أن يكون الـمُراد منها الحِكمة، والـمقصود من النُبوّة نبوّة الأنبياء.

والآية ٩١ دليل على إثبات النبوّة لأن الله تعالى الذي خلق العالـم بالحِكمة وسخَّره للبشر لا يُمكن أن يُهمل البشر ويتركهم بلا غاية، أو أن يتركهم أحرارًا في ارتكاب كل جريمة، بل لا بدّ أن يُرشدهم ويهديهم ولو لم يفعل ذلك فإما أنه ليس بهادٍ أو أنه عاجز عن الهداية، ومن يقول ذلك فهو جاهل بالله تعالى. أضف إلى ذلك أنه لما كانت معرفة جميع أسماء الله وصفاته موقوفةً على الوحي، كان من يُنكر الوحيَ عاجزًا عن معرفة الله كما هو حقه.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: ٩٢-٩٣].

الفوائد: للقرآن أوصاف عديدة منها أنه كتاب مبارك، لأن كثيرًا من أهل العالم يهتدون ببركته ويتركون كثيرًا من الخرافات.

وكاتب هذه السطور نفسه (أي العبد الفقير) بعد أن أنهيتُ دراستي لما يُسمّى بالعلوم الإسلامية، كنت لا أزال غارقًا في الخرافات مثل أي إنسان عاميّ، وقد كنت أعتقد بتلك الخرافات والافتراءات والفنون المذهبية ظانًا أنها من حقائق الدين، إلى أن نَجَوْتُ بحمد الله تعالى ببركة النظر والتأمل في القرآن الكريم ونهلت من معين العلم والحِكمة القرآنية والإسلامية وعرفت أن أكثر أقراني اليوم مُبتلون بالخرافات.

والمقصود من جملة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ إما العالم كله، أو أهالي الحِجاز.

وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ مُطلقة وتشمل جميع مؤمني العالم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أن الله يُرسل عديدًا من الملائكة لقبض أرواح الظالمين والكفار، وأنهم يأخذون أرواحهم بشدة وعنف.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

الفوائد: هل قائل جملة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو الله أم الملائكة؟ كلا الأمرينِ مُحتملٌ، ولا فرق بين الأمرين، فالملائكة هم مأمورو الله يفعلون ما يأمرهم به فيقولون للعبد: كما جئتَ إلى الدنيا أول خِلقتك وحيدًا، تعود الآن أيضًا عند موتك وحيدًا ليس معك رفيقٌ ولا صديقٌ يُرافقكَ، ولا شفيعٌ يُدافع عنك، إذ تنقطع كل الصلات والعلاقات عند الموت.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ

تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٨].

الفوائد: لا فرق بين الحبَّة والنّواة، فالحبّة مقصودة بالأصل وقابلة للأكل أما النّواة فمقصودةٌ بالتَّبع وغيرُ قابلةٍ للأكل. والله تعالى يفلق الحبّة والنّواة، فيفلق أحدها من الأعلى لتنشأ منها الساق، ويفلق الأخرى من الأسفل لتنمو منها الجذور، والعجيب أن هناك قوتين متضادتين تنشآن من الحبّة والنّواة، إحداهما الـميل نحو الأعلى والأخرى الـميل نحو الأسفل، ولو أراد الإنسان أن يطَّلع على قُدرة الحقّ تعالى فالأفضل له أن يرجع إلى علم النباتات ويدرسه.

ذكر الـمُفسّرون معانيَ مختلفةً محتملةً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ والاحتمال الأقوى أن يكون معنى ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ صُلب الأب، ومعنى ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ رَحِم الأم، لأن كل إنسان يأتي إلى الدنيا بهذه الوسيلة. ويُمكن أن نقول: إن الـمقصود أن بعض الناس يُعمِّرون طويلاً وبعضهم يموتون باكرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ٩٩-١٠١].

الفوائد: يُمكن أن يكون الـمُرادُ من الذين ﴿جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ مُشْرِكي مكَّةَ الذين كانوا يؤمنون أن بين الله وبين الجِنِّ نسبًا ويعتبرون الجِنَّ أبناء الله، ويُمكن أن يكون الـمُرادُ الـمجوسَ القائلين بإلهين اثنين [إله الخير، وإله الشر] ويُقال لهم الثنويّة إذ يعتقدون بمؤثِّرين في

الوجود هما: يزدان وأهريمن، ويقولون: إن أهريمن عفريت وهو ما نُسمّيه نحن في مصطلحنا بالشيطان، وهذا الشيطان من الجِنّ ويعتبرونه خالق الشرور، ويقولون إن يزدان خالق الخيرات، في حين أن بعضهم يعتبر أهريمن مخلوقًا ليزدان ويقولون لما فكر الله في مملكته وعظمتها أُعجب بذلك فنشأ من إعجابه بنفسه أهريمن. وبعضهم يقولون شك يزدان في قدرته فنشأ الشيطان أي أهريمن من هذا الشك. وبناءً على ذلك يتبيّن أنهم يعتبرون أهريمن حادثًا ولا يُمكن أن يكون الحادث شريكًا لواجب الوجود القديم بالذات.

والـمرادُ من الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ...﴾ النصارى ومشركو العرب الذين جعلوا لِلَّهِ تعالى الولد والبنات، فقد اعتبر مشركو العرب أن الـملائكةَ بناتُ الله.

و «**البديع**» من صفات الله ومعناها الذي يخلق من العدم، ودون مثال سابق.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

الفوائد: بعد أن أثبت الله تعالى وحدانيته ونفى أن يكون له شريكٌ، بيَّن في هذه الآية أن لا ملجأ للعباد إلا الله ولا معبود ولا قاضيَ لحوائج الخلق إلا الله، وأن العبادة والتذلُّل لا تكون إلا لِلَّهِ وحدة خاصَّة، والخضوع لا يكون لأحد سواه، لأنه خالق كلِّ شيء وهو على كلِّ شيءٍ وكيل.

والآية التي بعدها تدل على أن الله تعالى لا يُمكن رؤيتُهُ لأن ما يُمكن رؤيتُهُ محدودٌ وله مكان يتحيَّزُ فيه، والله مُنَزَّهٌ عن الحدِّ والـمكان[1].

١- هذه من رواسب عقيدة الشيعة الاعتزالية التي بقيت عند المؤلف رحمه الله، وأما عقيدة أهل السنة أن الله يُرى يوم القيامة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وهذه الرؤيا خاصة بالمؤمنين، وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ بذلك. وانظر تعليق المصحح في الهامش عند تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] في هذا الكتاب. [الـمُصحح]

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤-١٠٧].

الفوائد: لما كانت كلُّ آيةٍ من آيات القرآن سببًا للبصيرة أُطلق على الآيات ذاتها اسم البصائر من باب تسمية السبب باسم المُسَبَّب، وبناءً على ذلك فإن آيات القرآن وسيلةٌ للبصيرة بل هي البصيرة عينها، ويجب على قومنا أن يمتلكوا البصيرة بواسطة القرآن وأن يستيقظوا ويُبصروا به أمور دنياهم وآخرتهم.

والمُراد من جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أننا نُنَزِّلُ القرآنَ على وجوهٍ مختلفةٍ كي يزدادوا كفرًا ويقولوا إن محمدًا ابتدع القرآن من بنات أفكاره أو استفاده من خلال مُحاوراته مع العلماء ومُدارسته لهذه الآيات معهم. والوجه الآخر لنزول القرآن بالتدرُّج هو أن يفهمه طُلاب المعرفة جيدًا، وتتضح معانيه لهم.

والمُراد من جملة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أن الله يُمكنه -إن شاء- أن يخلق وسائلَ تُجبِرُ المشركين بالقوَّةِ على أن يُصبحوا مُوحّدين، لكن الله لم يشأ أن يُعْمِلَ قُدرَتَهُ في هذا الأمر وَلا أن يُجْبِرَ عبادَهُ على أعمالهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨-١١٠].

الفوائد: إحدى السلوكيات القبيحة: الشتم والسَّب. وتدل جملة ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنه لا يجوز سبّ المشركين الذين هم أسوأ خلق الله فضلاً عن سبّ الآخرين.

فإذا عرفنا ذلك فإننا لنعجب من المسلمين الذين يقرؤون هذه الآية ومع ذلك يسبّون بعضهم بعضًا ويلعنون بعضهم بعضًا، هذه الفرقةُ تلعن تلكَ، وتلك تلعن هذه، خاصةً مُدّعو اتِّباعِ الأئمَّة عليهم السلام يسبُّون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الأوائل مع أنهم مهما فعلوا فإنهم كانوا مسلمين.

والمقصود من جملة ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أنه لما أعطاهم الله تعالى حُرّية الاختيار وأعطاهم الصفات الإنسانية والحيوانية وعاطفة الحبّ والبُغض ولم يمنعهم تكوينيًا من القيام بالأعمال القبيحة، بل خلَّاهم وشأنَهم ولم يكُفَّهُم عن ارتكاب القبيح، فكأنه زيّن لهم ذلك العمل القبيح. فالله شاء أن يجعل الإنسان مُختارًا قادرًا على فعل ما يُريد.

والفاعل في جملة ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ هم الكفار الذين كانوا يُطالبون بمعجزات أخرى غير القرآن وكانوا يُقسمون أنك يا محمد لو أتيتنا بآية سنؤمن بك حتمًا، مثلاً كانوا يُريدون أن يُحوِّل جبل الصفا إلى ذهب! فقال الله أولاً: إن مثل هذه الأعمال لا يملكها إلا الله ولا يقدر عليها محمَّدٌ (صلى الله عليه وآله وسلم). وثانيًا: لو أن الله أعطى نبيَّهُ مثل تلك الآيات التي يطلبونها لما آمنوا لأن جبل الذهب سيؤدي إلى غفلتهم وطُغيانهم أكثر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ...وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أن الله يُخلِّي الكفَّارَ وشأْنَهُم ولا يكفُّهُم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه والسبب في هذا الخذلان الإلهيّ وسلب التوفيق عنهم هو طغيانهم وإعراضهم عن الحقّ.

﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٖ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٖ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورٗاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١١-١١٣].

الفوائد: ما لم يطلب الإنسان الهدايةَ لن يهتدي حتى لو رأى مئة معجزة. وكل الطلبات

والكلام المُنمّق والادعاءات التي كان المشركون يقولونها لرسول الله ﷺ لم تكن سوى حجج وأعذار لتبرير إعراضهم عن الحق.

والمقصود من عبارة ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ ما يشمل رؤساء الشرك الماكرين وأصحاب المصالح الذين يبحثون عن الكسب ويُعادون رسول الله ﷺ حفاظًا على مصالحهم وحسدًا وأنانيةً، ولذلك كانوا يلجؤون إلى الافتراءات والاتهامات ويخدعون الآخرين ويُغْرُونَهُم كما تُصرِّح بذلك الآيات المذكورة أعلاه، وفي زماننا أيضًا يقوم المُتاجرون بالدين من أصحاب الخرافات بمعاملة أهل الحقّ بالطريقة ذاتها.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

الفوائد: المُراد من ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ حسب الظاهر مؤمنو اليهود والنصارى الذين صدَّقوا أن القرآن حقّ وكانوا شهودًا على ذلك أمام أهل مكة وأمام رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: إن المقصود من ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كبار صحابة الرسول ﷺ.

والمقصود من جملة ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أنه لا يستطيع أحد تبديلَ حُكم الله وتحريفَ آيات القرآن بالزيادة أو النقصان ولا أن يبدِّل كلمةً واحدةً منه ويضع غيرها مكانها، فيبدو أن القائلين بالتحريف اللفظي لم يكن لهم علم بهذه الآيات في القرآن.

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٧].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على بُطلان الأكثرية وأن اتِّباع الأكثرية ضلال، فيجب على الإنسان أن يبحث عن الحقّ ويتَّبِعَهُ ولو كان سالكو طريق الحقّ قِلَّة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ على بُطلان الظنّ وعدم حُجّيته.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١].

الفوائد: أرسل جماعةٌ من كفار الفرس رسالةً إلى مشركي مكة قالوا لهم فيها إن محمدًا ﷺ يأكل لحم الحيوان الذي قتله (أي ذبحه) ولا يأكل الحيوان الذي قتله الله (يقصدون الميتة)، فألقى هذا الكلام الشك في قلوب عدد من المسلمين فقالوا في أنفسهم إذن ينبغي أن لا نأكل مما قتلناه بأيدينا من باب أولى، ولذلك خاطبهم الله قائلاً: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ أي أن مناط الحِلّ والحُرمة هو ذِكر اسم الله عند الذّبح أو عدم ذكر اسمه.

والمقصود من جملة ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ مشركو فارس أو رؤساء الكفار جميعهم.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: ١٢٢-١٢٤].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾: من كان كافرًا فهداه الله إلى الإسلام مثل: حمزة سيد الشهداء. أي أن الحقَّ تعالى شبّهَ في هذه الآية الكافرَ بالميت وشبّهَ

الـمؤمنَ بالحيّ.

والـمُراد من ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ الشخصياتُ الكبيرةُ في كل مدينة ومملكةٍ، الذين ديدنهم الـمكر والخداع والاحتيال واستغلال الناس، ولو اهتدى هؤلاء إلى طريق الحقّ لاتَّبعهم بقيّةُ الناس.

قيل: أنها نزلت في الوليد بن الـمغيرة، والعاص بن وائل، وعديّ بن قيس، والأسود بن الـمطلب، والأسود بن عبد يغوث، الذين كانوا يؤذون رسول الله ويستهزئون به، وكانوا يقولون: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾، ويطلبون من رسول الله ﷺ معجزات كمعجزات سائر الأنبياء، فابتلى الله أولئك الـمستهزئين جميعهم بالذلِّ والهوان.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾ [الأنعام: ١٢٥-١٢٧].

الفوائد: لم يُبيّن اللهُ تعالى لنا في قوله ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ..... وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ.....﴾ من الذين يُريد هدايتهم ومن الذين يُريد إضلالهم؟ ولكنه بيّن لنا ذلك في آيات أخرى إذ قال: إن الهداية تكون لمن طلب الهداية ولم يُعرض عنها، وأن من يُعرض عن الهداية الإلهيّة فإن الله يُضِلُّه لأنه هو اختار الضلالة بنفسه ورغب بها.

والـمُراد من جملة ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أنه كما أن الصعود فوق الجبل صعبٌ ويُسبِّبُ ضيقَ النَّفَس كذلك من أعرض عن الحقّ أصبح سلوك طريق الحقّ عليه عسيرًا.

ويُستفاد من جملة ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أن الـمؤمنين الأطهار عندما يُفارقون الحياة ويرحلون عن الدنيا ينتقلون إلى ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ التي هي ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وهذا يفسِّر لنا معنى آية الشهداء [في سورة آل عمران] التي وصف اللهُ الشهداءَ فيها بقوله: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فيُبيِّنُ أن الـمقصود من ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ هو كونهم - كما بيَّنت هذه الآية – في

﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، فهم أحياء في دار السلام، وليس في الدنيا ولا في قبورهم.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ أن الجِنّ والإنس ينتفع بعضهم ببعض في هذه الدنيا، أما استفادة الجِنّ من الإنس فهي طاعة الناس لهم وأن الجِنّ يقودون بعض الناس، وأما استفادة الإنس من الجِنّ فهي هذه المعاصي والذنوب ذاتها، وهذا المكر والتحايل الذي يفعله الناس بأمر شياطين الجِنّ.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أن الرُّسلَ بشرٌ مثلُنا من جنس بني آدم وأن الله أرسل رسلاً إلى الجِنّ هم من جنس الجِنّ.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنه لما بعث الله رسلاً إلى الجِنّ والإنس فأعرضوا عن رسالات رسلهم وإنذاراتهم، واغترُّوا بالدنيا وخُدعوا بها، شَهِدَ بعضُهم ضد بعض يومَ القيامة.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: ١٣١-١٣٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ على قُبح العقاب بلا بيان وعلى أن الحُجّة تمت ببعثة الرُّسل وأنه لا حُجّة بعد الرُّسل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ على غِنى الحقّ تعالى عن جميع المخلوقات وعن عبادتها له.

واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أن التكليف على قدر الاستطاعة وأن الله لم يُكلِّف أحدًا فوق استطاعته. لكن الظاهر أن هذه الآية لا علاقة لها بموضوع التكليف، بل موضوعها هو التوبيخ، وهي موجَّهة إلى مشركي مكة، يعني: يا أيها النبيُّ! قل للمشركين اعملوا كل ما في استطاعتكم، فلن تمنعوني من أداء واجبي الرسالي وتبليغ رسالة ربِّي.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٣٨].

الفوائد: ابتدع الناس زمن الجاهلية عادات وأحكامًا خاطئةً ما أنزل الله بها من سلطان، وكان سدنة الأصنام يستغلُّون تلك الأحكام لصالحهم بل كانوا هم الذين يضعون مثل تلك الأحكام، ومن ذلك أن المشركين كانوا يجعلون من حروثهم (كالشعير)، وأنعامهم - كالماعز والجواميس والأبقار والإبل - ومن ثمارهم (كالتمر) ومن سائر أموالهم نصيبًا لِلَّهِ ونصيبًا للأوثان - أي لخَدَمَة معابد الأوثان والقائمين عليها -، «وكانوا إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لِلَّهِ لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيءٌ مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لِلَّهِ. وكانوا إذا أصابهم القحط استعانوا بما لِلَّهِ ووفَّرُوا ما جعلوه لشركائهم، وإن زكا ونما نصيبُ الآلهة ولم

يزكُ نصيبُ الله تركوا نصيب الآلهة لها، وقالوا: لو شاء [اللهُ] زكَّى نصيبَ نفسِه. وإن زكا نصيبُ اللهِ ولم يزكُ نصيبُ الآلهة، قالوا: لا بد لآلهتنا من نفقة، فأخذوا نصيبَ الله فأعطوه السدنةَ!»[١].

والقسم الثاني من أحكام أهل الجاهلية الفاسدة: أنهم كانوا يدفنون بناتهم أحياء خشية الفقر والتزويج، وينذرون أولادهم قرابينَ للأصنام، وقد زُيِّنَت في نظرهم هذه الأعمال الإجرامية وسوَّلتها لهم أنفسُهُم.

والقسم الثالث من أحكام أهل الجاهلية الباطلة: أنهم كانوا يعزلون مقدارًا من أنعامهم وزروعهم ويقولون: هذه ممنوعةٌ وحرامٌ ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي لا يجوز لأحد أن يستفيد منها إلا سدنة معابد الأصنام!

والقسم الرابع من أحكامهم الباطلة: أنهم كانوا يُسَيِّبُون بعض أنعامهم وهي البحائر والسوائب والحوامي [وقد مرَّ شرحُها في سورة المائدة] ويقولون: ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي يحرم الركوب على ظهورها.

والقسم الخامس من أحكامهم الباطلة: ﴿أَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾. وكانوا لا يحجُّونَ عليها ولا يُلَبُّون على ظهورها ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها.

وهناك أنواع أخرى من أحكامهم الجاهلية ستأتي الإشارة إليها في الآيات القادمة.

﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩-١٤٠].

الفوائد: القسم السادس من أحكامهم الفاسدة أنهم كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حيًا فهو خالص للذكور لا تأكل منها الأناث، وما ولد ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث! فكانوا يفترون تلك الأحكام كلّها على الله.

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٣/ ص ١٦٨.

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤١-١٤٤].

الفوائد: طبقًا لهذه الآيات خلق الله تعالى كل الفواكه والحبوب لأجل أن يستفيد منها الإنسان، ويجب عليه أن يُعطي حقَّ - يعني زكاةَ- كلِّ فاكهة سواءً كانت رُمَّانًا أم زيتونًا أم أنواعًا أخرى من الفواكه أو الحبوب عند حصادها أو عند قِطافها، لأن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ والأمر حقيقة في الوجوب، فالزكاة الواجبة لا تنحصر في الأشياء التسعة التي ذكرها الفقهاء.

والـمُراد من ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ...﴾ إلى آخر الآية» الإشارة إلى أن أهل الجاهليّة كانوا يُحرِّمون على أنفسهم أحيانًا ذكور الأنعام وأحيانًا إناثها، وأحيانًا يُحرّمون ما في بطون الأنعام فأنزل الله هذه الآيات ردًّا على تلك التحريمات الباطلة.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا

يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٥-١٤٧].

الفوائد: بيَّنَّا في التعليق على الآية ١٧٣ من سورة البقرة حكم الضرورة والاضطرار الذي جاء في هذه الآية.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على بُطلان الجبر لأن المشركين كانوا يعتبرون شركهم مُرادًا من الله أي أن الله أراده منهم، فردّ الحقّ تعالى عليهم هذا الادعاء واعتبر أن قولهم هذا تكذيب لِلَّهِ ولرسوله ﷺ وأنهم يستحقون العذاب.

﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: ١٥٠-١٥١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ على عدم جواز اتِّباع آراء الناس، لأن آراء الناس – في الغالب – إما متابعةٌ لعقائد الأب والأم، أو متابعةٌ لآراء العظماء، أو هي آراءٌ اعتقدوها لشُبهات طُرِحَت أمامهم وهم غير مستعدين لاستعمال عقولهم واتِّباع ما يقضي به العقل، أو أنَّهم نشؤوا منذ صِغرهم على عقيدة معينة وألفوها وأصبح من العسير عليهم التخلّي عنها، وأمثال هذه الأسباب التي تبيِّن أن آراء أكثر الناس ليس لها سندٌ ولا دليل إلهيّ، وَمِنْ ثَمَّ فلا يجوز اِتِّباعُها.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢-١٥٣].

الفوائد: تُشَكِّل الأوامر والنواهي الإلـهية التي جاءت في هذه الآيات مجموعة من وسائل السعادة التي عرَّفها الله لنا على أنها الصراط الـمستقيم، وأوصانا باتِّباع هذا الصراط. لكن الذين يُؤَوِّلون القرآن حسب أهوائهم ويُحرِّفون معانيه قالوا في الزيارة التي تُسمّى بـ «زيارة عيد الغدير» إنَّ الـمقصودَ من الصراط في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإمامُ عليٌّ عليه السلام، وكلامهم هذا تلاعب بالقرآن إذ لا قرينة تدلُّ على هذا الـمعنى.

والـمقصود من ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ تلك السُّبل غير القرآنية، وطرق الخرافات مثل طرق العرفان (التصوف الفلسفي) والفلسفات البشرية والـمذاهب الـمخترعة.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٧].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآيات أن التوراةَ كتاب مُفصّل بيَّنَ الله فيه كل شيء من أمور الدين، ولو أن اليهود اتَّبعوا كتابهم لنالوا الهداية والسعادة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أن عذاب الدنيا والآخرة إنما يحيق بمن أعرض من أهل الكتاب والـمسلمين عن الكتاب السماويّ وجهل ما فيه.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٨-١٥٩].

الفوائد: مجيء الرّبِّ المذكور في جملة ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ إشارةٌ في الظاهر إلى مجيء عذاب الرّبّ، وربما كانت هذه الآية إشارةً إلى ما كان يتوقعه أصحاب موسى من موسى عليه السلام، وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتوقعون منه مثل هذه التوقعات أيضًا، فكانوا يقولون أحيانًا: أَنْزِلْ على كل فرد منا ملكًا من الملائكة وأحيانًا يطلبون منه طلبات تعجيزية أخرى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والحقّ تعالى بريئان من تلك الفِرق الإسلامية التي تتسمّى بشيعة فلان وأتباع فلان، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منهم في شيء بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمًا وكان اسم دينه الإسلام ولم يكن سُنيًّا ولا شيعيًّا ولا جعفريًّا ولا حنفيًّا ولا غير ذلك.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٠-١٦٣].

الفوائد: بما أن كلمة ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ جاءت مطلقة فهي تشمل كلَّ عمل صالح، كما أن السيئة تشمل كلَّ عمل سيء.

وَيَتَبَيَّنُ من كلمة ﴿نُسُكِي﴾ أن الأُضحية التي تُشكّل إحدى مناسك الحجّ يجب أن تكون لِلَّهِ تعالى وحده فقط.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه مأمورٌ أن يكون مسلمًا اسمًا وفعلاً ويتسمّى بالمسلم فحسب.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤].

الفوائد: الربُّ معناه الـمُربِّي، وكلمة أرباب مُشتقّة من هذه الـمادة، أي أن الذي يُربِّي العباد ويُؤمِّن حاجاتهم هو اللهُ وحده ولا أحد غيره، لا الـملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أن من ارتكب سيئة أو عمل عملاً صالحًا فإنه هو وحده الذي يتحمَّل نتيجة عمله لا أحد سواه، خاصةً سلف هذه الأمة، فكل ما فعلوه تقع مسؤوليته على عاتقهم وحدهم فقط ولا يجوز للذين جاؤوا من بعدهم أن يتحجّجوا بأعمالهم ولا يقوموا بأي عمل [سوى ذِكر مناقبهم وفضائلهم].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن هذه الأمة جميعها خليفة للأمم الـماضية وليست خليفةً لِلَّهِ، وهذا مثل حضرة آدم عليه السلام الذي كان أيضًا خليفة لمن سبقه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ أن الحقّ تعالى فضَّل بعض الناس على بعضهم الآخر في العقل والـمال والرزق لا عجزًا منه أو جهلاً أو بُـخلاً بل كي يمتحن عباده بهذا الأمر ويختبرهم.

سورة الأعراف

مكيّة وهي مئتان وست آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ١-٣].

الفوائد: لما ذُكرت هنا عظمة القرآن وخصائصه جاءت حروف الهِجاء الـمُقطّعة لتُنبِّهَ الـمُخاطَبين إلى ذلك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنه لا يجوز اِتِّباع أي شيء غير القرآن وأوامر الله، وأنه لا ولِيَّ للناس ولا قيِّمًا على أمور العباد إلا الله.

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٤-٧].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أنَّ الأممَ جميعَها والأنبياءَ أنفسَهم أيضًا سيُسألون ويُحاسبون، فلا يعتمِدَنَّ أحدٌ على حديثٍ موضوعٍ ولا يقولنَّ: إن شيعة فلان أو أتباع فلان لن يُسألوا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أن الله حاضرٌ ناظرٌ في كل مكان ومطلعٌ على أفعال

العباد جميعها.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف: ٨-٩].

الفوائد: حقيقة الـميزان وكيفيته وكميته مخفيةٌ علينا، ولكن يجب أن نؤمن به على نحو الإجمال.

وتدل كلمة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أن لكل إنسان عدة موازين، أحدها لوزن الأعمال وآخر لوزن الإيمان وثالث لوزن السلوك والأخلاق وهكذا.... .

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: ١٠-١٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن الله وضع الأرضَ لأجل البشر وسخَّرها لهم وجعلها تحت تصرفهم، وجعل فيها وسائل العيش كي يقوم الإنسان بعمارة الأرض وتدبير أمور معيشته.

ولما كان ضمير ﴿كُمۡ﴾ في جملة: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ ضميرًا للمُخاطَب الجمع دلّ ذلك على أنه ليس الـمقصود الخلق الفرديّ بل خلق نوع الإنسان. وَمِنْ ثَمَّ فإن الـملائكة أُمِروا أن يتواضعوا أمام نوع بني الإنسان. والـمُراد من ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ الإشارة إلى هذا التواضع والاحترام لجنس البشر وليس الـمُراد سجود العبادة.

وقد تمسَّك الشيطان، في قوله تكبُّرًا وكفرًا: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، بالقياس العقليّ وهو أن النار لها ضياءٌ ونور وأفضل من التراب الـمُظلم وأرفع منه، وأنَّه لا ينبغي لمن هو أرفع أن يسجد لمن هو

أسفل وأدنى، ولكنه غَفل عن أن القياس باطلٌ، إذْ لو كان القياسُ صحيحًا لوجب أن تتمسَّك الـملائكة بالقياس العقليّ فلا تسجد لآدم لأن الـملائكة من نور والنور أفضل من التراب من باب أولى. وقد نظر الشيطان إلى ظاهر آدم وإلى بدنه الترابيّ ولو التفت إلى روح آدم لما قاس ذلك القياس. فالعبد الحقيقيّ هو الذي يُطيع أمر ربِّه ولا يتمسك بالقياس العقليّ لأن أول من قاس إبليس.

وهل الـمقصود من جملة: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ الهبوط من مقام القُرب والـمقام السابق أم الهبوط من السماء إلى الأرض؟ وعلى من يعود ضمير ﴿مِنْهَا﴾؟ لم تُذكر السماء من قبل حتى نُعيد الضمير عليها، لذلك يُمكن القول: إن السقوط أو الهبوط كان من درجة القُرب بقرينة الـمقام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أن الله لم يُحدِّد مدّة الـمُهلة التي أعطاها للشيطان كي لا يطمئنَّ الشيطان ويغترَّ بحياته بل يحتمل أن يهلكه الله في كل لحظة[1].

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٨].

الفوائد: نسب الشيطان بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ غِوايَتَهُ إلى الله فصار جبريًا، ونسب غِوايته - كما جاء في آيات أخرى - إلى الناس، فيبدو أنه لم يكن على مذهب مستقيم في هذا الأمر.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا

١- راجع تفسير قوله تعالى في سورتَي الحِجر وص: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧ - ٣٨ وص: ٨٠ - ٨١) .

ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩-٢٢].

الفوائد:يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أن عورتي آدم وحوّاء كانتا مستورتين، فهل كانتا مستورتين بالنور أم بشيء آخر؟ الله أعلم. وَيَتَبَيَّنُ من هذه الآية أن كشف العورة كان قبيحًا منذ أول الخليقة، وأن سترها كان لازمًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أن الملائكة أفضل من نوع الإنسان وأن آدم وحوّاء كانا يميلان إلى أن يكونا من الملائكة، وإلا لما خُدعا بتسويل الشيطان، وقد ظهرت عداوة الشيطان الواضحة للإنسان في رفضه السجود له.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٣-٢٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أن آدم وحوّاء بادرا إلى التوبة وإظهار الندامة، والكلمات التي لقّنها الله لهما وأشار إليها بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] هي هذه الكلمات والجمل ذاتها التي وردت في هذه الآية، وليست ما ذُكر في كتب الحديث مما لا أثر له في القرآن واحتمالات الوضع فيه قائمة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أن الأرض ستبقى مُسخَّرةً لفائدة الإنسان حتى فترة من الزمن، ومن الممكن أن يأتي يوم تنتهي فيه إمكانية الاستفادة من الأرض، كما أنه سيأتي زمن تنتهي فيه طاقة الكواكب والنجوم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ على أن آدم وحوّاء نزلا عن المقام الذي كانا فيه أو أنهما أُخرجا من الجنّة، والظاهر أن تلك الجنّة كانت على الأرض، فانتقلا عنها إلى مكان آخر من الأرض، كما قال الله تعالى لليهود: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ أن الله منّ على الإنسان فخلق له لباسًا ساترًا، فالعُريُّ مُخالفٌ للشريعة الإلهيّة ولا يجوز للبشر أن يعيشوا عُراةً. ولكن ليس المقصود من جملة ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ إنزال اللباس من السماء بل المقصود النزول من مقام الخالق إلى المخلوق، وهذا مثل جملة: ﴿أَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦]، فالله تعالى أنزل المطر برحمته وأمر الأرض تكوينيًا أن تُنبت النبات وقام الإنسان بصناعة لباسه من النباتات. أما لباس الزينة الذي هو الرّيش، فبما أن الريش زينة للطيور فالمقصود لباس الحرير ولباس الزينة للإنسان. أما لباس التقوى فإذا أخذناه على المعنى الحقيقيّ للباس كان المراد منه اللباس الساتر ذاته الذي كرر الله ذِكره لأهميته وأن خلعه مُخالفٌ للتقوى، ومن الممكن أن نأخذ لباس التقوى على معنى لباس التوقي من العدو أي أن يلبس الإنسان ما يحمي جسمه في الحروب كالدّرع والخوذة. ويُمكن أن يُراد منه اللباس الطاهر الحلال لأجل العبادة، ويُمكن أن يكون المرادُ جميعَ ما سبق. أما لو أخذنا اللباس على معناه المجازيّ فيكون المراد من لباس التقوى الصفات الحسنة التي تستر الصفات الرذيلة، مثل الإيمان والعِفّة والتقوى والحياء التي هي ألبسةٌ روحيةٌ تؤدي إلى القُرب من الله تعالى.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٧-٢٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أن الشياطين يُمكنهم رؤية الإنسان أما الإنسان فلا يُمكنه رؤيتهم، لأن الإنسان جسمٌ كثيفٌ والشياطين أجسامٌ لطيفة.

وجملة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ردٌّ على قول الـمُجبِّرة الذين يعتبرون أعمالهم السيئة مُرادةً لِلَّهِ وأنه أمرهم بها. وكان الكفار ينسبون أعمالهم القبيحة إلى شيئين: الأول: إلى تقليدهم الآباء والأجداد، والثاني: أن الله أمرهم بها، فلم يُجب الحقّ تعالى عن كلامهم الأول لأن بُطلان التقليد واضحٌ، وكل قوم يُقلِّدون آباءهم حتى لو كانوا على طريقتين متضادتين، فلو قلنا: إن التقليد ليس باطلاً لكان ذلك بمثابة قولنا: إن كلا القولين الـمتضادين صحيحٌ وهذا ما لا يقبله العقل. وأما كلامهم الثاني فقد أجاب اللهُ عنه بقوله: إنكم لا تؤمنون بالوحي، لأن مشركي مكة كانوا يُنكرون الوحي، فاعلموا أن الله لا يأمر بالفحشاء. ولا يخفى أن الـمشركين ما كانوا يعتبرون أعمالهم السيئة سيئة، بل يعتبرون أنها كانت بأمر الله كطوافهم بالبيت عُراة، وهذا مثل قومنا الذين يعتبرون ضربَ السلاسل والنياحة والرقص في مراسم العزاء عبادةً أمرهم اللهُ بها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ على بُطلان الفتوى الظنّية، في حين أن مجتهدي قومنا يعتبرون فتواهم الظنّية حُجّةً للمُقلّدين ويقولون: «هذا ما أدى إليه ظنّي وكل ما أدى إليه ظنّي فهو حكم الله»! فيبدو أنهم لم يقرؤوا هذه الآية التي تقول: لا تقولوا على الله ما لا تعلمونه أي ما لا علم يقينيّ لكم به.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠].

الفوائد: لو أخذنا كلمة ﴿مَسۡجِدٖ﴾ على أنها اسم مكان، كان الـمراد الأمر بالتوجه إلى الله في كل مسجد لأن الـمساجد كلّها لِلَّهِ. وإذا أخذنا كلمة ﴿مَسۡجِدٖ﴾ على أنها اسم زمان كان الـمقصود الأمر بالتوجه إلى الله في أوقات الصلاة.

وتعود جملة: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ على الـمشركين الذين كانوا يعتبرون أعمالهم الشركية والقبيحة عبادةً وهدايةً، وهذا ينطبق على أهل زماننا وقومنا الذين يتجمعون باسم العبادة ويتوجَّهون إلى غير الله ويدعون العباد الصالحين باسم دعاء التوسل أو دعاء النُّدبة

وأمثالهما، ويحسبون أن في هذه الأدعيةِ الهُدَى.

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

الفوائد: كان أهل الجاهلية يحجُّون عُراةً فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي خذوا لباسكم -الذي هو زينة الإنسان- معكم. وينبغي أن نقول: إن الآية مُطلقة وليست مُقيّدة بالحرم المكيّ فمعناها خذوا زينتكم أي البسوا لباسكم الحسن في كل وقت صلاة وفي كل مكان للصلاة أي في كل مسجد، يعني البسوا لباسًا جميلاً وتطيَّبوا.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

الفوائد: المقصود من الفواحش الأعمال القبيحة والمُحرّمة سواءً كانت ظاهرةً كالكذب والسب والشتم أو باطنةً كالزنا والسرقة، والمقصود من ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ كل ذنب وقال بعضهم: إن المقصود منه هنا هو الخمر كما قال تعالى: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والمُراد من جملة ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ الفتاوى الظنية والأقاويل والأحاديث المذهبية المُخالفة للقرآن.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: ٣٤-٣٦].

الفوائد: هذه الخطابات المُصدَّرة بعبارة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ حصلت في ابتداء الخِلقة، كما نجد

مثل هذا الخطاب في التوراة، والدليل على ما نقول أن الكلام في هذه السورة بدأ عن خلق آدم ثم هبوطه إلى الأرض ثم الخطابات والتكاليف الـمُوجّهة لبني آدم، فهذه الآية ليست خطابًا للرسول الخاتَم ﷺ وأُمَّتِهِ وحدهما، وأن الله قال لهما: يا أُمة محمد لو جاءكم بعد ذلك رسولٌ فآمنوا به، لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان هناك معنى لختم نُبوّة محمد ﷺ، فإن وُجد من يدّعي الرسالة اليوم ويقول: إن الله قال لهذه الأمة إن جاءكم رسولٌ منكم فآمنوا به، فيجب أن نعلم أن هذا الشخص لم يفهم معنى الآية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٧-٣٩].

الفوائد: إن اِتِّباع الـمجتمع أو الـماضين لا يُفيد شيئًا سوى مُشاركة الضالين والظالـمين في العذاب والجحيم يوم القيامة. واعلم أن إضلال السابقين للاحقين وضلال الأتباع بسبب اِتِّباعهم لسادتهم وكُبرائهم، سببه أن السابقين والكُبراء سلكوا طريق الباطل وزيّنوه لأتباعهم أو أخفوا الأدلة على بُطلان طريقهم أو اعتبر الـمتأخِّرون سلَفَهُم أشخاصًا أجلاء فاقتدوا بأباطيلهم وقلدوهم.

وأيًا كان الأمر فإن الأتباع لم يستعملوا عقولهم، ولم يُصغوا إلى كلام خالقهم، كما نجد فعلاً بين كثير من الناس آلاف الزيارات الخرافية والبِدع التي أتتهم من تقليدهم لكبار علمائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ

مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

الفوائد: شبّه الله تعالى مُحالاً بمُحال آخر فقال: كما أنه من المستحيل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة كذلك من المستحيل أن يدخل المُكذّبون والمُستكبرون الذين لا يسلكون طريق الحقّ والحقيقة، الجنّة، لأنه في عُرف العرب لم يكن هناك شيء أكبر من الجمل ولا شيء أصغر من ثقب الإبرة، لذلك ضرب الله هذا المثل واعتبر أنه من المُحال أن يدخل المُكذّبون والمُستكبرون عن آيات الله الجنّة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

الفوائد: الوُسع معناه استطاعة فعل الشيء بيسر ووُسعة لا القدرة على فعله بالضغط وببذل مشقة وعناء بالغ. وليس معنى قول أهل الجنّة: «لولا أن هدانا الله لما اهتدينا»، أننا لم نهتدِ بما بذلناه أنفسنا من عمل، بل معناه أنه لما هدانا الله وأرشدنا لآياته التكوينيّة وآيات كتابه السماويّ **فاهتممنا بها ولم نُعرض عنها**، اهتدينا، لأنه من الواجب على الله تعالى أن يُعرِّف نفسه لعباده بواسطة الوحي وإرسال الكتب ويُرشد عباده إلى أسمائه وصفاته قبل أن يُطالب العباد بمعرفته وبالهداية.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

الفوائد: الغرض من هذا النداء توبيخ أهل النار وزيادة غمّهم، ورغم أن بين أهل الجنّة وأهل النار مسافة كبيرة إلا أنهم يسمعون صوت بعضهم بعضًا بقدرة الحقّ.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٩].

الفوائد: ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ جمع عُرف وهو كل مكان عال مرتفع، فكل مرتفع من الأرض عُرف، فيُستفاد من هذه الآيات أن هناك أماكن مرتفعة في صحراء الـمحشر يقف عليها رجالٌ عِظامٌ مثل الأنبياء والأوصياء والشهداء والصالحين ويتعرّفون على أهل الجنّة وأهل النار بواسطة العلامات التي جعلها الله فيهم، ويتكلمون مع أهل الجنّة وأهل النار فيُسلِّمون على أهل الجنّة ويُبشّرونهم بدخولها، لأنهم كما كانوا خلال حياتهم الدنيويّة يُشرفون على أعمال الناس ويُبلِّغونهم أحكام الله فهم في القيامة أيضًا يعرفون الناس ويُبَلِّغون رحمة الله لأهل الجنّة. وقال بعضهم: إن على الأعراف أيضًا أشخاصًا لم يتحدّد مصيرهم فهم يأملون برحمة الله لكن أهل الدنيا يعتبرونهم غير مستحقين لرحمة الحقّ، إلا أنهم يدخلون الجنّة في نهاية الأمر. ولكن هذا القول ضعيف.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

الفوائد: يَتَبيَّنُ من هذه الآيات أن أهل الجنّة والنار يرون بعضهم بعضًا ويُنادون بعضهم بعضًا من بعيد.

والـمُراد من جملة: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أننا سُنجازي العباد على نسيانهم لِلّهِ بأن لا نشملهم برحمتنا بل نتركهم كالـمنسيين، وإلا فإن الله تعالى مُنزّهٌ عن النسيان الحقيقيّ.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣].

الفوائد: تدل كلمة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أن القرآن قائمٌ على العلم لا على الشك والظنّ، والتأويل فيه معناه التحقُّق الخارجيّ والمرجع الحقيقيّ حيث يُشاهَدُ الوجود الخارجيّ للحقائق الواقعيّة. وذلك اليوم الذي يتحقق فيه الوجود الخارجيّ هو يوم القيامة، الذي يبحث فيه مُنكرو الآيات والمُعرضون عنها عن شافع أو عن عودة إلى الدنيا، لكنهم لا يُمْنحون أيًا من الأمرين. تُراجع المقدمة ١٩ من مقدمات هذا التفسير.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٤-٥٦].

الفوائد: يدل خلق السماوات والأرض بشكل تدريجي في ستة أيام على قدرة الحقّ تعالى، كما يدل على بُطلان قول الفلاسفة: «لا يصدر من الواحد إلا الواحد».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أنه لا يجوز الصياح والصراخ في الدعاء.

طرح بعضهم إشكالاً في موضوع الدعاء فقال:

أولاً: أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع لامتناع وقوع التغيير في علم الله تعالى، وما كان واجب الوقوع لم يكن في طلبه فائدة.

وثانيًا: أنه تعالى إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك المطلوب، فهو حاصل، سواء حصل هذا الدعاء أو لم يحصل، وإن كان قد أراد في الأزل أن لا يعطيه فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الطلب.

وثالثًا: أن الـمطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والـمصلحة إعطاءه، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء لأنه منزه عن أن يكون بخيلاً وإن اقتضت الحكمة منعه، فهو لا يعطيه سواء أقدم العبد على الدعاء أو لم يقدم عليه.

ورابعًا: الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب ، وذلك سوء أدب.

وخامسًا: إن الإقدام على الدعاء يدل على كونه غير راض بالقضاء إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه، ولما طلب من الله شيئًا على التعيين، وترك الرضا بالقضاء أمر من الـمنكرات.

وسادسًا: كثيرًا ما يظن العبد بشيء كونه نافعًا وخيرًا، ثم إنه عند دخوله في الوجود يصير سببًا للآفات الكثيرة والـمفاسد العظيمة، وإذا كان كذلك كان طلب الشيء الـمعين من الله غير جائز، بل الأولى طلب ما هو الـمصلحة والخير، وذلك حاصل من الله تعالى سواء طلبه العبد بالدعاء أو لم يطلبه. فلم يبق في الدعاء فائدة.

وسابعًا: أن الدعاء عبارة عن توجه القلب إلى طلب شيء من الله تعالى، وتوجه القلب إلى طلب ذلك الشيء الـمعين يمنع القلب من الاستغراق في معرفة الله تعالى، وفي محبته، وفي عبوديته، وهذه مقامات عالية شريفة، وما يمنع من حصول الـمقامات العالية الشريفة كان مذمومًا.

وثامنًا: روي أنه عليه الصلاة والسلام. قال حاكيًا عن الله سبحانه: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَن مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»[1]، وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء.

١- رواه ابن أبي شيبة في **الـمُصنَّف**، رقم (٢٩٨٨١) و(٢٩٨٨٣)، وأخرجه البُخَاري في **خلق أفعال العباد**، ص ١٠٩، رقم (٦٩)، والبيهقي في **شعب الإيمان** (١/ ٤١٣ ، رقم ٥٧٢). وقال عنه الحافظ العراقي في **تخريج أحاديث الإحياء**: «حديث «قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»: أخرجه البخاري في التاريخ والبزار في الـمسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضًا». وقال الحافظ الزيلعي في **تخريج**

وتاسعًا: إن علم الحق محيط بحاجة العبد، والعبد إذا علم أن مولاه عالـم باحتياجه، فسكت ولم يذكر تلك الحاجة كان ذلك أدخل في الأدب، وفي تعظيم الـمولى مما إذا أخذ يشرح كيفية تلك الحالة، ويطلب ما يدفع تلك الحاجة، وإذا كان الحال على هذا الوجه في الشاهد، وجب اعتبار مثله في حق الله سبحانه، ولذلك يقال أن الخليل ﷺ لما وضع في الـمنجنيق ليرمى إلى النار. قال جبريل ﷺ ادع ربك. فقال الخليل ﷺ: حسبي من سؤالي علمه بحالي[1].

والجواب عن كل تلك الإشكالات هو ما يلي:

أولاً: الإشكالات الـمذكورة واردة في جميع أنواع العبادات، فإنه يُقَال إن كان هذا الإنسان سعيدًا في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات والعبادات، وإن كان شقيًا في علمه فلا فائدة في تلك العبادات.

ثانيًا: وأيضًا يُقَال وجب أن لا يقدم الإنسان على أكل الخبز وشرب الـماء لأنه إن كان هذا الإنسان شبعانًا في علم الله تعالى فلا حاجة إلى أكل الخبز، وإن كان جائعًا فلا فائدة في أكل الخبز، وكما أن هذا الكلام باطل ههنا، فكذا فيما ذكروا.

ثالثًا: نقول الـمقصود من الدعاء معرفة ذلة العبودية ومعرفة عزة الربوبية، وهذا هو الـمقصود الأشرف الأعلى من جميع العبادات. وبيانه أن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف

الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: «وَفِي الصَّحِيح: مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفِي التِّرْمِذِيّ فِي فَضَائِل الْقُرْآن بِسَنَد ضَعِيف عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»، وَفِي **مُصَنَّف عبد الرازق** فِي كتاب الصَّلَاة: أَنا سُفْيَان عَن مَنْصُور عَن مَالك بن الْحَارِث قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَاؤُهُ عَلَيَّ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ» انْتَهَى. وضعَّفه الألباني في **ضعيف الجامع الصغير**، رقم (٦٤٣٥). [الـمُصحح]

١- رواه البغوي في **تفسيره** عن أبي بن كعب، ذيل تفسير الآية ٦٨ من سورة الأنبياء. وقال ابن عرّاق الكناني في **تنزيه الشريعة الـمرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الـموضوعة** (ج١، ص ٢٨٥): «حديث علمه بحالي يغنى عن سؤالي حكاية عن الخليل ﷺ (قال ابن تيمية): موضوع». [الـمُصحح]

من نفسه كونه محتاجًا إلى ذلك الـمطلوب وكونه عاجزًا عن تحصيله وعرف من ربه وإلهه أنه قادرٌ وحاضرٌ وناظرٌ يسمع دعاءه ويعلم حاجته، وهو قادر على دفع تلك الحاجة وهو رحيم تقتضي رحمته إزالة تلك الحاجة، وإذا كان كذلك فهو لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف كونه موصوفًا بالحاجة وبالعجز وعرف كون الإله سبحانه موصوفًا بكمال العلم والقدرة والرحمة، فلا مقصود من جميع التكاليف إلا معرفة ذل العبودية وعز الربوبية، فإذا كان الدعاء مستجمعًا لهذين الـمقامين لا جرم كان الدعاء أعظم أنواع العبادات، وكانت له كل تلك الفضائل[١].

والـمراد من جملة ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي لا تُضِلُّوا الناس بعد مجيء الأنبياء وإرشادهم الخلق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأعراف: ٥٧-٥٨].

الفوائد: الـمُراد من مثل: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ....﴾ أن الأرض الـمالحة منفعتها قليلة والتعب فيها أكثر ولكن ينبغي على صاحبها أن لا ييأس بل عليه أن يبذل جهده لاستصلاحها ولو لأجل فائدة قليلة، فإذا بذل الإنسان جهده لأجل الآخرة التي متاعها عظيم كان الأمر جديرًا بهذا البذل والتعب، ومن الـممكن أن نقول: إن هذا الـمثل ضُرب للمؤمن والكافر، فالآيات الإلهيّة هي البذور فإذا وقعت في قلب الـمؤمن أثمرت خيرات كثيرة وإذا وقعت في قلب الكافر لم تُثمر أي خير.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ

١- استفاد الـمؤلف كل مبحث الدعاء والإشكالات عليه والإجابات عنه من: تفسير فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٤/ ص ١٢٨ -١٢٩، وقد اختصره الـمؤلف، لكنني أوردت الإشكالات والإجابات من الـمصدر بصورتها الكاملة بهدف التوضيح.

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾
[الأعراف: ٥٩-٦٤].

الفوائد: ذكر الله تعالى قصص الأنبياء الماضين تسليةً لقلب رسول الله ﷺ وتقويةً له ولسائر المؤمنين.

والمُراد من ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ أشراف القوم وسادتهم. وَيَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أن عمل الأنبياء جميعًا كان الدعوة إلى التوحيد، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ...﴾ وبيّن لقومه أن غير الله ليس ملجًا لكم ولا مقصدًا ولا موضعًا لتلبية حوائجكم، فيجدر بكم أن لا تعبدوا غيره.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أن الأنبياء جاؤوا للتذكير فقط وإلا فإن معرفة الله أمر فطريّ.

﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ
بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٩].

الفوائد: قال تعالى جلبًا لانتباه قوم عاد واهتمامهم وقبولهم دعوته: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وقد قال هود: يا قوم! والمراد من هذا التعبير أنني منكم وأخوكم الذي يُريد خيركم ولا يُريد لكم السوء، ولكن الناس تعودوا على وصم كل من تكلم على نحو يُخالف ذوقهم وعقائدهم

الخرافية بالسفه وعلى الصياح به والسخرية منه.

والمقصود من ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أنه تعالى أعطاهم أجسامًا قويةً وقامات مرتفعة.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: ٧٠-٧٢].

الفوائد: الكفار أعوان وأنصار لآلهتهم ومعبوداتهم. والمُراد من ﴿أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ أسماء فخمة كانوا يُسمّون بها أوثانهم مثل: الإله والمعبود وأمثالها، فعلى المسلمين أن لا يُخدعوا بالأسماء الفخمة التي تُشكِّل سببًا للضلال، مثل أن فلانًا آية الله وفلانًا مجتهد وفلانًا شاعر كبير وفلانًا أوضح هذا الموضوع، في حين أن ذلك الموضوع بالذات هو سبب ضلال أتباعه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أن التقليد غير جائز وأنه لا بدّ من الدليل على كل ما يُؤمن به الإنسان.

ذكروا أنه تعالى لما أهلك عادًا قام ثمود مقامهم، وطال عمرهم وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحًا وكان منهم، فطالبوه بالمعجزة. فقال: ما تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا في عيدنا، ونخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر أثر دعائك

اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا، فخرج معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ مواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها، وكانت في غاية الكبر وكان الماء عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شربًا لها في يوم، وفي اليوم الثاني شربًا لكل القوم. قال السدي: وكانت الناقة في اليوم الذي تشرب فيه الماء تمرُّ بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكل، وكأنها كانت تصب اللبن صبًّا، وفي اليوم الذي يشربون الماء فيه لا تأتيهم وكان معها فصيل لها.

فقال لهم صالح: يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم، ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه، فنبت نباتًا سريعًا، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب، فأرادوا ماء يمزجونه به، وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء، واشتد ذلك عليهم، فقال الغلام: هل لكم في أن أعقر هذه الناقة؟ فشد عليها، فلما بصرت به شدت عليه، فهرب منها إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه، فلما مرت به تناولها فعثرها فسقطت.

فذلك قوله: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩] وأظهروا حينئذ كفرهم وعتوا من أمر ربهم. وسوف يأتي بيان ذلك.

والإعجاز في آية الناقة كان واضحًا من جهاتٍ عديدة[١].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا

١- استفاد المؤلف قصة الناقة وكيفية قتلها من تفسير فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٤/ ص ١٦٢، وقد فصَّل الرازي أيضًا وجوه إعجاز الناقة فقال: «أحدها: خروجها من الجبل، والثانية: كونها لا من ذكر وأنثى، والثالثة: كمال خلقها من غير تدريج. والقول الثاني: أنها إنما كانت آية لأجل أن لها شرب يوم، ولجميع ثمود شرب يوم، واستيفاء ناقة شرب أمة من الأمم عجيب، وكانت مع ذلك تأتي بما يليق بذلك الماء من الكلأ والحشيش...الخ».

بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٩].

الفوائد: المقصود من ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ الفقراء الذين كان الأغنياء والأقوياء وأصحاب الشرف والسيادة يضطهدونهم. فيُستفاد من هذه الآية أن الغِنى أخطر من الفقر.

ورغم أن الذي عقر الناقة كان شخصًا واحدًا إلا أن الله تعالى نسب إليهم جميعًا عقر الناقة لأنه بعد أن عقرها ذلك الشخص قام آخرون بأخذ أجزاء منها وسكت الباقون عن ذلك ولم ينهوا عن فعله.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

الفوائد: يَتبيَّنُ من هذه الآيات أنه قبل قوم لوط لم يسبق أن ارتكب أحد في العالـم مثل ذلك العمل القبيح (أي اللواط)، وإن وُجد من ارتكبه فإن ذلك كان نادرًا جدًا، وذلك لأن اللواط - في نظر جميع عُقلاء العالـم - عملٌ منافٍ للفطرة وخبيثٌ ويؤدي إلى قطع النسل.

والـمُراد من جملة: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ السُّخرية، كما نسمع من الأراذل والأوباش في زماننا مثل هذه الجُمَل بحقّ من ينهاهم عن ارتكاب الفواحش والـمُوبِقات.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ
جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا
تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ

بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ
طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ
بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ
لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ
فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أن شُعيبًا أتى قومه بدليل واضح ولكننا لاندري هل كان هذا الدليل معجزة أم شيئًا آخر؟ وإن كان معجزة فما هي؟ الله أعلم. وكان كل نبيّ يُبعث ينهى عن الـمُنكر خاصةً الـمُنكر الشائع بين قومه، وكان التطفيف في الكيل والوزن شائعًا في قوم شُعيب لذا نهاهم عنه بشكل خاص.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ
فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ
أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٤-١٠٠].

الفوائد: الـمُراد من جملة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ﴾ أنه كلما أرسل الله رسولاً يدعو الناس إلى الإيمان بالله وترك الكفر والفسوق، ابتلاهم بالشدائد.

فاعل فعل ﴿يَهۡدِ﴾ في جملة ﴿أَوَ لَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ﴾ هو جملة ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ...﴾ أي مشيئتنا الـمحتملة لمعاقبتهم على ذنوبهم يجب أن تكون سببًا لهدايتهم، فلماذا لم يهتدوا بذلك، والاستفهام هنا استفهام توبيخيّ وتقريعيّ.

وليس الـمُراد من عبارة ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ نفي السماع بالأذن بل نفي السماع بأذن القلب.

قال الشاعر: [شعر بالفارسية]

أُذنُ الرأس مشتركة مع جميع الحيوانات أما أذن القلب فخاصة بذرية آدم.

قال الرّبُّ قل تعالوا قل تعالوا أيتها الـمواشي النافرة والشاردة عن الأدب.

آذان بعض من نودوا بهذا النداء صمّاء، ولكل ماشية زريبتها.

﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢].

الفوائد: الـمُراد من جملة ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أنهم لما آمنوا بخرافات كثيرة قبل مجيء الأنبياء فإنهم بعد مجيء الأنبياء كذبوا بما جاؤوا به، أو أن يكون الـمعنى أنهم كذبوا ابتداءً بالأنبياء، ثم بعد ذلك لم يُقِرّوا بخطئهم وبُطلان موقفهم بل استمروا على التكذيب تكبرًا وعنادًا، وهذا يُماثل حال أكثر الناس في عصرنا الذين يُدركون بُطلان عقائدهم الخرافية ولكنهم رغم ذلك لا يُقْلِعُون عنها.

والـمقصود من العهد في قوله ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖ﴾ عهد الفِطرة التي انحرف عنها أكثر الناس.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ
فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾
[الأعراف: ١٠٣-١١٢].

الفوائد: ترجمنا جملة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ طبقًا لمعناها اللغويّ، إلا أنه يُمكن ترجمتها أيضًا على النحو التالي: فكفروا بتلك الآيات، أي بأخذ الظلم على معنى الكفر، رغم أن نتيجة الترجمتين واحدة.

كانت بداية دعوة موسى ﷺ تحرير بني إسرائيل من أسر فِرعون ولذلك قال موسى له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، لكن فِرعون كان يخدع قومه ويتظاهر بأنه يُريد خيرهم ومصلحتهم فقال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، وخُدع الناس عبيد الدنيا بهذا الكلام فأطاعوه.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٣-١٢٢].

الفوائد: كلمة ﴿لَأَجْرًا﴾ نكرة كما يدل على ذلك التنوين في آخرها والتنكير هنا يدل على عِظم

الأجر.

وكان السحرة يرغبون أن يبدؤوا قبل موسى بإظهار سحرهم لعلّ الدور لا يصل إلى موسى أصلاً، ولذلك قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، وأتوا بضمير الفصل ﴿نَحْنُ﴾بعد الضمير الـمستتر، ولكنهم لما تأدبوا وفَّقهم الله تعالى للهداية.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أن السحر ليس له حقيقة بل هو تمويهٌ وخداعٌ بصريّ أي أنهم أوهموا الناس أنهم قاموا بعمل مُهمٍّ في حين أنهم قاموا بما يُسمّى في الاصطلاح بالشعوذة وخِفّة اليد، ولذلك عبّر الحقّ تعالى عن عملهم بالإفك فقال: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وكلها تدل على أن عمل السحرة لم يكن حقيقة، ولكنهم ألقوا الرُّعب والرهبة في قلوب الناس الذين ظنّوا أن السحرة قاموا بفعل شيء عظيم، كقول السحرة للناس: احذروا أيُّها الناس وارجعوا إلى الوراء كي لا تُلدغوا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٦].

<u>**الفوائد**</u>: ملأ السحرة الوادي بالعصيِّ والحبال ووسائل السِّحْر، فتحرَّك فجأةً ذلك الثعبان الإلـهي العظيم وفتح فاه وابتلع كل تلك العصي والحبال وفرَّ الناس رُعبًا من ذلك إلى حد أن بعضهم مات من شدة الخوف.

يمكن أن يكون الـمقصود من كلمة ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ في آية: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أن عقابي هذا بسبب مخالفتكم لي. ويمكن أن يكون الـمقصود الخلاف في جهة القطع بين الأيدي والأرجل، أي إذا قطع لهم اليد اليمنى قطع الرجل اليسرى والعكس بالعكس.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أن فِرعون لم يستطع أن يجد في السحرة عيبًا أو مأخذًا

سوى إيمانهم بالله وحده الذي كان في نظر فِرعون جريمةً كُبرى، والحال أنه أفضل عمل عمله السحرة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أن دين حضرة موسى عليه السلام وأتباعه كان الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

الفوائد: تدلُّ جملةُ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أن الملأ والأشراف من قوم فِرعون خافوا من ازدياد قوم موسى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ أن حضرة موسى عليه السلام أصبح له أتباع مميزون عن قوم فِرعون. «قال ابن عباس: لما آمنت السحرة اتَّبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل»[١]، ورغم ذلك كان أكثر شعب فرعون معه.

وجملة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ بِشارة من طرف الله بشَّر موسى عليه السلام بها قومَهُ.

وكلمة ﴿ءَالِهَتَكَ﴾ تدل على أن فِرعون كان وثنيًّا عابدًا للأصنام ويُؤمن بأصنام متعددة.

وجملة ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنه إذا انتصرتم على فِرعون وآله وورثتم السلطان عنهم فعليكم أن تنتبهوا أن لا تعملوا مثل عملهم، حتى لا يكون الأمر ذهابَ شرٍّ ليأتي ما هو أسوأ منه.

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ج٣/ ص ٢٦٨.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٥].

الفوائد: ابتلى الله قوم فِرعون بعدة مصائب لعلهم يتوبون إلى رُشدهم ويُؤمنون به، لكنْ أهواؤهم منعتهم من الإيمان، وكانت تلك البلايا:

١- القحط ونقص الثمار.

٢- غلاء الأسعار

٣- الطوفان.

٤- الجراد.

٥- القُمَّل.

٦- الضفادع.

٧- الدَّم.

فكانوا كلما ابْتُلُوا بمُصيبة من هذه المصائب يأتون إلى موسى ويقولون له: ادعُ الله لنا أن يكشف عنا هذا البلاء فإذا كُشف عنا آمنا بك، فكان موسى يدعو الله لهم، فإذا ارتفع البلاء نكثوا بعهدهم واستمرّوا على كفرهم، وتفصيل ذلك[1] « أنه لما حل بهم الطوفان، بسبب كثرة الأمطار

١- استفاد المؤلف تفصيل تلك الآيات من رواية مفصلة أوردها المفسرون لا سيما البغوي في **معالم التنزيل**، ج٣/ ص ٢٦٩ - ٢٧٢. وقد اختصرها المؤلف كثيرًا.

والسيول [وامتلأت بيوت القبط بالماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق، وطغى الماء فوق حروثهم]، قالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فرفع عنهم الطوفان، ولكنهم نكثوا بوعدهم وعادوا إلى طغيانهم وعنادهم، فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامَّة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة.. فعجوا وضجوا، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد، فلم يفوا بما عاهدوا عليه موسى، وعادوا لأعمالهم السوء، فبعث الله عليهم القُمَّل، فملأ فرشهم وألبستهم وامتص دماءهم، فعادوا من جديد إلى موسى وصرخوا وصاحوا إليه أننا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا البلاء، فدعا موسى عليه السلام اللهَ فرفع اللهُ القمل عنهم فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم. وقالوا: ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب. فدعا موسى عليهم فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها مياههم وبيوتهم وفرشهم، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا ذلك إلى موسى، وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع فأقاموا شهرا في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دما وصارت مياههم دمًا»[1]. وظلُّوا يشاهدون مثل هذه الآيات عشرين عامًا ومع ذلك لم يؤمنوا، فأهلكهم الله تعالى.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ

١- روى بعض مفسري السلف (مثل زيد بن أسلم) أن الدم الذي سُلِّطَ عليهم كان **الرعاف**. وهذا أقرب للمعقول، لأن تحوُّل نهر النيل كله ومياه الآبار والبحيرات إلى دم سيكون - بعكس الآيات السابقة - آية هائلة خارقة لقوانين الطبيعة كفيلة بأخذ أعناق كل من شاهدها إلى الإيمان. وهذا مخالف لسنة الله.

وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٤٠].

الفوائد: المُراد من كلمة ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ نهر النيل الذي يُشبه البحر في سعته وكانت العرب تُطلق على الماء الكثير اسم اليمّ، ويبدو أن تلك التقسيمات الجغرافية إلى البحر والبُحيرة والنهر لم تكن قد عُرفت بعد في زمن حضرة موسى ﷺ، بل شاعت فيما بعد.

والمقصود من عبارة: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ إما أرض مصر وفلسطين، أو أرض فلسطين وحدها التي كانت أرضًا مُباركةً مليئةً بالأنهار والأشجار وكل نوع من أنواع الثمار والفاكهة.

والمُراد من جملة ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ قصور الحُكْم والأبنية الملكية المرتفعة.

وبما أن دين اليهود من قوم موسى لم يكن مبنيًّا على البحث والتحقيق والدراسة العلميّة، لذلك بِمُجرّد أن شاهدوا قومًا عاكفين على أصنام لهم يطلبون منها حوائجهم ويتخذونها وسيلةً إلى الله في قضاء حوائجهم ظنّوا هم أيضًا أنه من الجيد أن يكون لهم إله يعرضون عليه حوائجهم، ولذلك قال موسى لهم: إنكم قوم جاهلون وغضب عليهم فانصرفوا عن طلبهم ذاك ولولا ذلك لوقعوا في الشرك، إذْ لا ملجأ في طلب الحوائج إلا الله.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ

سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤١-١٤٥].

الفوائد: المراد من جملة ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ أن جبلاً بهذه العظمة يُمكن أن يتحول إلى ذرات مسحوقة لكن رؤية الله غير ممكنة[1]. ولم يكن تجلي الله للجبل إظهار ذاته أو صورته بل تجلي أمره.

والـمُراد من ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إما هذه الدنيا أو حياة البرزخ.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧].

الفوائد: يَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أنَّ ضلال الناس كلَّه يأتي من جهة غفلتهم عن كتابهم السماويّ وأنهم عندما يجهلون آيات الله يقعون فريسةً للأوهام والخرافات والطرق الـمُنحرفة.

وبسبب تكبّرهم وعدم اكتراثهم بكتاب الله وأوامره تركهم الله تعالى في ضلالهم يعمهون، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ....﴾ أي بسبب إعراضهم وتكذيبهم عاقبتهم بالخِذلان وتركتهم في الضلال.

١- من الواضح أن الـمؤلف يذهب في مسألة الرؤية مذهب الـمعتزلة (ومن وافقهم من الشيعة والإباضية) الذين ينفون إمكانية رؤية الباري تعالى في الدنيا والآخرة، في حين يذهب بقية الـمسلمين إلى استحالتها في الدنيا وثبوتها في الآخرة. راجع في ذلك تفاسير أهل السنة لهذه الآية. [المترجم]

وانظر تعليق المصحح في الهامش عند تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] في هذا الكتاب. [الـمُصحح]

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٤٩].

الفوائد: بعد أن غرق فِرعون وأتباعه، وضع بنو إسرائيل يدهم على حُليّ أتباع فِرعون وأخذوها معهم، وكان السامريُّ صانعًا فصنع من تلك الحُليّ تمثال عِجلٍ ولكنه صنعه على نحو تصدر منه الأصوات أحيانًا. ولما تأخَّر موسى في عودته من جبل الطور قال السامريُّ -باحثًا عن تجارة مفيدة له- لقوم موسى: لقد برئ منكم موسى ولذلك لم يرجع إليكم، ولكن إله موسى جاء -والعياذ بالله- وجعل العِجل إلهًا لموسى، ثم سجد السامريُّ نفسه للعِجل. فلما سجد سجد معه قوم موسى جميعهم ثم بدؤوا بعد تلك النشوة بالرقص ورقصوا لرؤيتهم الله حسب ظنِّهم، وكان ذلك بسبب جهلهم بالتوحيد الحقيقيّ وعدم فهمهم أن الله مُنزَّهٌ عن المكان والحدّ والحدود، أي أنهم لم يكن لديهم دين مبنيّ على البحث والمعرفة لذلك ابْتُلُوا بهذا الشرك.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥١].

الفوائد: لما رجع موسى من الطور ورأى حالة قومه وأنهم وقعوا في الشرك غضب غضبًا شديدًا وأسف بشدة إلى درجة أنه رمى الألواح في الأرض وأخذ شعر أخيه وجذبه نحوه بشدة وغضب وقال له: لماذا لم تنههم عن ذلك؟ فقال له هارون: لم يكن لدي إلا عدد قليل من الأتباع فلما خالفتهم ونهيتهم عن فعلهم ذاك كادوا يقتلونني.

وهكذا يكون الجُهّال هم الأكثرية في كل عصر وزمان، فيستغل المحتالون الماكرون جهل

الناس ويجرونهم نحو الخرافات باسم الله والدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢-١٥٥].

الفوائد: المقصود من جملة: ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أن غضب الله حل عليهم وبسببه أصيبوا بالذل والتشرُّد في الأرض والطرد من بلدهم، إضافةً إلى وجوب دفع الجِزية عليهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ..... ﴾الآية، أن عددًا من أتباع موسى تابوا فورًا بعد عبادتهم للعِجل فشملهم الله برحمته.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ﴾ أن حضرة موسى ﷺ اختار سبعين شخصًا من بين قومه كي يذهبوا معه إلى الطور ويسمعوا كلام الله، فلما جاؤوا إلى الطور وسمعوا كلام الله طلبوا رؤيته وقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥]، فنزلت عليهم صاعقة من السماء فأهلكتهم جميعًا وخرّ موسى صعِقًا وغاب عن الوعي. فلما أفاق من غيبوبته اتجه إلى الله بالتضرُّع والاستكانة واشتكى من سفاهة قومه.

﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

الفوائد: لما كانت جملة ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ تدل على أن رحمة الحقّ تعالى تشمل كل شيء، كان من الممكن أن يغترّ الأشرار والكفار بهذه الجملة، لذلك قال تعالى بعدها: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي أن هذه الرحمة الواسعة سرعان ما تُصبح محدودة ومقصورة على المتقين أي تُصبح حتميّةً لهم فقط طبقًا للوعد الإلهيّ، أما للآخرين فبما أن هذه الرحمة ليست حتميّة لهم فلا يجوز لهم أن يغترّوا بها.

والمقصود من جملة ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ تلك التكاليف الشاقة التي تُثْقِلُ كاهل الناس والتي وضعها أحبار اليهود عليهم، مثل حرق الغنائم وتحريم الكسب يوم السبت[1] وأمثال ذلك، والمُراد من الأغلال قيود العادات والآداب التي نجد مثلها بين المسلمين كثيرًا، فكم من العادات المُقيِّدة تُثْقِلُ كاهلَ من يموت قريبه كوجوب عقد مجالس عزاء للميت لمدة ثلاثة أيام ومجلس على رأس أسبوع وآخر على رأس الأربعين ثم في ذكراه السنوية، ومثل إعطاء الأموال الشرعية كالخمس وسهم الإمام التي لم يكن لها وجود في أصل الشريعة ثم أُضيفت إليها وأصبحت عبئًا ثقيلاً على الناس، ومثل أن كل من أراد أن يُصلي ركعتين فعليه أن يتعلم خمسة آلاف مسألة .... وهكذا.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨-١٥٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أن محمدًا ﷺ مبعوثٌ إلى البشرية جمعاء، كما

١- الواقع أن الله هو الذي حرَّم على اليهود الكسب يوم السبت، كما أشارت إليه عدة آيات في القرآن الكريم.

يدلُّ على أن الله يُوجّه خطابه للناس جميعًا مما يُفيد أن خطابه الحقّ قابل للفهم.

والـمُراد من جملة: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ إيمان رسول الله ﷺ بأوامر الله في الكتب السماويّة ولو جاءت على ألسنة الأنبياء من قبله.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠-١٦١].

الفوائد: السبط: الحفيد، والأسباط الحفدة وهم حفدة يعقوب ‍عليه السلام وذراري أبنائه الاثني عشر والذين أصبح كل منهم أمةً عظيمة من الناس، وقد طلبت هذه الجماعات التي كانت مع موسى عليه السلام في الصحراء، الماءَ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه صخرةً معيَّنةً، فلما فعل ذلك انفجرت من الصخرة اثنتا عشرة عينًا، لكل سِبط عين. وظلّل الله عليهم في تلك الصحراء الغمام [ليقيهم حرّ الشمس] وأنزل عليهم المنّ والسلوى (أي الطير المشويّ ونوع من النبات)، وجاء إليهم الأمر بدخول مدينة بيت المقدس متواضعين مع الدعاء بأن يحطّ الله الذنوب عنهم، لكنَّ بني إسرائيل رغم كل تلك النِّعم والألطاف الإلهيّة بحقهم عصوا أوامر ربّهم وبدّلوا الكلمات التي أُمروا بقولها عند دخولهم بيت المقدس وقالوا بدلاً من كلمة ﴿حِطَّةٞ﴾ التي معناها اغفر ذنوبنا كلمة «**حِنطة**» أي القمح، على سبيل السُّخرية.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ

قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٢-١٦٦].

الفوائد: كان جماعة من بني إسرائيل معروفين بأصحاب السبت يقطنون على ساحل البحر، وكان عملهم ومعاشهم صيد السمك وبيعه. وكانت تعاليم دينهم تأمرهم أن يتوقفوا عن العمل والكسب يوم السبت ويعطِّلوا فيه ويخصصوه للعبادة، ولكن الله قدَّر عليهم أن الحيتان كانت تأتي إلى الساحل يوم السبت أكثر من أي يوم آخر، إذْ أراد اللهُ تعالى أن يمتحنهم بذلك، فكانت الحيتان (أي الأسماك) تجتمع عند ساحل البحر يوم السبت وهم ينظرون إليها ولا يستطيعون أن يصرفوا النظر عنها وأن يطيعوا أمر الله، فَتَوَسَّلُوا إِلَى حِيلَةٍ لِيُحِلُّوا بِهَا لِأَنْفُسِهِمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فحفروا حياضًا عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيأتون ويقطعون عليها طريق العودة من الأحواض إلى البحر بوضع الشجيرات والحطب في الجداول ويصطادونها يوم الأحد، ليقولوا لِلَّهِ: إننا لم نصطد يوم السبت. فمسخهم الحق تعالى بصورة قِرَدة، وقبل أن يُمسَخوا نهاهم جماعة من أهل الإيمان عن ذلك الاحتيال، وسكت آخرون وقالوا: لا تنهوهم إذْ لا فائدة من نهيهم وسوف يعذِّبهم الله، فنَجَّى الله الجماعةَ الذين نَهَوْا عن المنكر فقط، وأهلك الباقين. إذن لا يجوز للمؤمن أن يسكت أمام المنكرات، ولا أن يُويئِسَ من ينهى عن المنكر كأن يقول له: لا فائدة من نهيك عن المنكر، أو يقول: بما أن الناس لا يصغون إلى نصحك فلا تتعب نفسك معهم، وأمثال هذه الكلمات المويئسَة، لأن من يقوم بذلك سيكون مشاركًا للمجرمين في جرمهم، وَمِنْ ثَمَّ فسوف يُحشَر معهم وَيُعَذَّب مثلهم.

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن

يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ [الأعراف:١٦٧-١٦٩].

الفوائد: المُراد من جملة ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ...﴾ أن يُسلِّط الله عليهم من يُعذبهم إلى يوم القيامة، كما سلَّط الله المجوس على اليهود فكانوا يأخذون منهم الجِزية وبعد المجوس أصبح المسلمون يأخذون منهم الجِزية. وربّما يكون المُراد تسليط السلاطين الظلمة مثل نبوخذنصر ومثل هتلر على اليهود وسيبقون على هذا الحال حتى يوم القيامة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ...﴾ أن اليهود سيبقون دائمًا مُشتتين في أطراف العالم ومنفصلين عن سائر الأمم في كل منطقة من الدنيا.

والمقصود من ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أخذ الرِّشوة من الناس وتبديل أحكام التوراة وافتراء ما يبتدعونه من الأحكام على الله.

وكلمة ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ مشتقة من الدنيء أي الحقير لأن متاع الدنيا غادر وحقير. قال الشاعر: [بيت بالفارسيّة]

لما كانت الدنيا مؤنث دنيء فكل من طلب الدنيا دنيء

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠-١٧١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أن التمسك بكتاب الله سبب لصلاح كل أمة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أن على كل أمة أن تحفظ ما جاء في كتابها السماويّ ولا تنساه، وإذا كان التمسك بالتوراة وتذكر مطالبها سببًا للصلاح والتقوى فإن التمسك بالقرآن وتعلم مطالبه سبب للنجاة والفلاح من باب أولى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

الفوائد: استدل بعض الجاهلين بهذه الآية على ثبوت عالـم الذّر، أو حسب قول أحد شُعراء الجبريّة «**عالـم أَلَسْتُ**»، هذا في حين أن الآية لا تدل على ما يذهبون إليه، بل تُصرِّح بخلاف ما يُريدون. ولما لم يكن لديهم دليلٌ على مطلبهم أرادوا أن يُثبتوا فكرتهم الـموهومة بواسطة هذه الآية بوصفها دليلاً على قولهم، لأنهم يقولون: كان العالـم موجودًا في اجتماع ذرّات النُّطَف في ظهر آدم عندما أخذ الله من تلك الذَّرات الـميثاق والعهد على وحدانيّته[١].

١- إن أهل السنة والجماعة من حيث الجملة يؤمنون بالميثاق وعالم الذر، كما قال الطحاوي في عقيدته: «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق». ولكنهم قد اختلفوا في كونه تفسيرًا للآية، وجمهورهم يفسر الآية بذلك؛ للأحاديث والآثار المروية فيه، وبعضهم ينكر ذلك ويفرق بين الميثاق المشار إليه في الآية وبين الميثاق الثابت في الأحاديث والآثار، ويضعف ما جاء منها مصرّحًا بالإشهاد عليهم في عالم الذر، ويفسر الإشهاد في الآية بالفطرة على التوحيد، ويقصر دلالة الأحاديث على إثبات القدر السابق واستخراج صور بني آدم وتميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وهذا ما قرره ابن القيم في (أحكام أهل الذمة) حيث قصر دلالة الأحاديث الصحيحة على ذلك ثم قال: «وأما الآثار التي فيها أنه استنطقهم وأشهدهم وخاطبهم فهي بين موقوفة ومرفوعة لا يصح إسنادها ... وبالجملة فالآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم وحصولهم في القبضتين كثيرة لا سبيل إلى ردها وإنكارها، ويكفي وصولها إلى التابعين فكيف بالصحابة! ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين، ولكن الذي دل عليه الصحيح من هذه الآثار إثبات القدر وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم، وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هو أمثالهم أو أعيانهم، فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث التي تقوم بها الحجة ولا يدل عليه القرآن». وهذا هو ما رجحه جماعة من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن أبي العز الحنفي وابن كثير وغيرهم.

ويجب أن نقول إن أخذ العهد من ذرّات لا شعور لها أمر لا معنى له، فما لم يصل الإنسان إلى سنّ الرُّشد والتكليف لا اعتبار بأخذ العهد والـميثاق منه. وثانيًا: لا عِبرة لميثاقٍ لا يتذكره أحد. ثالثًا: عبارة الآية لا تُفيد اجتماع الذرّات في ظهر آدم لأنه تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ

وأما الرأي الثاني، فهو المؤيد بالأحاديث المرفوعة والموقوفة فهو: أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق. ويرى أصحاب هذا الرأي أن ظاهر القرآن يدل عليه، وتؤيده الأحاديث الصحيحة المرفوعة والموقوفة، ومنها وأصرحها حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]». [مسند أحمد، ح (٢٤٥٥) السنة لابن أبي عاصم، ح (٢٠٢)، سنن النسائي الكبرى (١١١٩١)، مستدرك الحاكم (٢/ ٥٤٤) وغيرها. صحح الحاكم إسنادَ الحديث ووافقه الذهبي والألباني]. قال العلامة الملاّ علي القاري: «أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم؛ أحدهما تهتدي إليه العقول من نَصْب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما: المقالي الذي لَا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد، من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أرادﷺ أن يُعَلِّم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقا آخر أزليًّا، فقال ما قال مِنْ مَسْح ظهر آدم في الأزل، وإخراج ذريته وأخذه الميثاق عليهم. وبهذا يزول كثير من الإشكالات، فتأمل فيها حق التأمل». [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٤٠-١٤١)] وقال الألباني: «وقد صح مرفوعًا، فوجب المصير إليه وطرح ما سواه، ومما يؤيد المرفوع الآثار الموقوفة، وعدم بيان الميثاق في بعض الأحاديث ليس مستلزماً لعدمه». وهؤلاء العلماء يرون أن الإشهاد في الآية حقيقي، سواء أكان ذلك خاصًّا بالأرواح أو كان لها في أجسادها.

يلزم التنبيه على أن إنكار عالم الذر بالكلية، وعلى أنه لم يُستخرج بنو آدم من ظهره ولا أخذ عليهم ميثاق؛ أن هذا القول غلط، وأن الأحاديث والآثار ترده، وأن اتفاق أهل السنة على خلافه، ولذلك نسبه الحافظ ابن عبد البر لأهل البدع. ولكن اختلف علماء أهل السنة كون ذلك الميثاق تفسيرًا للآية الكريمة. [المُصحح]

ءَادَمَ﴾ ولا يصدق على الذرّات كلمة بنو آدم، وكذلك قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولو أراد ظهر آدم لقال: «من ظهره» لأن آدم مفرد وله ظهر واحد، بل المقصود من أصلاب بني آدم لا من صُلب آدم عليه السلام، وضمير ﴿ظُهُورِهِمۡ﴾ يعود على بني آدم.

إن آية ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾ تمثيل للمعقول بصورة المحسوس أي أن الله تعالى أخذ من بني آدم بواسطة ما أقامه لهم من أدلة وما منحهم من عقل ووجدان-عندما يصدق عليهم عبارة بني آدم ويكونون بشرًا عُقلاء- العهد والميثاق الفِطريّ والعقليّ أي أشهد عقلهم ووجدانهم على أنفسهم أن لكل مخلوق خالقًا ولكل اختراع مُخترعًا ولكل خُطّة علميّة مُخططًا وكل العقول تشهد على هذا.

والمقصود من ﴿ظُهُورِهِمۡ﴾ أصلابهم، وقد أشار الله تعالى إلى هذا العهد والميثاق في أكثر من موضع في القرآن الكريم فقال في أحد المواضع: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وهذا من الخِطابات التي خاطب الله بها العُقلاء لذلك قال: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾. إذن فقد أخذ الله الميثاق في حال العقل لا في حال الذرّات التي هي جماد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٤-١٧٧].

الفوائد: تتحدث الآيات الثلاث الأخيرة عن «**بلعم بن باعوراء**» وأمثاله من العلماء العالمين بالدين الذين ينحرفون عن آيات الله وينصرفون إلى الدنيا اِتّباعًا لهوى النفس ورغبتها بمتاع الدنيا. فقد ضرب الله لمثل هذا العالم مثل الكلب اللاهث الذي هو أكثر الكلاب تملّقًا فقد اعتاد

أن يُخرج لسانه من فمه في حال العطش وفي حال الرِّي، أما الحيوانات الأخرى فلا تُخرج لسانها من فمها وتُديره حول فمها إلا إذا أصابها العطش. ووجه الشبه بين العالـم بلا عمل والكلب اللاهث من عدة جهات:

الأول: من ناحية التملُّق، لأن العالـم بلا عمل يتملَّق كل شخص سواءً كان شخصًا محترمًا أم لا طمعًا في دنياه. **والثاني**: أن الرجل العالـم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذاك إنما يكون لأجل أنه يُورد عليهم أنواع علومه ويُظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات يدلع لسانه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبدًا من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمُجرّد الطبيعة الخسيسة[1]. **والثالث**: من ناحية خطف الطعام وانتشاله، لأن العالـم بلا عمل همُّه الدائم أن ينتشل حلاوة الدنيا من الناس السافلين.

وعلى كل حال، فإن عُبّاد الهوى الذين أداروا ظهورهم للدين والهدى وكذَّبوا عمليًّا بآيات الله وجعلوا غاية هدفهم جيفة الدنيا هم ذوو خُلق حيوانيّ مهما وصلوا إلى مقامات رفيعة في العلم، فهم لا يتخلون عن حيوانيّتهم وتجدهم يلهثون دائمًا في جميع أحوالهم وراء الدنيا ووراء أهوائهم.

رُوي أن طفلاً قال لمُعلمه: لقد رأيت رؤيا فهل أقُصُّها؟ قال: نعم، قال: رأيت ليلة أمس أن جسمي غارق في النجاسة وجسمك غارق في العسل. فقال الـمُعلم: لقد رأيت رؤيا جيدة. فقال التلميذ: انتظر حتى أعرض عليك بقيّة الحلم، فقال: قل. قال: كنت تلحس بدني وأنا ألحس العسل الذي على بدنك. فغضب الـمُعلم. والواقع أن هذا الحلم حلم واقعيّ لأن الـمتعلم يستفيد من علم مُعلمه الذي هو بمثابة العسل الشافي، لكن الـمُعلم يستفيد من مال الدنيا للمُتعلم الذي هو بمنزلة النجاسة.

قيل: كان بلعم عالمًا عابدًا، سكن الشام، ولما علم ملك الشام أن موسى عليه السلام قادمٌ بجيشه إلى

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٥/ ص ٥٦ باختصار.

الشام ليفتحها، وعلم أنه لا يستطيع مواجهة موسى عليه السلام لكونه نبيًّا لِلَّهِ تعالى، جاء إلى بلعم ورجاه أن يدعو على موسى عليه السلام ويسأل الله أن لا ينصر موسى في حربه، فرفض بلعم أن يدعو على موسى. فأرسل ملك الشام له هديةً رشوةً له وأرسل هديةً رشوةً لزوجته كي تحثه على لعن موسى والدعاء عليه. وخُدِعَ بلعم بالمال وبزوجته ومال إلى مال الدنيا، ودعا على موسى، وأخرج لسانه من فمنه كما يفعل الكلب؛ ولو أراد الله لرفعه بعمله، ولكنه لما مال إلى الدنيا خذله الله تعالى وترك هدايته.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨-١٧٩].

الفوائد: لا يُضلُّ الله أحدًا بلا سبب بل من اختار الضلال بنفسه خلّى الله بينه وبين ضلاله، كما تدل عليه كلمة ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ في الآية، لأن ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ معناها طالب الهداية فكل من طلب الهداية لم يمنعها الله عنه. أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فَعِلَّتُهُ أن الله علم أن أكثر الجِنّ والإنس يُعرضون عن الحقّ ويسيرون وراء أهوائهم ورغباتهم ولذلك يصيرون إلى جهنّم، ومع ذلك خلقهم وهو يعلم مصيرهم فكأنه خلقهم لهذا الهدف، والواقع أن الحقّ تعالى خلق جميع الخلق لعبادته ولينالوا السعادة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠-١٨٤].

الفوائد: سمع رجل من المشركين في مكة مسلمًا يدعو الله في صلاته ويدعو الرحمن، فقال: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يدّعون أنهم يعبدون ربًا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، أي أن الله والرحمن وسائر أسماء الله تعالى أسماءٌ لذات واحدة وأنه يجب أن ندعو تلك الذات بتلك الأسماء. أي أنه وإن كانت الألفاظ متعددة إلا أن المعنى واحد فيجب قراءة المعنى بواسطة هذه الأسماء.

والإلحاد في أسماء الله إطلاق أسمائه الخاصة على غيره، أو إطلاق أسماء لا تليق بذات الله عليه. ولذلك فإن أسماء الله توقيفيّة، أي لا يجوز أن نُطلق على الله اسمًا إلا إذا جاء الوحي به.

والمقصود من الاستدراج والإملاء أن الله تعالى يُعطي عبده كل نوع من أنواع النِّعم ويُعطيه القوة والصحة وسائر الأمور التي تُوجب الغفلة عن الحقّ والاهتمام بالدنيا فيزيد من عذابه بذلك ويُمهله الله، فهذا من الكيد الإلهيّ لأن ظاهره الإحسان.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥-١٨٧].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أن إضلال الله للعباد معناه أن العبد هو الذي يعصي الله ويتعدى حدوده ويطغي فيذره الله في طُغيانه ولا يمنعه عنه.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

الفوائد: من هذه الآية والآية التي قبلها التي نفت معرفة النبيّ بعلم الساعة يَتَبَيَّنُ أن حديث

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ج٣/ ص ٣٠٧.

«إنّا نعلمُ عِلمَ مَا كَانَ وما يكونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة» حديثٌ موضوعٌ مكذوب.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن رسول الله ﷺ أُمر أن يُبيّن لنا أنه عبد ضعيف لا يملك نفع نفسه وضررها إلا ما شاء الله أن يُوصل إليه من نفع أو يدفع عنه من ضر، وأنه لا يعلم الغيب وأنه لو كان يعلم الغيب لاجتنب كثيرًا من المصائب أو السيئات المستقبلية ولما كان غالبًا يومًا ومغلوبًا يومًا آخر ولما أُصيب بالغَبن في معاملاته ولكان قد اشترى كل ما فيه نفع وحفظه عنده. ورغم هذه الآيات الواضحة يعتبر بعض من لا علم لهم بالدين أولاد هذا النبيّ ﷺ وأحفاده عالمين بالغيب، نعوذ بالله.

﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٣].

<u>**الفوائد**</u>: لا تنطبق آية وجملة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ على سيدنا آدم، فهذه الآية خطابٌ لمشركي قُريش. ويمكن أن تنطبق على النوع، لأن الله تعالى خلق كل طائفة وقبيلة من نفس واحدة، كما تنطبق الآية أيضًا على آل قصي، إذ تزوج قصي من امرأة قرشية وطلب الاثنان من الله أن يهبهما ولدًا صالحًا فوهبهما الله أولادًا، لكنهما بدلاً من تسمية أولادهما بعبد الله ونحوه، سمَّيا أولادهما بأسماء مثل عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار وعبد قصي... واعتبرا أولادهما عبيدًا للأصنام وجعلا الأصنام شركاء لِلَّهِ. في حين أن الأصنام لا تُعِينُ أحدًا، بل لا تملك عون نفسها، ولو دعاها الناس لم تسمع دعاءَهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ

يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٧].

الفوائد: تدل هذه الآيات على عدم جواز دعاء غير الله وأن دعاء غير الله هو في الواقع شرك، وحتى الأنبياء والأولياء لا يجوز دعاؤهم لأنه تنطبق عليهم عبارة ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ وخاصة عندما يرحلون عن الدنيا ولا يعودون فيها ويُصبح دعاؤهم ونداؤهم لغوًا إذ انقطعت صلتهم عن هذا العالـم وما عادوا يسمعون شيئًا مما فيه.

فإن قيل: إن كلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في جملة ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وضمير «**هم**» كلها تُطلق على العُقلاء مما يُفيد أن الـمشركين كانوا يعتبرون أصنامهم عاقلة! أو تقولون: إنهم كانوا يدعون أولياء وعُقلاء غير أصنامهم فكيف ذلك؟

والجواب: أن معظم الآيات التي تحدثت عن معبودات الـمشركين وآلهتهم في القرآن استخدمت بحقها ضمائر وكلمات تُطلق على العُقلاء، لأن الـمشركين كانوا يُنادون أصنامهم ويدعونها ويعبدونها ويسألونها حاجاتهم لكن لا على نحو الاستقلال بل بوصفها مرآة وآلة، أي أن أصنامهم كانت بمثابة الرموز، يعني أنهم كانوا يعتبرون أصنامهم تماثيل لأولياء الله أو لعظمائهم وأن تلك التماثيل مظاهر لأولئك الأولياء والعظماء وأنهم يدعون في الحقيقة أولئك العظماء ويتوجهون إليهم كما هو الحال في زماننا عندما يقوم الناس بالتوجه إلى صورة الإمام أو إلى قبره لكن لا على نحو الاستقلال بل لكون الصورة أو التمثال «**مرآة وآلة للتوجه إلى الإمام**»، وفي الواقع ما كانوا يدعون الصنم ذاته وإنما يدعون تلك الشخصية العظيمة التي يُشكل الصنم مرآةً لها [أي رمزًا لهذه الشخصية كالتماثيل التي على صورة أشخاص معينين]، ومن الـمعلوم أن تلك الشخصيات العظيمة هي من العُقلاء، لذا استخدمت بحقها اسم الـموصول الـمستخدم للعاقل أو ضمير العاقل.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ

ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨-٢٠٢].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ عدم التشدد مع الناس، كما قال رسول الله ﷺ: «**يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا**» أي تغاضَ واصفح عن أفعال الناس وأخلاقهم. ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية جاء جبريل فقال: «**يا رسول الله! إن الله يأمرك أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعكَ وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمك وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ**».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أن الشيطان يوسوس لرسول الله ﷺ أيضًا وأن رسولالله ﷺ لا يستطيع بنفسه دفع شر الشيطان بل عليه أن يستعيذ بالله منه أي يلجأ إلى الله ليحميه من شره.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ أنه يجب على أهل التقوى والإيمان إذا أُبتلوا بإحدى الحالات الشيطانية أن يتذكروا على الفور نهي الله فينتهوا عما هم فيه، فمثلاً إذا غضبوا تذكَّروا فورًا غضب الله.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

الفوائد: كان المشركون يطلبون من رسول الله ﷺ معجزات تكوينيّة كقولهم: لِمَ لا تُحوّل لنا الجبل ذهبًا؟ ولِمَ لا تخلق لنا في مكة بستانًا؟ فقال الحقّ تعالى ردًّا عليهم: قل إنما أنا تابعٌ للوحي وليس بيدي أمر المعجزات.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٦].

الفوائد: ظاهر أمر ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ يدل على الوجوب، أي أنه من الواجب على الإنسان عند قراءة القرآن أن يصمت ويُصغي إلى القراءة، ولكن مُسلمي زماننا لا يُعيرون هذه الآية اهتمامهم وكأنهم لم يسمعوها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أن الدعاء والتسبيح والذكر يجب أن يكون صادرًا عن القلب وعن وعيٍ وأن يكون بصوت خاشع خافت دون صياح وصُراخ. وخاصةً أن قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يدل على أن الذكر والدعاء يجب أن لا يكونا بصوت عال، لكن قومنا على العكس من ذلك يرفعون صوتهم بالدعاء والذكر وكأنهم يُعاندون آيات الله ويتفلّتون من أمره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكة والمُراد أن الذين يتمتعون بمقام القرب من الله لا يتكبرون عن العبودية له فعلى البشر أن لا يتكبروا عن عبوديتهم لِلَّهِ من باب أولى. ويُمكن أن يُستفاد من هذه الآية أن الملائكة أشرف من الإنسان.

سورة الأنفال

مدنيّة وهي خمس وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: ١].

الفوائد: الأنفال[١] عبارة عن كل ما غنمه المسلمون من أموال الكفار الحربيين دون قتال، والأراضي التي سلّمها أهلها للمسلمين طوعًا من غير قتال[٢]، والأرض الموَات[٣] البائرة، والآجام (جمع أَجَمَة) وهي الأرض المملوءة من القصب ونحوه، وبطون الأودية ورؤوس الجبال [والمرجع فيهما إلى العرف] والغابات، وصوافي ملوك أهل الحرب، وقطائعهم[٤]، ومال (ميراث) من لا وارث له.

ولا يجوز لأحد أي أن يتصرَّف فيها ببيعٍ أو شراء، وكانت لرسول الله ﷺ وتحت تصرُّفِهِ

١- الأنفال: لغةً: جمع نَفْل بسكون الفاء وفتحها، وهو الزيادة، ومنه سُمِّيَتْ النافلة لزيادتها على الفريضة. والأنفال: الغَنائم واحدُها نَفَل، والنَّفَل بالتحريك الغنيمةُ والهبةُ وسمِّيت الغنائمُ أَنْفالًا. (يُنْظَر لسان العرب، مادة نفل).

٢- مع بقائهم فيها كبلاد البحرين زمن رسول الله ﷺ، أو التي انجلى عنها أهلها وتركوها للمسلمين.

٣- الأرض المَوَاتْ: هي الأرض التي باد أهلُها وهلكوا، مسلمين كانوا أو كفّارًا، أو مطلق الأرض التي لم يكن لها أهلٌ معروفون.

٤- وضابطه كل ما اصطفاه ملك الكفار لنفسه واختص به من الأموال المنقولة وغيرها، غير المغصوبة، من مسلم، أو مسالم.

زمنَ حياته، فكان يصرفها في منافع الـمسلمين، وهي بعده للإمام القائم مقامه[1] ممن يحكم الـمسلمين ويأخذ بزمام أمورهم، ويجب عليه كذلك أن يصرفها في مصالح الـمسلمين وما ينفعهم.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

الفوائد: لا تنافي بين جملة ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] لأن الاطمئنان يحدث في القلب على إثر اليقين بقدرة الله وعظمته، والخوف يقع في القلب نتيجة استحضار مراقبة الله وعقابه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ على أن الإيمان قابل للنقص والزيادة، وقد نزلت هذه الآية في حقِّ مؤمنين كاملي الإيمان.

والـمقصود من ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: الرزق الذي لا مِنّة فيه والجنّة الأبديّة التي لا أمد لها.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٥-٨].

الفوائد: الـمُراد من جملة: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ الإشارة إلى خروج النبيّ ﷺ من الـمدينة

١- انظر هذا التعريف للأنفال في: **الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية** للشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العاملي (ت ٩٦٦ هـ. ق.)، (ط-الحديثة)، ج ٢/ ص ٨٤- ٨٥. وكتاب **رياض المسائل في تحقيق الأحكام بالدلائل**، تأليف السيد علي بن محمد الطباطبائي الـمعروف بصاحب الرياض (ت ١٢٣١ هـ. ق.)، (ط- الحديثة)، ج ٥/ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

إلى معركة بدر، ورغم أنه ﷺ كان قد خرج بنفسه إلا أنه لما خرج طاعةً لأمر الله عبّر الله عن ذلك بعبارة: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾. وأيًا كان الأمر، فإذا أردنا أن تتضح معاني الآيات المذكورة أعلاه وما سيتلوها من آيات فلا بدّ من ذكر قضية بدر كي يسهل على القارئ الكريم فهم معاني الآيات.

فاعلم[١] أن «بدر» منطقةٌ تقع على بُعد ١٥٠ كيلومترًا جنوب المدينة باتجاه مكة، وفيها آبار للمياه، ومياه وافرة، وسُمِّيت الآبار ببَدْر نسبةً لاسم الشخص الذي حفرها أول مرّة.

في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، أخبر جبريل النبيَّ ﷺ أنَّ قافلةَ تجارةِ قريشٍ عائدةٌ من الشام تضمُّ ألف بعير وسبعين راكبًا عليهم أبو سفيان. فخرج رسول الله ﷺ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً يَتَعَرَّضُ الْعِيرَ أي قافلة قريش التجارية تلك، ولم يظُنُّوا أنهم سيلقون حربًا، لذا خرجوا عارين عن السلاح وعدَّة القتال. وكان معهما جملان فقط أحدهما للمقداد والآخر لمصعب بن عمير، وكان لدى جيش المسلمين كُلِّهِ عشرون سيفًا فقط أما باقي الأفراد فكانوا يحملون العصيّ والهراوات، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل شخصين إلى بدر يستخبر عن القافلة فعرفا قدوم القافلة على الطريق. ومن الجهة الأخرى أرسل المنافقون في المدينة رسولاً إلى أبي سفيان يخبره أن محمدًا خرج مع أصحابه من المدينة يريدك وقافلتك. وكان أبو سفيان رجلاً خبيرًا (ذا معرفة بفنون الحرب) فتقدَّم على القافلة حتى وصل بدرًا يستقصي من أهلها الأخبار، فقال له أهل بدر: وَاللهِ لا عِلْمَ لَنَا بِمُحَمَّدٍ إِلَّا أَنَّنا رَأَيْنا فِي هَذَا الْيَوْمِ رَاكِبِينَ أَقْبَلَا فَاسْتَعْذَبَا مِنَ الْمَاءِ وَأَنَاخَا رَاحِلَتَيْهِمَا وسألانا عن أخبار القافلة وَرَجَعَا، فَلَا نَدْرِي مَنْ هُمَا. فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَوْضِعِ مُنَاخِ إِبِلِهِمَا فَفَتَّ أَبْعَارَ الْإِبِلِ بِيَدِهِ فَوَجَدَ فِيهَا النَّوَى فَقَالَ: هَذِهِ عَلَائِفُ يَثْرِبَ، هَؤُلَاءِ

١- لم أجد السياق الذي أورده المؤلف حول واقعة بدر وما ذَكَرَ فيها من تفاصيل وأحداث في مرجع تاريخيٍّ واحدٍ بعينه، وأظنه نقل من مرجع فارسي متأخر. نعم، كثيرٌ مما ذكره المؤلف موجود في كتب السيرة المتقدمة مثل سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي ونحوها. وقد ترجمتُ ما ذكره المؤلف كما هو، وأحيانًا أوردتُ عبارات المصادر المعروفة إن كانت قريبة لما كتبه المؤلف بالفارسية.

وَاللهِ عُيُونُ مُحَمَّدٍ! فَرَجَعَ مُسْرِعًا وَأَمَرَ بِالْعِيرِ، فَأَخَذَ بِهَا نَحْوَ سَاحِلِ الْبَحْرِ وأرسل ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الغفاري إلى مكة ليخبر قريشًا أن محمَّدًا قد عرض لعيرهم وأمره أن يصيح الغوث الغوث.

وقبل أن يصل ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو إلى مكة، رَأَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رُؤْيَا أَفْزَعَتْهَا، إذ رَأَتْ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَى بَعِيرٍ حَتّى وَقَفَ بِالْأَبْطَحِ، ثُمّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا آلَ غَالِبٍ اخْرُجُوا إلَى مَصَارِعِكُمْ، فَصَرَخَ بِهَا ثَلَاثَ مَرّاتٍ... ثُمّ أَخَذَ صَخْرَةً مِنْ أَبِي قُبَيْسٍ فَأَرْسَلَهَا، فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي حَتّى إذَا كَانَتْ بِأَسْفَلِ الْجَبَلِ ارْفَضّتْ فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكّةَ، وَلَا دَارٌ مِنْ دُورِ مَكّةَ، إلّا دَخَلَتْهُ مِنْهَا فِلْذَةٌ. فانتشر خبر هذه الرؤيا في مكَّة. وكان أبو جهل جالسًا في رهط من قريش في ظلِّ الكعبة فجاء العباس ليطوف بالبيت فرآه أبو جهل فناداه وقال: أريد أن أكلمك في أمر، فجاءه العباس، فقال أبو جهل له: يا بني عبد المطلب! أما رضيتم بأن تتنبَّأ رجالكم حتى تتنبَّأ نساؤكم؟! زَعَمَتْ عاتكةُ أنها رأت في المنام كذا وكذا، لِلَّذِي رَأَتْ، فسنتربص بكم ثلاثًا فإن مضت الثلاث ولم يكن، فأقسم باللات والعُزَّى لَنَكْتُبَنَّ عليكم أن آل عبد المطَّلب أكذبُ أهل بيت في العرب!

قال العباس: فَغَدَوْت فِي الْيَوْمِ الثّالِثِ وقد أعددتُ نفسي لأردَّ على أبي جهل، فما أن وضعتُ قدمي في الحرم حتى سمعتُ صَوْتَ ضَمْضَمَ بْنِ عَمْرٍو ينادي بذلك في بطن الوادي وقد جدع أُذُنَي بعيرِهِ وَشَقَّ قميصَه قبلاً وَدُبُرًا وَحَوَّلَ رَحْلَهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! يَا آلَ لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ! اللّطِيمَةَ! قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمّدٌ فِي أَصْحَابِهِ، المستغاث من محمد، الْغَوْثَ، الْغَوْثَ، أدركوا قافلة قريش [وَاللهِ مَا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا].

فَتَصَايَحَ النَّاسُ بِمَكَّةَ وَتَهَيَّئُوا لِلْخُرُوجِ وقاموا على عجلٍ بجمع ما أمكنهم من سلاح ورجال، حتى بلغوا ألف رجل. فلما خرجوا من مكة وصل رسولُ أبي سفيان يخبرهم أن القافلة نجت. فقال جيش مكة: لا فائدة من محاربة يتيم أبي طالب، وأرادوا العودة، لكن الأخنس بن شريق وأبا جهل منعاهم من العودة، وجاء سُرَاقَةُ الكِنَانِيُّ فقال: يا معشر قريش! أما وقد خرجتم فاذهبوا واقطعوا دابر محمَّد واكفوا الناسَ شرَّه، اذهبوا إلى بدرٍ، فإن ظفرتم بمحمد قتلتموه، وإلا ضربتم الدفوف وسمعتم القيان وشربتم الخمور ورجعتم.

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن قريشًا خرجت في طلب قافلتها، وأن جيشها قادم، وقال له: استعد للقتال، واللهُ ناصركَ.

فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه وأخبرهم بفرار القافلة وقدوم جيش قريش وقال: أشيروا عليَّ أيها الناس؟ فقال أبو بكر: بدني وروحي فداك وفدى أمر ربِّك، مهما أمرت فنحن مستعدون للقتال معك ولو لم يبقَ مِنَّا إلا رجلٌ واحدٌ. فقال له رسول الله ﷺ: جزاك الله خيرًا، اجلس. ثم أعاد السؤال ثانيةً: أشيروا عليَّ أيها الناس! فقام عُمَرُ وقال: يا رسول الله! رأينا هو ما قاله أبوبكر، فكرَّر رسول الله سؤاله، فقام سعد بن معاذ وقال: لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَجَلْ. قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، والأنصار كلهم على قولي هذا. فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ. وَقَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُوإِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ[1] وَلَكِنْ نقول: سمعًا وطاعةً لِلَّهِ ورسولِهِ.

وعلى كل حال، كانوا كارهين للحرب لأنهم لم يستعدُّوا لها.

وقام الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نُغَوِّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الرأيُ ما أشارَ بِهِ الحُبَابُ.

١- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤].

فلما وصلا إلى بدر وجدا غلامين لقريش فأمسك أصحابُ رسول الله ﷺ بهما، وهو ﷺ يصلِّي، وقالوا لهما: كم عدد قريش؟ قالا: ألف راكبٍ، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ: كذبتما، إنما تريدان تخويفنا وعادا إلى ضربهما، فقالا: أجل كذبناكم، يريدان أن يتخلصا من الضرب، فسلّم رسول الله ﷺ من صلاته وقال لأصحابه: عجبًا لأمركم! إن صدقاكم ضربتموهما وإن كذباكم تركتموهما! عليَّ بهما، فسألهما أن يصدقاه القول وقال: كَمِ الْقَوْمُ؟ فقالا: هم كُثُر، ولكن لَا عِلْمَ لَنَا بِعَدَدِهِمْ بالتفصيل، ولا نكذب عليك. فسألهما رسول الله ﷺ: كَمْ يَنْحَرُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَزُورًا؟ فقالا: يومًا عشرة ويومًا تسعة، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الله أكبر! القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». وكانوا في الواقع ٩٥٠ نفرًا.

وأمضى أصحاب رسول الله ﷺ تلك الليلة في البيداء، وكان الماء قليلاً والرمل ناعمًا جدًا تسيخ فيه الأقدام، ويصعب معه القتال. فأنزل الله عليهم مطرًا، كما ذكر في الآية ١١ من هذه السورة، فامتلأت الحفر بالماء، وأصبحت الأرض تحت أقدامهم صلبةً، وفرح المسلمون وأمِلُوا بنصر الله.

ووصل جيش المشركين، وقال رسول الله ﷺ: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها**».

ورأى المسلمون أن المشركين ضعف عددهم، ورأى جيشُ المشركين أن المسلمين قلّة، فاستبسلوا في القتال.

وانطلق أحد المشركين نحو عسكر الإسلام ليطَّلع على عدده وقوته وعاد فقال: «**هؤلاء قوم لا كمين لهم ولا مدد إلا سيوفهم**».

وقال عتبة: يا معشر قريش! تعلمون أني ناصح لكم. إنّكُمْ وَاللهِ مَا تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلْقَوْا مُحَمّدًا وَأَصْحَابَهُ شَيْئًا. يا قوم أطيعوني وَارْجِعُوا وَخَلّوا بَيْنَ مُحَمّدٍ وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فإن كان هذا الرجل نبيًّا فنحن أولى به من غيرنا، وإن كان مَلِكًا كنتم في ملك أخيكم، وإن كان كاذبًا وَلِيَ قَتْلَهُ غيرُكُم من العرب، ولا آمن أن تكون لهم الدبرة عليكم فإن هُزمتم فُضِحْتُم بين العرب، وإن انتصرتم عليهم فلا فخر لكم في الانتصار على حفنة من الحُفَاة الجوعى.

فلما سمع أبو جهل كلامه قال: قد انْتَفَخَ سَحْرُهُ[1] أي خاف وجَبُنَ. فلما علم عتبة بذلك قال: يا مصفِّر استِه![2] ألي تقول هذا الكلام؟! سأريك من الرجل، وتهيأ للقتال. وكان جيش الإسلام تحت الشمس، فصنعوا لرسول الله ﷺ عريشًا. ودعا هناك رسول الله ﷺ وتضرّع إلى الله، وطلب من الله النصرة، فوصل إليه جبريل بثلاثة آلاف من الملائكة وقال له: «**الجبار يقرئك السلام ويقول: أنت في الظل وأصحابك في الشمس!**»، فأمر رسول الله ﷺ بالعريش فَهُدِمَ.

وَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ اصْطَفَّتْ قُرَيْشٌ أَمَامَهَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ بنُ عُتْبَة وكانوا ثلاثة أشخاص: مُسِنٌّ وكهلٌ وشابٌّ، فَنَادَى عُتْبَةُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، فَبَدَرَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ شُبَّانِ الْأَنْصَارِ هم: عَوْفٌ، وَمُعَوِّذٌ، ابْنَا الْحَارِثِ، وأبوهما الحارث، فَقَالَ لَهُمْ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَانْتَسَبُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مُبَارَزَتِكُمْ إِنَّمَا طَلَبْنَا بَنِي عَمِّنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَنْصَارِ: ارْجِعُوا، وقال للمهاجرين: أجيبوهم! فقام أبوبكر فأجلسه رسول الله، فقام عُمَر فأجلسه رسول الله، ثم قام حَمْزَةُ وعَلِيٌّ بن أبي طالب وعُبَيْدَةُ بن الحارث. فكان حَمْزَةُ مقابلَ عُتْبَةَ، وكان عليٌّ مقابلَ الْوَلِيدِ وكان عُبَيْدَةُ مقابل شَيْبَةَ. أي المسن في مواجهة المسن والشاب في مواجهة الشاب.

فلم يمهل عليٌّ الوليد أن ضربه ضربةً أطاحت برأسه، وكذلك حمزة لم يمهل أن قتل عتبة، وبقي عبيدة وشيبة يتبارزان، فضرب شيبةُ عبيدةَ على ساقه فقطعها، وضربه عبيدةُ على عاتقه، فوقعا كلاهما أرضًا، فَكَرَّ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بِأَسْيَافِهِمَا عَلَى شَيْبَةَ فَذَفَّفَا عَلَيْهِ، وَاحْتَمَلَا صَاحِبَهُمَا فَحَازَاهُ إِلَى رسول الله ﷺ فوضع رسولُ الله رأسَ عبيدة في حضنه، فعاد إليه الوعي وقال: ألستُ على الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بلى وعلى الشهادة**». فقال عبيدةُ بيتين من الشعر وأسلم الروح

١- السَّحْرُ: الرِّئَةُ وَمَا حَوْلَهَا مِمَّا يَعْلَقُ بِالْحُلْقُومِ مِنْ فَوْقِ السُّرَّةِ، وانتفاخ السَّحْر كناية عن الجبن والخوف.

٢- قوله «**يا مصفِّر استِه**»:كناية عن الدعة، فقد كان الإنسان البعيد عن الحرب يتطيَّب بالخلوق، وقد قصد المبالغة لإهانته بذكر استه وإنما هو تطييب البدن.

إلى جانب رسول الله ﷺ.

ثُمّ إنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ حَفْنَةً مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ قُرَيْشًا بِهَا، ثُمّ قَالَ: «**شَاهَت الْوُجُوهُ**»، **ثُمّ نَفَحَهُمْ بِهَا**، فقدَّر الله تعالى أن تصيب الحصباء أعين المشركين جميعهم، وحمل المسلمون على المشركين وأخذوا يقتلون منهم ويأسرون، فلاذ المشركون بالفرار.

قُتِلَ من المشركين في تلك المعركة الجهادية سبعون نفرًا وأُسِر سبعون وَجُرِحَ سبعون، وَقُتِلَ من المسلمين ١٤ نفرًا، وقُتِلَ معظم رؤساء المشركين.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أن المسلمين كانوا يميلون إلى وقوع قافلة التجارة في أيديهم، ولكن الله أراد وقوع تلك المعركة وأن يصبح المسلمون أعزاء مرفوعي الرأس.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أن تلك المعركة أدَّت إلى انتصار الإسلام الأبدي وهزيمة الشرك والضلال، ولكنّ المسلمين كانوا خائفين لأنهم لم يكونوا يملكون العدة.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٩-١١].

الفوائد: حدثت الاستغاثة المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين نظر رسول الله ﷺ إلى قلّة المسلمين وكثرة المشركين فاستغاث ربّه وطلب منه النُّصرة.

والاستجابة المُشار إليها بجملة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ كانت بمجيء جبريل برفقة ثلاثة آلاف من الملائكة لنصرة المسلمين.

وقال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ دليلٌ

على أن الـملائكة كانوا في الواقع الصفات الحسنة للمسلمين من قبيل التوكل والطُّمأنينة والشهامة والشجاعة والأمان وأمثال ذلك (!).

والـمقصود من جملة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ تلك الليلة التي كان الـمسلمون فيها في بدرٍ فوق الرمال وكانت أقدامهم تغوص في الرّمل، فأنزل الله عليهم مطرًا وجعل الرمال صلبةً تحت أقدامهم، وسُرَّتْ أنفسُهم بذلك وتشجَّعوا بنُصرة الله، لأن الشيطان كان يُوسوس لهم ويقول: ليس لديكم ماء، والكفار لديهم أرض صلبة، فأرسل الله الـمطر وأزال عن الـمسلمين وساوس الشيطان.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [الأنفال: ١٢-١٤].

الفوائد: إحدى عِلل انتصار الـمسلمين يوم بدر، رغم قِلة عددهم وعُدّتهم وعدم امتلاكهم مالاً كافيًا، إيمانُهم وثباتُ أقدامهم، والعِلّة الأخرى كُفر الـمشركين وخوفهم كما قال تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

والـمقصود من قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيام الـملائكة بضرب الـمشركين على رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم في معركة بدر.

والـمقصود من ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ أي ذوقوا الأسر والقتل والجراحات في هذه الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: ١٥-١٨].

الفوائد: الله تعالى مُنزّه عن أعمال البشر، وأعمال البشر لا تُسند إليه، لكن الله نسب الـمُعجزات والأعمال الخارقة للعادة إلى ذاته فينبغي اليقين بأن الـمُعجزات عمل الله وخلقه ليشهد بصدق رسالة رُسُله، وكذلك لا إشكال في نِسبة الأعمال الأخرى إلى الله مثل نجاح العدد القليل بقتل العدد الكبير دون وسائل حربيّة، أو إلقاء قبضة من التراب أو الحصى وإصابتها أعين جميع الكفار، لأن مثل هذه الأعمال تمَّت بمددِ ملائكة الله وجنوده الـمأمورين، فلما كانت بمددٍ من الله قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ١٩-٢٣].

الفوائد: هل الخطاب بجملة ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ مُوَجَّهٌ إلى الكفَّار أم إلى الـمؤمنين؟ يبدو لنا أن الخطابَ مُوَجَّهٌ إلى الكفَّار، ولكن حتى لو قلنا إن الخطاب مُوجهٌ للمؤمنين فلا إشكال في ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ على وجوب الاستجابة لأوامر الله، وقد رُوِيَ أن رسول‌الله ﷺ مرَّ على أُبَيّ بن كعب وهو قائم يصلي، فصاح به فقال: تعالَ يا أُبَيّ، فَعَجَّل أُبَيّ في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله: «ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟ قال: كنتُ في الصلاة، قال: أليس يقول الله عزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ فقال أُبَيّ: لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبت وإن كنت مصلّيًا»[1].

والمقصود من جملة: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الدعوة إلى الجهاد أو مُطلق الدعوة سواءً للإسلام والإيمان أم للجهاد أم لسائر الخيرات التي يحيا قلب الإنسان بها وينجو من موت الكفر.

والمقصود من جملة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أن الله أقرب إلى قلب الإنسان من نفسه وأنه مُطلع على كل ما في قلبه وذهنه من تصورات وأفكار، والمعنى الآخر أن قلب الإنسان تحت تصرف الله يُقلّبه كيف يشاء، وبالطبع ذُكرت معانٍ أخرى للآية.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٦-٢٨].

الفوائد: المقصود من ﴿قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ أنكم يا مؤمني الحِجاز كنتم مغلوبين وضعفاء وأذلَّ من حولكم في الأرض وكانت حياتكم عسيرة وكنتم حُفاةً جائعين يضطهدكم الأقوياء، فَمَكَّنكم الله في الأرض وسخَّر لكم ممالك الدنيا.

والمقصود من ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ سبب الفتنة أو أن أموال الإنسان وأولاده امتحان له واختبار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

الفوائد: الفرقان قوةٌ تستطيعون بواسطتها التفريق بين الحقّ والباطل. ولما كان أكثر المسلمين في عصرنا لا يتّقون اللهَ فقد فقدوا قوة التمييز بين الحقّ والباطل. وقد سمّى الله تعالى

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٣/ ص ٣٤٤، وانظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٣ / ص ٤٦٧؛ وأخرجه بنحوه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث حسن صحيح . وأحمد بن حنبل في **المسند**: ٢ / ٤١٢ - ٤١٣؛ وقال المنذري: رواه ابن خزيمة وابن حبان في **صحيحيهما** والحاكم باختصار عن أبي هريرة عن أُبَيّ، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

معركة بدر بيوم الفرقان لأن الـمسلمين في ذلك اليوم امتازوا عن الـمجرمين واصطف الفريقان كلٌّ في مواجهة الآخر. ويُمكن أن نُفسّر الفرقان على معنى شرح الصدر والقوة الذهنية التي يُميز الإنسان بواسطتها بين الخير والشر. والفرقان في هذه الآية امتيازٌ يمنحه الله للمتقين يتميزون به عن أهل الأرض جميعهم.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

الفوائد: هذه الآيات تشير إلى حادثة دار الندوة التي كانت مجلسًا للتشاور في مكة يجتمع فيها الـملأ من أهلها للتشاور . وقد اجتمع نفرٌ من كبار قريش، بعد ١٣ سنة من البعثة، في دار الندوة، ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأيًا ونصحًا، قالوا: ادخل فدخل، فقال أحد الـمشركين: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدًا وتحبسوه في بيت، وتشدُّوا وثاقه، وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه، وتتربصوا به ريب الـمنون حتى يهلك فيه. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالوا: صدق الشيخ. فقال آخر: أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير تخرجوه من أظهركم فلا يضركم ما صنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال إبليس: ما هذا لكم برأي تعتمدون عليه، تعمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأَخْذِ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ. فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابًّا نسيبًا وسيطًا فتيًّا ثم يعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون

على حرب قريش كلها، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش ديته، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأيًا، القول ما قال لا أرى رأيًا غيره، فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له: تسيح ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨ -٩] ومضى إلى غار ثور هو وأبو بكر، فمكث فيه ثلاثًا، ثم قدم المدينة»[١].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣١-٣٣].

الفوائد: جملة: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ إشارة إلى كلام النضر بن الحارث المشرك، وذلك أنه كان يختلف تاجرًا إلى فارس فيسمع أخبار رستم واسفنديار وأحاديث العجم ككتاب كليلة ودمنة، فيأتي أهل مكة ويحكيها لهم بها، فلما سمع كلام النبي ﷺ والقرآن قال: إن كلام محمّد مثل هذه القصص التي أتيتكم بها، وما هي إلا أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا. وهو نفسه الذي قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأجاب الله عن كلامه بقوله: ما دمت يا محمَّد فيهم فإني لن أنزل العذاب عليهم.

١- البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٣/ ص ٣٤٩ - ٣٥٠، وانظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٣ / ص ٤٩٦ وما بعدها مع تعليق الشيخ محمود شاكر، والهيثمي، **مجمع الزوائد**، ج ٧ / ص ٢٧، والسيوطي، **الدر المنثور**، ج٤ / ص ٥١ - ٥٢..

[وحول هذا الـموضوع] قال الإمام عليٌّ عليه السلام في الكلمة ٨٨ من الكلمات القصار في نهج البلاغة: **«كَانَ فِي الأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ وقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أَمَّا الأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله)، وأَمَّا الأَمَانُ الْبَاقِي فَالاسْتِغْفَارُ قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]».

وهنا يجب أن نقول لأهل الخرافات الذين يدعون دعاء التوسُّل وَيتوسَّلون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو بالأئمَّة عليهم السلام: إنكم أيها المساكين لا تعلمون أن الله تعالى رفعَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأرض. فعليكم التوسُّل بالتوبة والتقوى والجهاد وأمثال هذه الأمور حتى تنالوا النجاة.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: ٣٤-٣٥].

الفوائد: الـمقصود من جملة: ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الإشارة إلى الحادثة التي وقعت في السنة السابعة للهجرة عندما انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه نحو مكة بقصد الحج[1] وجاء جيش الـمشركين إلى الحُديبية وصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن زيارة بيت الله الحرام، ومنعوا الـمسلمين من الدخول إلى مكة.

وضمير ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ في جملة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ إن كان يعود على الله، كان الـمعنى ما ذكرناه، لكن من الـممكن أن يعود الضمير على الـمسجد الحرام، فيكون الـمعنى عندئذٍ: ليس الـمشركون أولياء الـمسجد الحرام أي ليسوا مُتولّي أموره بل أولياؤه هم الـمتقون فقط ولا يجوز للمشركين أن يتولوا أمر الـمسجد الحرام لسببين: أولاً: لأنهم ليسوا أتقياء. وثانيًا: لأن في صلاتهم وعبادتهم نوعًا من السفاهة إذ كانوا يُصفّقون ويُصفّرون كما كان من عاداتهم أن يطوف النساء والرجال أحيانًا حول الكعبة دون لِباس الإحرام بل عُراةً وهم يُصفّقون ويُصفّرون.

١- وقعت هذه الرحلة نحو مكة ثم لقاء الـمشركين في الحُديبية، في السنة ٦ وليس ٧ للهجرة، وكان سفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأجل العمرة لا لأجل الحجّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٨].

الفوائد: تتعلّق جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ بأهل مكة الذين كانوا يُنفقون أموالهم للقضاء على الإسلام والمسلمين. وقد بيَّنت لنا التجارب أن أهل الباطل يُنفقون أموالهم لنُصرة باطلهم أما أهل الحقّ فليسوا كذلك! ففي زماننا يتم إنفاق الملايين على نشر الخرافات والأوهام والأباطيل المذهبية والبِدع، ولا يتم إنفاق الأموال لنشر التوحيد، إذْ يبخل أهل التوحيد في إنفاق أموالهم في هذا الصدد!

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أنه إذا أسلم الكافر أو المُرتدّ غفَرَ اللهُ له ما سلف من عمله، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام يجُبُّ ما قبله**».

والمُراد من جملة: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أن الله سيُعامل الكفار والمشركين زَمَنَ النبيِّ ﷺ بما عامل به كفار الأمم السابقة، كما قال تعالى بشأن تلك الأمم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١] وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣].

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٣٩-٤١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أنه طالما كانت

هناك فتنة للكفر في العالـم فلا بدّ من الجهاد وأن يكون الـمسلمون مستعدين له.

وجملة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ وتدل على أن الـمقصود من عبارة ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ هو غنائم الحرب. هذا ولما كانت الغنائم الحربية لا مالك لها قبل تقسيمها، قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ (ولم يقل وأعطوا) ولو كان لها مالك لوجب أن يقول: وآتوا خُمُسَهُ، وهذا دليل آخر على أن الخُمُس هنا ليس خُمْس الأرباح والـمكاسب، لأن للأرباح والـمكاسب مالكًا؛ وَمِنْ ثَمَّ كان يجب أن يُقال لمالكيها: **آتوا**. كما قال تعالى بشأن الزكاة: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تكررت في القرآن مرات عديدة، فهذه قرينة على أن الخُمْس هو خُمس غنائم الحرب فقط. هذا **أولاً**.

وثانيًا: يدل على ما ذكرناه عطف ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ على ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾. **ثالثًا**: كون سياق الآيات كله بشأن الحرب. **رابعًا**: ذيل الآية صريح بأن الأمر يتعلق بالقتال وغنائم الحرب إذ جاء فيه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾. **خامسًا**: الآية اللاحقة التي قال تعالى فيها: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وسيأتي التعليق عليها. **سادسًا**: كل موضع في القرآن جاءت فيه كلمة ﴿غَنِمۡتُم﴾ أو كلمة ﴿مَغَانِمَ﴾ كانت متعلقة بالغنائم الحربية.

فالعجيب أنه مع كل هذه القرائن والسياق وصراحة الآية، يُصِرُّ مُدَّعو العلم والدين على تعميم الخُمْس ليشمل كل ما يغنمه الإنسان أي جميع أرباح الـمكاسب، هذا مع أن رسول الله ﷺ وأمير الـمؤمنين عليًّا عليه السلام لم يأخذا الخُمْس من أرباح الـمكاسب إطلاقًا! ولو كانت الغنائم عامة لوجب عليهما أن يعملا بهذا الأمر ويأخذا هذا الخُمْس من الناس.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ [الأنفال: ٤٢].

الفوائد: يُبيّن الحقُّ تعالى في هذه الآية اليومَ الذي كانت تلك الغنائم متعلقة به، ويمنُّ على الـمسلمين قائلاً: اذكروا لما كنتم في الوادي القريب إلى الـماء والأدنى إلى الـمدينة وكان الكفار في

ذلك الطرف من بدر البعيد عن المدينة.

والمقصود من جملة: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أن المسلمين -بسبب ضعفهم وقلة عددهم- لو عيّنوا موعدًا للحرب لاختلفوا في تعيينه وفي الحضور فيه وعدم الحضور.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أن الله تعالى أرى رسوله ﷺ في المنام عدد جيش الكفار قليلاً ولولا ذلك لقصَّر رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين في الإقدام على الحرب والقتال، وكذلك طبقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ كان جيش المسلمين يوم بدر يظنّون الكفار قليلي العدد وكذلك الكفار يظنّون المسلمين قليلي العدد، وذلك لكي يستبسل الطرفان في القتال. أي أن الله تعالى جعل كل طرف يبدو قليلاً في نظر الطرف الآخر كي تقع الحرب.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٦-٤٨].

الفوائد: خرج جيش المشركين من مكة بالأسلحة والعتاد أَشرًا وبطرًا ولهوًا وطربًا وتفاخرًا، أما جيش المسلمين فخرج لأجل الجهاد في سبيل الله. كان جيش الكفار خائفًا مرعوبًا

من محمد ﷺ رغم أنهم كانوا متفوقين على جيش المسلمين من كل ناحية من النواحي [المادية]، وسبب خوف الكفار ورعبهم من المسلمين ما رأوه من تقدم محمد ﷺ في الأمور، كما أن المشركين خافوا من بني بكر بن كِنانة الذين كانوا على طريقهم لأن المشركين كانوا قد قتلوا منهم واحدًا فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصوَّر إبليس لمشركي مكة بصورة سُراقة بن مالك من أشراف بني كِنانة وقال: إني مُجيركم من شرِّ طائفتي من بني كِنانة، فقوّى هذا قلوبَهم على القتال وطمأنَهم من خوفهم، ولكن عندما وقعت المعركة لاذ الشيطان بالفرار وكان ذلك سببًا لهزيمة المشركين في بدر وحينها قال لهم الشيطان: إني أرى ما لا ترون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٤٩-٥١].

الفوائد: لما كان المُنافقون والكفار يرون جُرأة المؤمنين -الذين أُخرجوا من ديارهم- في الإقدام على الحرب والجهاد كانوا يقولون: إن هؤلاء القوم ليس لديهم أموال ولا أسلحة ولا رجال فهم مُغترّون بأنفسهم قد غرّهم دينهم وخدعهم محمّد (ﷺ) فجعلهم يسعون إلى قتل أنفسهم!

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٢-٥٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أنه ما لم يُغيّر الناس أنفسَهم فإن الله لا يُغيّر نِعَمَهُ التي أنعمها عليهم ولا يحرمهم منها. وما لم يُرد شعبٌ ما شيئًا فإن الله لن يُعطيه هذا الشيء، فإذا لم يعرف شعبٌ ما قيمة العقل وقيمة ما منحه الله إياه من طاقات بل صرف عقله

وطاقاته في الشهوات والأهواء، ابتلاه الله تعالى بآثار الهوى والشهوات، أما إذا صرف الشعب عقله وطاقاته في العلم والهداية والصناعة أعطاه الله نصيبه مما سعى لأجله. وهذه الآية ردٌّ على الذين أعرضوا عن نِعم العقل والهداية واعتقدوا أنه لا بدّ أن يُحدث الله التغيير والإصلاح في الأمَّة بواسطة مدده الغيبيّ وإرسال إمامٍ [أي المهديّ المنتظر] يُصلح شأن الناس ويُغيّر حالهم بالقهر والقوة، وهكذا غرّوا الناس بتلك الوعود المكذوبة وجعلوهم ينتظرونها بلا طائل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أن الناس هلكوا بسبب الظلم. اللهم أهلك الظالمين فقد طغت فتنتهم وكَثُرَ شرُّهم ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت فادفعهم ياقهّار.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال:٥٥-٥٩].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أي نكِّل بهؤلاء الكفار المحاربين لك وعذِّبهُم على نحوٍ يجعل الكفار الذين من ورائهم يخافون ولا يفكّرون في محاربتكم وفتنتكم عن دينكم.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ...﴾ أنه إذا ظهرت لإمام المسلمين علامات نقض الكفار لعهدهم، فعليه أي ينبذ إليهم عهدهم أي يعلن لهم انتهاء ذلك العهد.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

الفوائد: يجب على المسلمين أن يعدُّوا أقصى ما يستطيعونه من عدد الحرب والقتال. وتدلُّ

جملة: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ...﴾ أنه كان هناك أعداء للرسول ﷺ غير الكفار الذين كانوا يحاربونه، وأن الرسول ﷺ لم يكن يعلمهم. فليأْتِ الذين يقولون: إن العبد الصالح الفلاني يعلم كل شيء وليقرؤوا هذه الآية وليتوبوا من غُلُوِّهِمْ!

﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦١-٦٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أن رسول الله ﷺ ليس له قدرة تكوينية مؤثِّرة في الكائنات، وأن الله تعالى وحده مقلِّب القلوب والـمؤثِّر في الكائنات والـمكوِّن لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: ٦٤-٦٦].

الفوائد: كان الحكم الإلـهي في أوائل الهجرة يوجب على كل نفر من الـمؤمنين أن يقاوم عشرة أشخاص من الكافرين، فضجَّ الـمؤمنون من ذلك وشقَّ عليهم، فلمّا زاد الـمسلمون خفَّف اللهُ عليهم الأمر، وأصبح على الـمسلم الواحد أن يقاوم شخصين من الكفار. وليس هذا بالنسخ، بل هو فقدان الشرط، لأن شرط الـمقاومة والصمود هو العلم والـمعرفة، ولما لم يكن لهم العلم والـمعرفة الـمطلوبة فُقِدَ الشرطُ فزال الـمشروط، وأصبح على الـمسلم أن يقاوم [ويصبر على قتال] شخصين.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾
[الأنفال: ٦٧-٦٩].

الفوائد: بعد أن أسر المسلمون سبعين أسيرًا في معركة بدر، استشار النبيُّ ﷺ أصحابه بشأنهم، فقال أبو بكر: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم الفدية وحرِّرْهُم. وقال عمر: كذَّبوكَ وأخرجوكَ فقدِّمْهُم واضرب أعناقهم. ومال رسول الله ﷺ إلى قول أبي بكر، وتقرَّرَ أن يعطي كلُّ أسير فديةً ليُطْلَقَ سراحُهُ من الأسر. فنزل جبريل بهذه الآيات. وَيَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أن أسر الأسرى ومفاداتهم بالفداء لم يكن مما أَذِنَ اللهُ به، ولذلك نزل قوله سبحانه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: ٧٠-٧١].

الفوائد:

لما أخذ رسول الله ﷺ الفداء من أسرى معركة بدر، وشقَّ عليهم أخذ أموالهم منهم، أنزل الله هذه الآية استمالةً لقلوب الأسرى. وكان من بين الأسرى العباس عمُّ النبيِّ ﷺ وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب [ابنا عمِّ النبيّ ﷺ]. فلما تقرَّر أن يعطي كلُّ أسير فديةً ليُحرِّر نفسَه من الأسر، كان عقيل ونوفل لا يملكان شيئًا، أما العباس فكان معه عشرون أوقية من الذهب، وهي تعادل حوالي ١٢٠ دينارًا، كان قد أخرجها معه ليطعم بها الناس -أي جيش الكفار- إذْ كان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فكان على كل واحد منهم، في اليوم الذي يأتي فيه دوره، أن ينفق على إطعام الجيش ويذبح عشرًا من الإبل، فلم يصل الدور إلى العبَّاس حتى أُسِرَ، فقال العباسُ للنبيّ ﷺ: كنت مسلمًا إلا أنهم أكرهوني. فقال ﷺ: «إن يكن ما تذكره حقًا فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا». قال العباس: فكلمتُ رسول الله أن يردَّ ذلك الذهب عليَّ، فقال ﷺ: «أما شيءٌ خرجتَ لتستعين به علينا فلا»، قال وكلَّفني الرسولُ فداء ابن

أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحارث. فقال العباس: «تركتني يا محمد أتكفف قريشًا»!. قال رسول الله ﷺ: «أين الذهب الذي دفعتَهُ إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني فإن حدث بي حادث فهو لكِ ولعبدِ الله وعبيد الله والفضل؟». فقال العباس وما يدريك؟ قال ﷺ: «أخبرني به ربي». قال العباس فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، واللهِ لم يطَّلِعْ عليه أحدٌ إلا الله، ولقد دفعتُهُ إليها في سواد الليل ولقد كنتُ مرتابًا في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس: فأبدلني الله خيرًا من ذلك وأصبح صاحب ثروة كبيرة، طبقًا لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾[1].

والـمقصود من جملة ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أنه عندما كان يتم إطلاق سراح الأسرى بعد دفعهم الفدية، كان عليهم – طبقًا للعادة الجارية – أن يتعهدوا بعدم العودة إلى محاربة الرسول ﷺ وأن لا يعاهدوا الـمشركين على حرب الـمسلمين، وكان الأسرى يعطون هذا العهد. فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ....﴾ الآية. أي إن كانوا ينوون نكثَ هذا العهد وعدم الوفاء به، فلا تقلق لذلك فإن اللهَ سيُمَكِّنُكَ منهم ثانيةً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾ [الأنفال: ٧٢].

الفوائد: اعلم أنه تعالى قسّم الـمؤمنين في زمان رسول الله ﷺ إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الـمهاجرون الأولون: هؤلاء هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، [وقد وصفهم بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾] فهم موصوفون بهذه الصفات الأربعة: أولها أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه

١ – مستفاد كله من: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ذيل تفسير الآية الـمذكورة من سورة الأنفال.

ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلَّغها محمَّدٌ ﷺ ولم يتمرَّدوا. والصفة الثانية: أنهم فارقوا الأوطان وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة قال تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦] فجعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس. والصفة الثالثة: أنهم كانوا ينفقون من أموالهم في كل غزوة من الغزوات بل كانوا يُقْدِمون على محاربة المشركين من غير آلة ولا أهبة ولا عدة كما فعلوا يوم بدر [وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله]. وأما الصفة الرابعة: فهي أنهم كانوا أول الناس إقدامًا على هذه الأفعال والتزامًا لهذه الأحوال ولهذه السابقة أثر عظيم في تقوية الدين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠]. ووصفهم في آية أخرى بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] إلى آخر الآيات، وإنما كان السبق موجبًا للفضيلة لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم من المسلمين بهم إلى يوم القيامة.

وأما القسم الثاني من المؤمنين الموجودين في زمان رسول الله ﷺ: فهم الأنصار وذلك لأنه عليه السلام لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال في خدمة رسول الله ﷺ وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود البتة، ويجب أن يكون حال المهاجرين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار لوجوه أولها: أنهم هم السابقون في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب، وثانيها: أنهم تحملوا العناء والمشقة دهرًا دهيرًا وزمانًا مديدًا من كفار قريش وصبروا عليه وهذه الحال ما حصلت للأنصار. وثالثها: أنهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران ولم يحصل ذلك للأنصار.

القسم الثالث: هم المؤمنون الذين ما وافقوا الرسول في الهجرة وبقوا في مكة.

القسم الرابع: هم الذين لم يوافقوا الرسول في الهجرة إلا أنهم بعد ذلك هاجروا إليه، وهم المرادون من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾(١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: ٧٣-٧٥].

الفوائد: أخذنا كلمة ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ (بفتح الواو) على معنى المحبّة. لكن بعض المُفسّرين فسّر الولاية هنا على معنى مُخالف للظاهر وهو الإمارة والرئاسة والقيّومية، أو فسّرها على معنى ولاية الإرث.

ومعنى جملة ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ أي: أيها المؤمنون إن لم تعملوا بما ذُكر من الهجرة والوَلاية والتعاون والبراءة من الكفار فإن الفتنة والفساد في الأرض سيحُلّان بكم ولن يشتدّ أمركم وتُصبحوا كثرةً قوية بسبب التفرق وقِلّة العدد والضعف وَمِنْ ثَمَّ فلن يرغب بكم الآخرون ولن ينضموا إليكم.

والمُراد من: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ الذين هاجروا بعد نزول هذه الآيات وجاهدوا مع سائر المهاجرين والأنصار، فهؤلاء أيضًا يُعتَبرون من جملة المهاجرين.

ومعنى جمية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أن الأقرباء مُقدَّمون في الإرث على الآخرين وأن الأقرباء يرث بعضهم بعضًا. أمّا قبل نزول هذه الآية فكان الإرث على أساس الأخوّة الإيمانيّة، أي المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين

١- مستفاد كلُّهُ من: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ذيل تفسير الآية المذكورة من سورة الأنفال.

والأنصار، إذْ كان عدد المؤمنين قليلاً فكان الأخ يرث أخاه في الإيمان، ولكن لما ازداد عدد المسلمين أُقِرَّ الإرثُ على أساس القرابة.

سورة التوبة

مدنيّة وهي مئة وتسع وعشرون آية

لا نجد في بداية هذه السورة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فقالوا: إن هذه السورة كانت مع سورة الأنفال التي قبلها سورة واحدة. وقال آخرون: إن هذه السورة نزلت برفع الأمان عن المشركين وقتلهم وعذابهم لا برحمتهم.

وتُعدّ هذه السورة بانضمام سورة الأنفال إليها من السور الطوال. ولم يأمر رسول الله ﷺ بوضع ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوّلها.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة: ١-٤].

الفوائد: كلمة ﴿بَرَآءَةٞ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره «هَٰذَا». ويُمكن أن نعتبرها مبتدأ ونعتبر أن خبرها جملة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾.

اعلم أن فتح مكة كان سنة ثمان من هجرة رسول الله ﷺ، وكان الأميرُ فيها عَتَّاب بنَ أَسِيْدٍ، ونزول هذه السورة سنة تسع، وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر سنة تسع أن يكون أميرًا على الحج

وقال له: اقرأ هذه الآيات على الناس في موسم الحج، فلمّا انطلق أبو بكر نحو مكة نزلت هذه السورة، فأمر رسول الله ﷺ عليًّا أن يذهب إلى أهل الـموسم ليقرأها عليهم. فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: «**لا يؤدِّي عَنِّي إلا رجلٌ مِنِّي**»، فلما دنا عليٌّ سمع أبو بكر الرّغاء، فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، ثم ساروا، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدَّثهم عن مناسكهم، لأنه كان أميرًا على الحج. وقام عليٌّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس! إني رسولُ رسولِ اللهِ إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم هذه الآيات من سورة براءة، ثم قال: **أُمِرْتُ بأربع: لا يطوفَنَّ بالبيت عريان، ولا يحجَّنَّ البيتَ مشركٌ بعد عامهم هذا، وَمَنْ كانت له مدَّةٌ فهو إلى مدَّتُهُ، وَمَنْ لم يكن له مُدَّةٌ فمُدَّتُهُ أربعةُ أشهر.**[١]

لما كانت النساء الـمشركات يأتين البيت قبل نزول هذه الآيات ويطفن بالكعبة عاريات، ولما ذهب رسول الله ﷺ في السنة السادسة للهجرة مع أصحابه إلى مكة بقصد العُمرة ووصل إلى

١- قال الخازن: «قد يتوهم متوهم أن في بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة، عزل أبي بكر عن الإمارة وتفضيله على أبي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم. ويدل على أن أبا بكر لم يزل أميرًا على الموسم في تلك السنة أول حديث أبي هريرة المتقدم [كما في الصحيحين] أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَهُ، فِي الحَجَّةِ الَّتِي أَمَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، يَوْمَ النَّحْرِ فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُ فِي النَّاسِ.... » الحديث. وفي لفظ أبو داود والنسائي قال: «بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ....». فقوله: «بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ» فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الأمير على الناس وهو الذي أقام للناس حجهم وعلَّمهم مناسكهم.

وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ليؤذن في الناس بـ«براءة» بأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لأنه ابن عمه ومن رهطه، فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة إزاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها». (تفسير الخازن (ج٢/ ص ٣٣٥)). [الـمُصحح]

الحُديبية فمنعه أهل مكة هناك من دخولها وعقد رسول الله ﷺ معهم صُلحًا يقضي بالهدنة وعدم تعرّض المشركين للمسلمين ولا المسلمين للمشركين بشروط سيأتي توضيحها في محلّها، ثم لَمْ يفِ المشركون بعهدهم بل نقضوه وقاموا مع حُلفائهم من بني بكر المشركين بمُهاجمة قبيلة خُزاعة الذين كانوا حلفاء رسول الله ﷺ وقتلوا منهم جماعة، فجاءت خُزاعة إلى رسول الله ﷺ تشتكي إليه ما حلّ بها وأخبروه عن نقض المشركين لعهدهم، بعد كل تلك الوقائع تقرَّر في السنة التاسعة للهجرة -طبقًا لسورة براءة- إبلاغ المشركين جميعًا بأن الذين نقضوا عهدهم فلهم مهلة حتى أربعة أشهر، إما أن يُسلموا خلالها أو يُقاتَلُوا ويُقْتَلوا. وأما الذين لم ينقضوا عهدهم وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ وميثاقٌ فقد أُمهلوا حتى انتهاء مدَّة عهدهم. وبعد ذلك الإمهال لن يبقى هناك أمان وعلاقات بين المشركين والمسلمين، وعليهم إما أن يُسلموا أو يتعرّضوا للقتل، وهذا معنى براءة الله ورسوله ﷺ منهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٥-٦].

الفوائد: المراد من الأشهر الحُرُم تلك الأشهر الأربعة التي أمهلهم الله حتى نهايتها أي: من العاشر من ذي الحِجة إلى التاسع من شهر ربيع الأول، وهناك قول آخر أن المراد من بداية شهر شوال حتى آخر شهر مُحرّم.

وَيَتَبَيَّنُ من هذه الآيات قُبحُ نقض العهد، إذ إن المشركين علاوةً على شركهم وإيذائهم للمسلمين كانوا ينقضون عهودهم مرَّةً بعد مرَّة لذا حكم الله عليهم بهذا العقاب والعذاب، ولم يأتِ مثل هذا الأمر الإلهيّ تجاه سائر الكفار.

ويُستفاد من جملة ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أنهم كانوا يفهمون القرآن وأن القرآن قابل للفهم مِنْ قِبَل جميع الناس وإلا لما أمكن أن يهتدوا به.

ومعنى جملة ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي سُدُّوا الطُّرُق عليهم كي لا ينتشروا في البلاد.

جاء في الحديث أنه منذ صدر الإسلام وحتى وفاة رسول الله ﷺ كان حكم [أسرى] المشركين: أحيانًا القتل وأحيانًا المنّ عليهم والعفو عنهم [بلا مقابل] وأحيانًا أخذ الفداء منهم. ومما يؤيد هذا الأمر أن أصحاب النبيّ أتوا مرّةً بأسير إلى رسول الله ﷺ يُدْعى: «ثُمامَةُ بْنُ أُثالٍ» وكان سيدَ أهلِ اليمامةِ وعظيمَهم، فقال له رسول الله ﷺ: «أَسْلِمْ يا ثُمامَةُ أو اشترِ نفسك، وإلا قتلتُكَ أو حرَّرْتُكَ» فقال: يا محمد! إن تقتلني تقتل ذا كَرَم، وإن تأخذ الفدية تأخذها من عظيم، وإن تُطْلِق سراحي تُطْلق سراح عظيم، أما إسلامي فبعيد. فقال رسول الله ﷺ: «لقد عفوتُ عنك وأطلقتُك يا ثمامة». فلما سمع ثمامةُ بذلك قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. حُسْنُ خُلُقك دليل على نبوّتك. فرجع إلى اليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وقال: لن أدع الطعام يصل إلى المشركين [أهل مكة] حتى يؤمنوا، وكان أهل مكة حينذاك محاربين لرسول الله ﷺ فضاق عليهم الأمر ووقعوا في الشدَّة، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وشكوا إليه منع ثمامة حمل الطعام إليهم، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ أَنْ لا يمنع الطعام عن أهل مكة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة: ٧-٨].

الفوائد: نفى الله أي ثقة بعهد من كانوا ينقضون عهودهم مرّةً بعد مرّةٍ، ولم يُوَثّق إلا عهد من ثبتوا على عهدهم ولم ينكثوا ولم ينقضوا. وتذكر التواريخ أن الذين وفوا بعهدهم مع رسول الله ﷺ كانوا: قبيلة خُزاعة وقبيلة بني ضمرة.

جاء في التاريخ أن جماعةً من الخوارج كانوا يقومون بقطع الطريق وقتل المسلمين بحجة أنهم يتحاكمون إلى غير الله. وحدثَ مرّةً أن أبا الهذيل العلاف كان في قافلة فوقعت بيد الخوارج فخاف أهل القافلة منهم خوفًا شديدًا وأيقنوا بالهلاك. فقال أبو الهذيل لهم: لا تخافوا واتركوا

أمرهم لي، وسأدفع شرهم عنَّا. فجاء الخوارج وسألوا أهل القافلة: من أنتم؟ ومن أي قوم أنتم؟ فقال الهذيل: نحن مشركون خرجنا للتجارة وقصدنا من هذه الرحلة أن نسمع كلام الله ونتدبره فإن وجدناه حسنًا آمنًّا به. فرحَّب بهم الخوارج وتَلَوْا عليهم آياتٍ من كتاب الله. فقال أبو الهذيل وأصحابه: آمنَّا وصدَّقنا. فقال الخوارج لهم: ابقوا في جوارنا. قالوا: بل أنتم أدُّوا إلينا حقَّنا. فقال الخوارج: وما حقُّكم؟ فقال أبو الهذيل: حقُّنا أن توصلونا إلى مكان آمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ..﴾ [التوبة: ٦]. فأوصلهم الخوارج إلى مكان آمن!

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [التوبة:٩-١٣].

الفوائد: عَدَّدَ اللهُ تعالى صفاتِ المشركين ليُوقظ المؤمنين ويُنبِّههم إلى عدم الثقة بالمشركين، أولاً: لأنهم يُهملون آيات الله ويتجاهلونها لأجل متاع قليل من الدنيا، فيُرجِّحون دَرَاهِمَ معدودة على العقل والعلم والوحي. **ثانيًا**: إذا انتصروا عليكم لم يُراعوا فيكم أَيْمَانَهُم ولا القرابة ولا المواثيق التي بينهم وبينكم. **ثالثًا**: عادتهم الاعتداء والتعدّي على الآخرين. **رابعًا**: أن التجربة أثبتت أنهم عندما يُصبحون أقوياء يرتكبون مظالم كثيرة، فمن ذلك أنهم اتحدوا على قتل رسول الله ﷺ وأجبروه على ترك مكة والهجرة عنها، كما كان اليهود قد صمَّموا على فعل الأمر ذاته بحقّ النبيّ. وقالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨][1].

وتشمل جملة ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ المشركين والكفار معًا، وهي دليلٌ على أن الكفار

---

١ - الذي قال ذلك هو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول زعيم المنافقين بالمدينة. [المُصحح]

والـمشركين لا يتَّبعون العقل والـمنطق.

يقول كاتب هذه السطور: وهذا يُطابق تمامًا ما يفعله الـمُتعصّبون الخُرافيون في زماننا، إذ عندما يمتلكون القوة والقدرة يُقدمون على ضرب مُخالفيهم وقتلهم، وبعض الدُّعاة الطائفيين الذين لا يمتلكون القوة والقدرة ينصرفون إلى التكفير واللعن. وكلُّ من أظهر حقًا ابْتُلي بمثل هؤلاء الـمُتعصّبين وعانى منهم.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: ١٤-١٦].

الفوائد: كانت قلوبُ الـمسلمين في صدر الإسلام مليئةً بالحنق والغيظ من الـمشركين بسبب ما لاقوه على أيديهم من أذىً وعذاب، لكن الله لم يأذن لهم حينذاك بالجهاد لِقلّة عددهم، فلما أصبح عددهم كافيًا أمرهم الله بالجهاد، وشفى الله قلوبَ الـمؤمنين ببركة سيوف الـمجاهدين وعذّب الكُفَّار والـمشركين.

والـمُراد من جملة: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أن علم الباري تعالى لم يتحقق في الخارج بعد، رغم أن اللهَ يعلم كلَّ شيء منذ الأزل، ولكن ما لم تُظهروا تضحياتكم وإخلاصكم لن يظهر مضمون علم الله الأزليّ.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: ١٧-١٨].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآيات أن الذين يَتَوَلّون أمور الـمساجد لا بدّ أن يكونوا أشخاصًا مؤمنين بعيدين عن الخرافات، وجميع أعمال الذين ليس عندهم توحيد حقيقيّ هباءٌ منثورٌ، فعلى

من يعمر مساجد الله أن لا يخاف إلا الله وأن يكون ممن لا تأخذه في الله والحق لومة لائم. وللأسف فإن الذين يتولون أمور الـمساجد والـمجالس الدينية في زماننا حفنةٌ من عُبّاد الهوى، لذلك لوّثوا كل التبليغات الدينية بالشرك والخرافات.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن الـمشركين على جميع أنواعهم -حتى لو تسمّى بعضهم باسم الإسلام-، لا يحقّ لهم التدخّل في أمور إدارة الـمساجد، سواءً كان الـمشركون عليّ اللهيين (فرقة من الـمؤلّهين لعليّ) أم من الشيخية أم من سائر الغُلاة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أن الـمسلم الـمُوَحِّد الجامع لشروط الإيمان يجب أن يأمل بهداية الله ورحمته ويبتعد عن الغرور. قال الشاعر: [شعر بالفارسية]

لا تغترَّ بالعلم والعمل لأن إبليس طُرِد من محضر العِزّة لهذا السبب

﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

الفوائد: كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا حديثًا يفتخرون بأعمالهم وأفعالهم وألقابهم، من ذلك عمُّ رسول الله ﷺ الذي كان يفتخر بتولِّيهِ سِقايةَ الحُجّاج، وطلحة بن شيبة الذي كان يقول: أنا صاحب البيت الذي أعمره وبيدي مفاتيحه، وكانوا يفتخرون بهذه الأمور أمام عليٍّ عليه السلام فقال لهم: إن الفضيلة هي الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيله، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ ليقضي بينهم، فلم يقل ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ

كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

الفوائد: في صدر الإسلام، كان عَلَى من يعتنق الإسلام ويؤمن بالله الأحد -كما هو الحال في زماننا- أن يقطع علاقة المودة والملاطفة بينه وبين أقربائه وذويه من الكفار. وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا يجد أحدكم طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ فِي اللهِ أبعد النَّاس مِنْهُ وَيبغضَ فِي اللهِ أقربَ النَّاسِ إِلَيْهِ**»[١].

ومعنى جملة: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ مجيء عذاب الله.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

الفوائد: طبقًا لهذه الآيات نَصَرَ اللهُ رَسُولَه ﷺ في مواطن كثيرة. وذُكِرَ أن المواطن التي نصر الله فيها رسوله ﷺ بلغت ثمانين موطنًا. والمقصود من يوم حُنين يوم معركة حُنين. وحُنين أرض بين مكة والطائف وقعت فيها تلك المعركة وقصتها أنه بعد فتح مكة تهيّأت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف وكان عدد أفرادهما أربعة آلاف رجل وانضمّ إليهما ٢٦ ألف رجل آخر من قبائل أخرى فأصبح مجموعهم ثلاثين ألفًا، تهيّؤوا واستعدُّوا لمُحاربة رسول الله ﷺ، وكان عددُ جيش الإسلام اثني عشر ألفًا أو ستةَ عشر ألف رجل، وقال بعض المسلمين يومها: «**لن نُغلب**

١- ورد بهذا المعنى أحاديث صحيحة، منها ما رواه البخاري في صحيحه (حديث رقم ١٦) بلفظ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ...... الحديث». وروى ابنُ أبي شيبةَ في المصنَّف (٣٥٩١٥) عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أَحِبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغِض فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، لَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ».

اليوم من قِلّة»، ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

فلما التقى الجمعان وانتصر المسلمون في بداية الأمر وهَزَموا المشركين، وانصرف المسلمون إلى أخذ الغنائم.

وكان المشركون قد أتوا معهم بنسائهم وحيواناتهم كي لا يفِرُّوا بل يستميتوا في القتال دفاعًا عن ذراريهم وأموالهم، فثارت حميَّتهم ونادى بعضهم بعضًا: **يا حُماةَ السوء!** أين تفرُّون وتتركون نساءكم وذراريكم؟؟ فرجعوا جميعًا وكمنوا للمسلمين، وانقضُّوا عليهم بنبالهم فاضطرب أمر المسلمين ولاذوا بالفرار وانهزموا هزيمةً نكراء، ولم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلا تِسْعَةُ نَفرٍ مِنْ بني هاشم، وشخصٌ من الأنصار باسم أيمن بن أم أيمن، ثَبَتَ وقُتِلَ في تلك المعركة. وكان الأفراد التسعة هم: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَنَوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، والزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعُتْبَةُ وَمُعَتَّبُ ابْنَا أَبِي لَهَبٍ، وفرَّ الباقون. وعلَّة ذلك الفرار كانت أنه: «لَـمَّا ظَهَرَ بياض الفَجْرِ اسْتَقْبَلَ المسْلِمُونَ وَادِيَ حُنَيْنٍ وانْحَدَرْوا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ أَجْوَفَ حَطُوطٍ فانحدروا فِيهِ انْحِدَارًا فِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ، وَكَانَ المشركون قَدْ سَبَقُوهم إِلَى الْوَادِي فَكَمَنُوا فِي شِعَابِهِ وَأَجْنَابِهِ وَمَضَايِقِهِ قَدْ أَجْمَعُوا وَتَهَيَّئُوا وَأَعَدُّوا، فلما هبط المسلمون في الوادي انقضَّت عليهم كَتَائِبُ هوازن وشدُّوا عليهم كرَجُلٍ وَاحِدٍ يرمونهم بالنبال، فانهزمت مقدمة جيش المسلمين التي كانت كتيبة خالد بن الوليد وكانوا حُسَّرًا ليس عليهم سلاح أو كثيرُ سلاح، وتبعهم حديثو العهد بالإسلام من مشركي قريش سابقًا، فاضطرب أمر المسلمين عندئذٍ وانهزموا. وكان رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، فكان يصيح فيهم قائلاً: «**إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ [هَلُمَّ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ]**». فحرَّك النبيُّ ﷺ بغلته وحمل على صفوف الكفّار، وأخذ يرتجز مع العدد القليل الذين بقوا معه، ولم يرتجز سوى في هذه المعركة، فكان يقول: «**أَنَا النّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبْ**».

وفي هذه المعركة قَتَلَ أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام كثيرًا من شجعان المشركين، منهم رجلٌ من

هوازن يُدعى «**أبو جَرْوَل**» كان على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل يجول فيه أمام القوم، فإذا أدرك ظفرًا من المسلمين أكبَّ عليهم وقتلهم، وإذا فاته الناس رفع اللواء لمن وراءه من المشركين فاتَّبعوه وهو يرتجز ويقول:

أنـــا أبـــو جـــرول لا بـــراح حتـــى نبـــيح القـــوم أو نُبـــاح

فحمل عليه أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام فقتله. فلما قُتِلَ **أبو جَرْوَل** لم يعد المشركون قادرين على المقاومة وانهزموا. وكان العباس ذا صوت جهوري مرتفع، فكان ينادي: «**يا أصحاب بيعة الشجرة!**»، فالتأم الناسُ واصطفُّوا للعدوّ. وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله قبضةً من تراب الأرض ثم استقبل بها وجوهَ المشركين ورماها وقال: «**شاهت الوجوه**» [فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة]، فوَلَّوْا مدبرين.

ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الله تعالى أنزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وقلوب المؤمنين السكينة والاطمئنان على نحو جعلهم لا يخافون من المشركين ويثبتوا أمامهم فحملوا بأنفسهم مرتين عليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**الآن حمي الوطيس**»، وكان يتضرّع إلى ربه في تلك الحالة ويقول: «**اللّهُمَّ لك الحمدُ وإليك المشتكى، وأنت المستعان**».

والمراد من ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إنزالُ اللهِ الصبرَ والثباتَ والاستقامةَ والطُّمأنينةَ والجرأةَ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وعلى سائرِ المسلمينَ، وقد قُتل في تلك المعركة كثيرٌ من الكفَّار وأُسِر ستة آلاف نفر من الرجال والنساء وأولادهم وغنم المسلمون ٢٤ ألف جمل وأربعة آلاف بقرة وأكثر من أربعين ألف شاة، ولما هُزم المشركون نادى مُنادي رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تقتلوا الأسرى، ولا تقربوا النساء.

فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً من الأشعريين يُقال له أبو عامر وأمَّرَه على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وهزم الله المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري،

فأتى الطائف فتحصَّنَ بها وانضم إليه بقية الـمشركين.

ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى **الجعرانة** فأحرم منها بعمرة وقسَّم فيها غنائم حُنين وأوطاس، وتألف أناسًا، منهم أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمية والحارث بن هشام وعبدالله بن أُمية ومعاوية بن أبي سُفيان وهشام بن الـمغيرة والأقرع بن حابس وأمثالهم فأعطاهم ما بين خَمْسِينَ إلى مئَةٍ مِنْ الْإِبِلِ. ولم يُعطِ الأنصار إلا نذرًا يسيرًا أي أقل مما أعطاه للمهاجرين، فحزن الأنصار وقال بعضهم لبعض: «**أعطى الغنائم كلها لقومه وحرمنا!**»، وقال بعضهم: نحن ضربنا بسيوفنا، والكافرون أخذوا الغنيمة. وقال بعضهم: عندما أصبح رسول الله ﷺ قويًا لم تعد له حاجةٌ بنا لذا لم يعطنا شيئًا. فلما وصلت تلك الأقاويل إلى رسول الله ﷺ أمر بأن يجتمع إليه جميع الأنصار، ومُنِع الآخرون من الـمجيء إلى ذلك الـمجلس، فأتاهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «يا معشر الأنصار! إني سائلكم فأجيبوني. قالوا: قل يا رسول الله! فقال ﷺ: أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بي؟ قالوا: بلى، لِلَّهِ الْـمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ. فقال: وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله منها بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ألم آتكم قِلَّةً متفرقين فجعلكم اللهُ كثرةً أقوياء بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، لِلَّهِ الْـمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ. فقال: ألم آتكم أعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فسكت النبيُّ ﷺ هُنَيْهةً ثم قال: إن شئتم أجبتموني وقلتم: أَتَيْتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وعائلاً فأغنيناك [أو فَوَاسَيْنَاكَ]، وخائفًا فآمنَّاكَ، وَمُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، [وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ]، فلمَّا سمع الأنصار تلك الكلمات من رسول الله ﷺ بَكَوْا حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وارتفعت إليه أصواتهم وقام إليه شيوخهم فقبَّلوا يديه ورجليه وركبتيه وقالوا: رضينا عن الله وعن رسوله، وهذه أموالنا أيضًا بين يديك فاقسمها بين قومك إن شئت. وقالوا: لقد ظنَّ شبابُنا الذين قالوا تلك الكلمات التي أساؤوا فيها الأدب أن قلّة نصيبهم من الغنائم كان سببها عدم اكتراثك بهم وبمنزلتهم، والآن قد تابوا من ذنبهم فاستغفر لهم يا رسول الله! فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء وقال: «**اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار**»، وقال: «**يا معشر الأنصار! أوجدتم في أنفسكم إذْ قسمتُ مالاً أتألَّف به قومًا ووكلتكم**

إلى إيمانكم؟ أما ترضونَ أن ينصرفَ الناسُ بالشاةِ والغنمِ وترجعوا أنتم برسول الله في سهمكم؟». قالوا: رضينا باللهِ وعنه، وبرسوله. ثم قال الرسول ﷺ: «**الأنصار كَرِشِي وعيبتي. لو سلك الناس واديًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار**».

وعلى كل حال، كان بين أسرى الكفار «**شيماء**» بنت حليمة السعدية أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة. فعرَّفَتْ نفسَها للنبيِّ ﷺ وقالت: يا محمد! أختكَ بنتُ حليمة. فَأَكْرَمَهَا رسولُ الله ولطف بها جدًا ونزع برده فبسطه لها فأجلسها عليه، ثم أكبَّ عليها يسألها عن أحوالها. وخيَّرها بين أن تبقى معه أو تعود إلى بيتها، فاختارت العودة إلى موطنها. فأعطاها رسول الله ﷺ جاريةً وجملين وبضعة خِراف، فتشفعَّت عند رسول الله ﷺ لأسرى هوازن، فقال لها: وهبتُكِ سهمي من السبي وسهمَ بني عبد المطلب، أما ما كان من سهم سائر المسلمين من السبي فاشفعي أنتِ لهم عني، فلعلَّهم يهبونهم لكِ. فلما صلَّى النبيُّ ﷺ الظهرَ قامت ابنةُ حليمة فتكلَّمت، فوهب الناس كلُّهم أسراهم من هوازن رعايةً لشأن رسول الله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التوبة: ٢٨].

الفوائد: كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، ومنها يُستفاد أن لا نجس إلا المشركون، وهل نجاستهم ظاهرية أم باطنية؟ ظاهر القرآن الإطلاق [أي شمول الأمرين]. هذا إن لم نعتبر قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ قرينةً، لأنه من الممكن أن نعتبر هذه الجملة قرينة على النجاسة الباطنية لأنه لو كان المراد من النّجاسة النّجاسة الظاهريّة لقال: فلا يمسُّوا المسجد الحرام زمان نزول الآية، لأن الاقتراب من المسجد لا يُنجّسه على فرض نجاسته، كما أن الله لم يقل: لا يدخلوا المسجد الحرام سنة نزول الآية بل قال: لا يقربوا المسجد الحرام **بعد عامهم هذا**، إضافةً إلى أن النبيّ ﷺ لم يأمر بغسل المسجد. فيتبيّن أن المقصود الابتعاد عن مجامع المسلمين وعدم اكتراث المسلمين بهم وهذا يُفيد النّجاسة الباطنيّة.

كان مسلمو ذلك الزمن يتصوَّرُونَ أنه لو مُنع الـمشركون من دخول الحرم فإن ذلك سيؤدي إلى كساد سوق مكة وفقر الـمسلمين وضيق عيشهم، فأنزل الله تعالى ردًّا على هذا التصوُّر أن الله سيُغنيكم عن الـمشركين بفضله، وهذا ما تمّ فعلاً إذ آمن أهل اليمن وجُدّة والطائف وسائر نواحي الحِجاز فكانوا يأتون إلى مكة من كل طرف حاملين معهم كل شيء من الأطعمة والحبوب والألبسة.

ويُستَفَاد من جملة ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ -من باب تنقيح الـمناط- أن مشركي زماننا الذين يعتبرون الإمام حاضرًا ناظرًا في كل مكان لا يحقّ لهم الدخول إلى مساجد الـمسلمين، فإن كان الـمشركون من عُبّاد الأصنام قليلين فإن الـمشركين من غير عُبّاد الأصنام كُثُرٌ، مثل الغُلاة والشيخية والذين ينسبون إلى بعض الناس أو إلى كُلِّ عبدٍ صالحٍ صفاتَ اللهِ أو أفعاله ويدعونهم في عباداتهم ويعتقدون أنهم حاضرون ناظرون، فينبغي إبعاد أمثال هؤلاء عن جماعات الـمسلمين ومساجدهم.

والإشكال هو: أين الـمسلم الواقعيّ؟ وأين الـمجتمعات الإسلامية؟ وهل لمثل هذا الشيء وجود في عالـم الخارج أم لا ؟!

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

الفوائد:

يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ على أنه يجب على الـمسلمين أن يُقاتلوا أهل الكتاب حتى يُعطوهم الجِزية وهم صاغرون أي أذلّاء، وأنه ما لم يُؤَدُّوا الجِزيةَ للمسلمين لم يجز للمسلمين أن يتوقفوا عن قتالهم.

وعبارة ﴿عَن يَدٖ﴾ تحتمل عدة معان: **الأول**: أن يُراد بها أن يُعطوا الجِزية بأيديهم أنفسهم [أي عن يدٍ إلى يد] ولا يتَّخذوا وسطاء في إعطاء الجِزية لأن كلاً منهم عندما يحضر بنفسه أمام أُمراء

المسلمين ويرى ذُلَّهُ وعِزَّ المسلمين قد يُؤثِّر ذلك في هدايته. **الثاني**: أن ﴿عَن يَدٍ﴾ معناها عن قدرة أي أن كل من كان فقيرًا من أهل الذمَّة ولا يستطيع دفع الجِزية سقطت عنه.

فإن قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله وباليوم الآخر، فكيف وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟ فالجواب: إنهم لا يؤمنون بالله الحقّ لأنهم يُؤمنون بإله له ابنٌ، ويُؤمنون بتعدد القدماء خاصةً النصارى الذين يعتبرون الأقانيم الثلاثة قديمةً كما سيأتي بيانه. كما أنهم لا يُؤمنون بيوم الجزاء على الأعمال إيمانًا حقيقيًا لأنهم يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وهذا يُشبه حال بعض قومنا الذين لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أعمالهم واغترُّوا بأملهم في شفاعة زيدٍ وعَمروٍ قائلين: إن شفعاءَنَا سيُخَلِّصُوننا من النار وأقنعوا أنفسهم بهذا الكلام. إضافةً إلى ذلك إن من يؤمن بالله وبيوم القيامة إيمانًا صادقًا يُطيع أوامر الله ويبحث عن الحقّ فإذا عرفوا أن الله قال: آمِنُوا بمحمد ﷺ، آمَنُوا به.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أن الجِزية تُقبل من أهل الكتاب لا من المشركين الذين يُخيّرون بين الإسلام والقتل فحسب. ويختلف مقدار الجِزية حسب ما يراه إمام المسلمين الذي ينبغي أن يُراعي المصلحة وأن يُحدِّد المقدار الذي يُؤخذ من كل فرد، فإذا أسلم الذمِّيُّ سقطت الجِزيةُ عنه.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

الفوائد: المراد من جملة ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ بعض فِرق اليهود الذين اعتبروا عُزيرًا ابنَ الله، والسبب في اعتبارهم إياه ابن الله أن نبوخذنصر قام بمذبحة كبيرة لليهود وأحرق كتبهم وأبادها وأخذ أبناءهم أسرى وكان من جملة الأسرى عُزير، وبعد عودته من الأسر رأى اليهود لدى عُزير كشفًا وكرامات، منها أنه مات مئة عام ثم أُحيي من جديد. ومن جملة ذلك أنه

كان يقرأ التوراة كلها من حفظه رغم ضخامتها، فتعجب اليهود منه وغلوا بشأنه واعتبروه ابن الله. وأما النصارى فلماذا اعتبروا عيسى ابن الله مع أن الأنبياء يأكلون وينامون ويتبولون ويدفعون الغائط ولا يُمكن أن يعتبروا أنفسهم الله أو أبناء الله، فكيف افترى النصارى على عيسى ذلك الأمر؟ الجواب: أن القديس بولُس هو الذي أوجد هذه الخزعبلات. وتوضيح ذلك أن أتباع المسيح كانوا يؤمنون بالله الواحد الذي لا شريك له وبنبوّة عيسى ﵇، إلى أن وقع الصراع والاقتتال بينهم وبين اليهود ولم يتمكن اليهود من الانتصار على النصارى والقضاء عليهم، «فقام رجل شجاع من اليهود يُدعى بولُس بجمع اليهود وقال لهم: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإني أحتال فأضلهم، فعرقب فرسه وأظهر الندامة مما كان يصنع ووضع على رأسه التراب، وقال: نوديت من السماء ليس لك توبة إلا أن تتنَصَّر، وقد تُبْتُ. فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة لا يخرج وتعلم الإنجيل فصدَّقوه وأحبُّوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم رجلاً اسمه «نسطور» وعلَّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، وتوجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنسانًا ولا جسمًا ولكنه الله، وعلم رجلاً آخر يُقَال له «يعقوب» ذلك، ثم دعا رجلاً يقال له «ملكًا» فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، ثم دعا لهؤلاء الثلاثة وقال لكل واحد منهم: أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني، وإني غدًا أذبح نفسي لمرضاة عيسى، ثم دخل المذبح فذبح نفسه، ثم دعا كل واحد من هؤلاء الثلاثةِ الناسَ إلى قوله ومذهبه»[1]، أي إلى التثليث وتلك الخرافات التي علَّمهم إياها بولُس، وأعجب النصارى هذا الغُلوّ بحقّ عيسى ولذلك انتشرت هذه العقائد

---

١ - هذه المعلومات عن بولس ودوره في نشر التثليث استقاها المؤلف من تفسير **مفاتيح الغيب** للفخر الرازي، ج ١٦/ ص ٣٤، ولا يخفى أنها معلومات غير دقيقة وغير تاريخية، لأن نسطور ويعقوب شخصيات أتت بعد عدَّة قرون من رفع المسيح، ومَلَك ليس اسم شخص بل سُمِّي المذهب الذي أقره الإمبراطور قسطنطين بالمذهب الملكاني نسبةً للملِك أي الإمبراطور. فضلًا عن أن بولس لم ينتحر، وأن ما نسبه الرازي من عقائد لنسطور غير دقيق ومخالف للمعروف تاريخيًّا عنه.

لديهم جميعًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أن اليهود والنصارى لا يفهمون قلبًا وعقلاً العقائد التي يذهبون إليها ولكنهم يُرَوِّجون لتلك الأقاويل باللسان فقط.

روى الطبرسيّ في كتابه«**الاحتجاج**»:

«أنه اجتمع يومًا عند رسول الله صلى الله عليه وآله أهل خمسة أديان: اليهود، والنصارى، والدهرية، والثنوية، ومشركو العرب. فقالت اليهود: نحن نقول: عُزَيْرٌ ابن الله، وقد جئناك يا محمَّد لننظر ما تقول فإن اتَّبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك وأفضل، وإن خالفتنا خصمناك.

وقالت النصارى: نحن نقول: إن المسيح ابن الله اتحد به، وقد جئناك لننظر ما تقول، فإن اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك وأفضل، وإن خالفتنا خصمناك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لليهود: أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجة؟ قالوا: لا. قال: فما الذي دعاكم إلى القول بأن عُزَيْرًا ابن الله؟ قالوا: لأنه أحيى لبني إسرائيل التوراة بعدما ذهبت، ولم يفعل بها هذا إلا لأنه ابنه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فكيف صار عُزَيْرٌ ابن الله دون موسى وهو الذي جاء لهم بالتوراة ورُئِيَ منه من المعجزات ما قد علمتم. ولئن كان عُزَيْرٌ ابنَ اللهِ لما ظهر من إكرامه بإحياء التوراة فلقد كان موسى بالبنوَّة أولى وأحقّ، ولئن كان هذا المقدار من إكرامه لعُزَيْر يوجب له أنه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى توجب له منزلةً أجلّ من البنوَّة، لأنكم إن كنتم إنما تريدون بالبنوة الدلالة على سبيل ما تشاهدونه في دنياكم من ولادة الأمهات الأولاد بوطئ آبائهم لهن فقد كفرتم بالله وشبَّهتموه بخلقه وأوجبتم فيه صفات المحدثين، فوجب عندكم أن يكون محدثًا مخلوقًا وأن يكون له خالق صنعه وابتدعه.

قالوا: لسنا نعني هذا، فإن هذا كفر كما دللت، لكنا نعني أنه ابنه على معنى الكرامة وإن لم يكن هناك ولادة، كما قد يقول بعض علمائنا لمن يريد إكرامه وإبانته بالمنزلة من غيره: «يا بُنَيَّ» و«أنه ابني» لا على إثبات ولادته منه لأنه قد يقول ذلك لمن هو أجنبيّ لا نسب له بينه وبينه، وكذلك لما فعل الله تعالى بعُزَيْر ما فعل، كان قد اتّخذه ابنا على الكرامة لا على الولادة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فهذا ما قلتُهُ لكم إنه إن وجب على هذا الوجه أن يكون عُزَيْر ابنه فإن هذه المنزلة بموسى أولى، وأن الله يفضح كل مبطل بإقراره ويقلب عليه حجته، إن ما احتججتم به يؤديكم إلى ما هو أكثر مما ذكرته لكم، لأنكم قلتم: إن عظيمًا من عظمائكم قد يقول لأجنبي لا نسب بينه وبينه «يا بُنَيَّ» و«هذا ابني» لا على طريق الولادة، فقد تجدون أيضًا قول هذا العظيم لأجنبي آخر «هذا أخي» ولآخر «هذا شيخي» و«أبي» ولآخر «هذا سيدي» و«يا سيدي» على سبيل الإكرام، وإن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، فإذا يجوز عندكم أن يكون موسى أخًا لله أو شيخًا له أو أبًا أو سيِّدًا لأنه قد زاده في الإكرام مما لعُزَيْر، كما أن من زاد رجلاً في الإكرام فقال له: يا سيدي ويا شيخي ويا عمي ويا رئيسي على طريق الإكرام، وأن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، أفيجوز عندكم أن يكون موسى أخًا لله أو شيخًا أو عمًّا أو رئيسًا أو سيِّدًا أو أميرًا لأنه قد زاده في الإكرام على من قال له: يا شيخي أو يا سيدي أو يا عمّي أو يا رئيسي أو يا أميري؟

قال: فبُهِتَ القوم وتحيَّروا وقالوا: يا محمَّد أجِّلْنا نتفكَّرْ فيما قد قلته لنا. فقال: انظروا فيه بقلوب معتقدة للإنصاف يهدكم الله.

ثم أقبل على النصارى فقال لهم: وأنتم قلتم: إن القديم عز وجل اتحد بالمسيح ابنه، فما الذي أردتموه بهذا القول؟ أردتم أن القديم صار محدثًا لوجود هذا المحدث الذي هو عيسى، أو المحدث الذي هو عيسى صار قديمًا كوجود القديم الذي هو الله؟ أو معنى قولكم إنه اتحد به أنه اختصه بكرامة لم يكرم بها أحدًا سواه؟ فإن أردتم أن القديم صار محدثًا فقد أبطلتم، لأن القديم محال أن ينقلب فيصير محدثًا، وإن أردتم أن المحدث صار قديمًا فقد أحلتم لأن المحدث أيضًا محال أن يصير قديمًا، وإن أردتم أنه اتحد به بأنه اختصه واصطفاه على سائر عباده فقد أقررتم بحدوث عيسى وبحدوث المعنى الذي اتحد به من أجله، لأنه إذا كان عيسى محدثًا وكان الله اتحد به - بأن أحدث به معنى صار به أكرم الخلق عنده - فقد صار عيسى وذلك المعنى محدثين، وهذا خلاف ما بدأتم تقولونه.

فقالت النصارى: يا محمد! إن الله لما أظهر على يد عيسى من الأشياء العجيبة ما أظهر فقد

اتخذه ولدًا على جهة الكرامة. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى الذي ذكرتموه، ثم أعاد صلى الله عليه وآله ذلك كله... ثم إن وجب لأنه قال لإبراهيم خليلي أن تقيسوا أنتم فتقولوا بأن عيسى ابنه، وجب أيضًا كذلك أن تقولوا لموسى إنه ابنه، فإن الذي معه من المعجزات لم يكن بدون ما كان مع عيسى، فقولوا: إن موسى أيضًا ابنه، وإن يجُزْ أن تقولوا على هذا المعنى إنه شيخه وسيده وعمه ورئيسه وأميره كما قد ذكرته لليهود..... إلى آخر الحديث الطويل. وفي النهاية أسلم منهم خمسة وعشرون نفرًا»(١).

وروى في «**مجمع البيان**»: «عن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عَدِيُّ! اطرح هذا الوثن من عنقك. قال فطرحتُه ثم انتهيتُ إليه وهو يقرأُ من سورة البراءة هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١] حتى فرغ منها فقلتُ له: إنَّا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يُحَرِّمُون ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ ما حَرَّمَ اللهُ فتستحلونه؟ قال: فقلتُ: بلى. قال: فتلك عبادتهم»(٢).

وهذه الجملة، أي ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، تدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يتَّخذ الأنبياء والأوصياء والآخرين أربابًا له.

روى الكُلَيْنِيُّ في **أصول الكافي** «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ الإمام الصادق عليه السلام قَالَ قُلْتُ لَهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فَقَالَ: أَمَا وَاللهِ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ مَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَامًا وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالاً فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ»(٣).

١- أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، **الاحتجاج على أهل اللجاج**، تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان، ج ١/ ص ١٦- ٢٢ ، مختصرًا.

٢- أمين الإسلام الطبرسي، **مجمع البيان**، ج ٣/ ص ٢٣ - ٢٤ . والحديث رواه الترمذي في **السنن**. ورواه ابْنُ سعد فِي **الطَّبَقَات** فِي تَرْجَمَة عدي بن حَاتِمٍ، ورواهُ أَبُو يعلي الموصِلِي فِي **مُسْنده** والطَّبَرَانِيّ فِي **مُعْجَمه** وَابْن أبي شيبَة فِي **مُسْنده** والطبري فِي تَفْسِيره **جامع البيان**، وحسَّنه الترمذي وابن تيمية والألباني.

٣- **أصول الكافي**، باب التقليد، ج ١/ ص ٥٣.

وقال الإمام الباقر عليه السلام أيضًا في تفسيره هذه الآية: «.... وَأَمَّا أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ أَطَاعُوا وَأَخذُوا بِقَوْلِهِمْ وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرُوهُمْ بِهِ وَدَانُوا بِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ، فَاتَّخَذُوهُمْ أَرْبَابًا بِطَاعَتِهِمْ لَهُمْ وَتَرْكِهِمْ أَمْرَ اللهِ وَكُتُبَهُ وَرُسُلَهُ، فَنبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ اتَّبَعُوهُمْ وَأَطَاعُوهُمْ وَعَصَوُا اللهَ ... ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن إطاعتهم كبراءهم في الدين دون دليل هي عبادتهم إيَّاهم.

يقول كاتب هذه السطور، كما كتب بعض علماء الإسلام: نرى كثيرًا من مُقَلِّدي العلماء إذا قرأت عليهم آيات عديدة من كتاب الله لا يقبلون ما سمعوه، وينظرون إليك نظرة استغراب ويقولون: كيف يُمكن أن نعمل بهذه الآيات الإلهيّة مع أن أحاديث علمائنا وأقوالهم مُخالفةٌ لهذه الآيات؟! وبمثل هذه الحُجج خرج كثير من المسلمين من الإسلام ودخلوا في الكفر. حتى إن بعضهم يسجد للعلماء والمرشدين ويعتبر كلامهم أفضل من كلام الله!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

الفوائد: المقصود من ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ دين الله وكتابه الذي يسعى المشركون لإطفائه بواسطة أقاويلهم الخياليّة البشرية، فهم يضعون الحواجز بأقاويلهم الواهية المتهافتة أمام نشر كلمات الحقّ، فأحدهم يصدُّ عن الحق بالفلسفة وآخر بالأشعار وثالث بالعرفان (التصوف الفلسفي)، وآخر بتأويلاته لآيات الله حسب هواه، كما كان يفعل اليهود بتأويلهم نصوص التوراة التي تتعلَّق بمحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وكتمانهم لحقائق التَّوراة ومنعهم العوام من استعمال عقولهم وتعويدهم إيَّاهم على التقليد، والحاصل أنهم كانوا يحولون بالمكر والخِداع دون يقظة الناس وانتشار كلام الله بينهم. وكمالُ كلِّ دين بثلاثة أشياء:

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩/ ص ٢١١ عن **تفسير علي بن إبراهيم القمّيّ**.

الأول: الدلائل والبراهين الكثيرة التي تؤدي إلى هداية الأفكار وتنبُّه الناس، وهذا هو المراد من جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

الثاني: اشتمال الدين على قواعد الحكمة والصلاح وانسجام عقائده وقواعده مع العقل السليم وتوافقها معه، وتوجيه الناس نحو عبادة الله وحده وإبعادهم عن عبادة الهوى، وهذا هو المراد من جملة: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

الثالث: التفوُّق على سائر الأديان والتغلُّب عليها وهذا هو معنى جملة: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

وبناءً على ذلك فإن الإسلام أكمل الأديان لامتلاكه لهذه العناصر الثلاثة جميعًا.

وهل المراد من الظهور على جميع الأديان الظهور بالقهر والسلطان أم الظهور بالحُجّة والبرهان؟ الجواب: أن الإسلام يمتلك الأمرين ولا نقص فيه.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

الفوائد: يقولون: إن هذه الآيات نزلت في ذمِّ اليهود، ولكن الأمر ليس كذلك! لأن الله خاطب بهذه الآيات المؤمنين فلا بدّ أن تكون مُتَعَلِّقَةً بالمؤمنين والمسلمين أنفسهم، أضف إلى ذلك أنَّ ما هو سيءٌ لليهود سيءٌ للمسلمين أيضًا والآيةُ عامَّةٌ غيرُ مخصصة وسبب النزول لا يُخصصها [لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب].

وليس معنى قوله تعالى: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أنهم كانوا يأخذون أموال الناس بالقوة والإكراه، بل كانوا يأخذونها منهم تحت عناوين دينية ووجوه شرعية. كما يفعل بعض العلماء والمشايخ في زماننا إذ يأخذون من الناس أموالاً باسم الوجوه الشرعية

فيسترزقون باسم الدين، لأن ما يأخذونه من عمل وكسب الناس باسم سهم الإمام والخُمس، أمرٌ لم يكن له وجود أصلاً في دين الإسلام ومع ذلك جعلوه من أركان الدين! وتركوا تمامًا فريضة الزكاة التي أمر الله بها في القرآن مرات عديدة! لماذا؟ لأن الزكاة لا تختص بالعلماء والمشايخ بل مصرفها الفقراء والمساكين ومصالح المسلمين العامة. لذلك تجاهلوا الزكاة ولم يكترثوا بها وأوجدوا حقوقًا شرعيةً خاصةً بهم، وأكثر المسلمين لا يملكون حسَّ البحث والتحقيق لأنهم لُقِّنوا التقليد والاتِّباع المحض.

ومعنى جملة: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنهم يمنعون الناس من سلوك طريق الله. فإن قيل: كيف يمنع الأحبار والرُّهبان والعلماءُ والمشايخُ الناسَ من سلوك طريق الله؟ فالجواب: إنهم لا يستطيعون أن يقولوا للناس علنًا: لا تسلكوا طريق الله لأنهم إنما يكسبون رزقهم ومعاشهم من هذا الطريق، أي مما يُسَمَّى تبليغ الدين ونشره، ولكنهم يتركون طريق الله أي دينه ويُبعدون الناس عن طريق الحقّ ويبتدعون أشياء باسم الدين ولا يَدعُون الناسَ يتعرفون على الدين الحقّ ويسيرون في طريق الله. فهم مثلاً لا يُجيزون للناس البحث والتحقيق، مع أن دينَ الإسلام دينُ البحث والتحقيق، بل يَدْعونَ الناسَ إلى التقليد. وبدلاً من الجهاد في سبيل الله علَّموا الناس البكاء والنياحة وقراءة المراثي، وبدلاً من صلاة الجمعة والاجتماع فيها علّموا الناس التكايا والحُسينيات والزوايا والمهديات والفاطميات والزينبيات ودعاء النُّدبة وقراءة الأشعار. وبدلاً من التوحيد والتوجه نحو الله الواحد الأحد علّموا الناس التوجه إلى الأنبياء والصالحين باسم التوسل أو علّموا الناس التملق والتزلف وكَيْلَ المدائح لأولياء الله الذين رحلوا عن هذه الدنيا، وهكذا ... فالأمور التي لم يكن لها وجود في الإسلام أصبحت في زماننا من قواعد الإسلام وأنظمته، والأمور التي تُخالف الإسلام حلت محلّ تعاليمه؛ وكل هذا من فعل العلماء والمشايخ الذين ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنى جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أنهم كانوا يجمعون الأموال ويكنزونها ولا يصرفونها في أمور الخير ومصالح المسلمين، والأموال الكثيرة والأوراق النقدية أيضًا لها

حكم الذهب والفضة وتشملها الزكاة وتشملها هذه الآية أيضًا، كما يُستفاد من الروايات والأحاديث. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَالٍ لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا وَكُلُّ مَالٍ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ**»[١].

رُوِيَ أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ ثلاث مرات: «**تبًّا للذهب والفضة**»، فقال الصحابة: يا رسول الله! فأيُّ مالٍ نَتَّخِذُ؟ فقال: «**لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجةً مؤمنةً تُعين أحدكم على دينه**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُهُ، يَقُولُ: وَيْلَكَ، مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ، فَلاَ يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضَمُهَا، ثُمَّ يُتْبِعَهُ سَائِرَ جَسَدِهِ**»[٣].

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦].

الفوائد: المقصود من الشهور هنا الأشهر القمرية التي كانت رائجة لدى العرب، وقد قدَّر الحقُّ تعالى منذ بدء الخليقة أن يتحدَّد كلُّ شهر بواسطة التغيُّر في شكل القمر وطلوعه وغروبه وبذلك يعرف الناس أول الشهر ووسطه وآخره، لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل، فكلُّ من

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨ / ص ٢٤٢. ومن طرق السنة: رواه البيهقي في **السنن الكبرى**، ج٤/ ص ٨٣، حديث (٧٠٢٥)، ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٣/ ٢٠١) وقال: قلتُ: هو في الصحيح بنحوه ولكنه موقوف على ابن عمر. ورواه الطبراني في **الأوسط** وفيه سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف.

٢- **مسند أحمد**، ٥/ ٣٦٦، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح. وأخرجه البيهقى فى **شعب الإيمان**، ج ١/ ص٤١٩، حديث رقم (٥٩٠).

٣- أخرجه البزَّار كما في **مجمع الزوائد** (٣/ ٦٤) قال الهيثمي: رواه البزَّار وقال إسناده حسن، قلتُ: ورجاله ثقات. وابن خزيمة، ٤/ ١١، رقم (٢٢٥٥)، وابن حبان، ٨/ ٤٩، رقم (٣٢٥٧). وأخرجه أيضًا: الحاكم في **المستدرك**، ١/ ٥٤٦، رقم (١٤٣٤) وقال: صحيح على شرط مسلم.

نظر إلى السماء ورأى شكل القمر عرف أن الوقت هو أول الشهر أو آخره، وقد قدَّر الله هذا الطلوع والغروب، وأما الأشهر الشمسية الرائجة لدى سائر الملل فليس لها علامات كونية ظاهرة يستطيع عامة الناس أن يحسبوا الشهور من خلالها. ولكن مشركي العرب لما رأوا أنهم لو اعتمدوا على الأشهر القمرية فسيقع الحجُّ في الصيف مرةً وفي الشتاء أخرى، وكان هذا يشقُّ على المسافرين إلى الحجّ، فقاموا بجعل الأشهر مطابقةً للأشهر الشمسية. ولما كانت الأشهر الشمسية تزيد عشرة أيام في السنة على الأشهر القمرية أقدموا على عمل الكبيسة. والكبيسة هي أنهم يُضيفون كل ثلاث سنوات شهرًا على اثني عشر شهرًا فتُصبح الأشهر القمرية ثلاثة عشر شهرًا! وكانوا يُؤخِّرون شهرَ الحجِّ أحيانًا إلى شهر آخر كي يتطابق مع الأشهر الشمسية. فذمَّ الحقُّ تعالى هذا العمل وقال: إن الأشهرَ طبقًا لما خلقه الله اثنا عشر شهرًا: مُحرّم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجُمادى الأول وجُمادى الثاني ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحِجّة. وجعل الله أربعةً من هذه الأشهر أشهرًا حُرُمًا، أي يَحْرُمُ فيها القتال والحروب، وكان هذا التحريم متعارفًا عليه زمنَ الجاهلية فأقرّه الله تعالى في الإسلام، فلا يجوز أن يُقدم شخص ابتداءً على القتال والمحاربة في هذه الأشهر الأربعة. أما لو ابتدأ المشركون والكفار بالحرب من طرفهم فيجب معاملتهم بالمثل كما مرّ شرح ذلك في سورة البقرة.

والنقطة الأخرى أنه من الممكن أن نجعل ﴿كَآفَّةً﴾ حالاً لفعل ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾، ومن الممكن أن نجعلها حالاً لمفعول ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾، ونحن -في ترجمتنا للآيات- اعتبرناها حالاً لمفعول ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾، أما لو اعتبرناها حالاً للفاعل فإن المعنى يكون: قاتلوا المشركين مجتمعين مع بعضكم كافَّةً كما يُقاتلكم المشركون كافة.

والعجيب أن بعض الإمامية نقلوا في كتبهم ٢٩ رواية أن المراد من الاثني عشر شهرًا الأشهر القمرية طبقًا لصريح هذه الآية القرآنية، ولكن هناك رواية واحدة راويها من الغُلاة تقول إن الاثني عشر شهرًا هم الاثنا عشر إمامًا! فجاء الخُطباء والوُعَّاظ الجهلاء ونسوا كل تلك الـ ٢٩ رواية وأخذوا بهذه الرواية وصاروا يعرضونها أمام الناس. أي تلاعبوا بالقرآنِ كلامِ اللهِ.

وبالـمناسبة يجب أن نسأل هؤلاء: على قولكم ماذا يكون معنى ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ إذن؟!

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: ٣٧].

الفوائد: معنى ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ التأخير والتأجيل، وكما بيّنا في التعليق على الآية السابقة كان العرب زمن الجاهلية يُؤجلون أحيانًا الأشهر الحُرُم، فمثلاً يعلنون أن السنة القادمة سيكون الحج في شهر مُحُرَّم فيجعلون الـمحرَّم مكان ذي الحجة ويجعلون صفرًا مكان مُحُرَّم فيجعلون صفرًا شهرًا حرامًا، فيُصبح الشهر الواحد حرامًا أحيانًا وحلالاً أحيانًا! وبهذا يُبَدِّلون الأشهر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في جماعةٍ من الـمسلمين لما دُعوا إلى الخروج إلى غزوة تبوك تباطؤوا وتردَّدوا، وذلك أن رسول الله ﷺ عاد إلى الـمدينة بعد معركة حُنين والطائف، وأمر الناس بالتجهّز لجهاد الروم في وقت كان الحرّ فيه على أشدّه وكانت ثمار الـمدينة قد طابت وأينعت. «وإنما استثقل الناس الخروج إلى الحرب لوجوهٍ: **أحدها**: شدّة الزمان في الصيف والقحط. **وثانيها**: بُعد الـمسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات. **وثالثها**: إدراك الثمار بالـمدينة في ذلك الوقت»[١]. **ورابعها**: مهابة الروم لما يعرفونه من عظمة الامبراطورية الرومانية وكثرة جنودها.

ولكن رغم كل تلك الأمور ما كان ينبغي عليهم أن يتباطؤوا ويتثاقلوا عن الجهاد مع وجود

---

١ - استفاد الـمؤلف هذه الوجوه من: فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٦ / ص ٥٩.

الأمر الإلهيّ والـمنافع الكبيرة للجهاد، والأمة التي تتثاقل عن الجهاد مصيرها الفناءُ والزوالُ أو مصيرها الذلُّ، ولذلك أشار الله إلى هذا الفناء والزوال بقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وأشار إلى الذل في الدنيا والعذاب في الآخرة بقوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

الفوائد: تتعلَّقُ هذه الآيةُ بهجرة رسول الله ﷺ من مكة، إذ إنه عندما انتشرت دعوة رسول الله ﷺ وجاء أهل الـمدينة إلى مكة وبايع جماعةٌ منهم رسولَ الله ﷺ عند جمرة العقبة في مِنى، ازدادت عداوة الكفار في مكة لرسول الله ﷺ حتى اجتمع أربعون من رجالهم ذوي الخبرة والتجربة في دار الندوة -مكان اجتماعاتهم- وبعد أن تبادلوا الآراء استقرَّ رأيهم على أن يختاروا من كل قبيلة رجلاً شجاعًا ويقوم أربعون رجلاً بضرب النبيّ بسيوفهم ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيتفرق دمه في القبائل ولا تقدر عشيرته على مواجهة جميع القبائل فتضطر إلى الـمطالبة بالدية فقط. فتهيؤوا جميعًا للقيام بهذا العمل وأعدّوا الأشخاص الذين سيقومون بتنفيذه، وكمنوا في أول ليلة من شهر ربيع الأول حول بيت النبيّ ﷺ وهم ينوون أن ينقضُّوا عليه عندما يأوي إلى فراشه ويُريقوا دمه. فأخبره الحقّ تعالى عن هذا الأمر كما تُفيده آية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠]، إذ نزلت هذه الآية في سورة الأنفال حول هذا الـموضوع. فأُمر رسول الله ﷺ أن يُغادر مكة ويجعل عليًّا ينام في فراشه. فقال ﷺ لعليٍّ: يا عليّ! إنَّ قريشًا تريد قتلي في هذه الليلة وقد أمرني الله أن أُغادر إلى غار ثور وأجعلك تنام في مكاني كي لا ينتبهوا إلى مغادرتي، فماذا ترى؟ فقال عليٌّ: يا رسول الله! هل ستبقى سالـمًا؟ قال: بلى. فَسُرَّ عليٌّ عليه السلام وسجد شُكرًا لِلَّهِ. فاستودعَ رسولُ الله ﷺ عليًّا اللهَ، وخرج من الـمنزل وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس:

٩]، وذرّ على رؤوسهم حفنةً من التراب وقال: «شَاهت الوجوه»، وذهب إلى غار ثور الذي يقع فوق جبل على بُعد فرسخ من مكة. وبالطبع انطلق من بيت أبي بكر وبرفقته. ولما وصلا إلى الغار بقيا فيه ليلةً. وفي تلك الليلة نبتت على مدخل الغار شجرة مُغيلان ووضع زوج من الحمام عشًّا على مدخل الغار كما نسج عنكبوت خيوطه. فلما أصبحوا تفرقوا في الجبال في طلب رسول الله ﷺ، وأخذوا معهم سُراقة بن مالك الذي كان خبيرًا في تتبع الآثار فتتبع آثار النبيّ ﷺ حتى وصل إلى الغار، وكان فيهم رجل من خزاعة يُقال له «أبو كرز» يقفو الآثار فقالوا له: يا أبا كرز! اليوم اليوم، فما زال يقفو أثر رسول الله ﷺ حتى وقف بهم على باب الحجرة فقال: هذه قدمُ محمَّدٍ هي والله أخت القدم التي في المقام، وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه، وقال: هاهنا عبر ابن أبي قحافة، فلم يزل بهم حتى وقفهم إلى باب الغار، وقال لهم: ما جاوزا هذا المكان إما أن يكونوا صعدوا السماء أو دخلوا الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس على باب الغار وهو يقول لهم: اطلبوه في هذه الشعاب فليس هاهنا فأقبلوا يدورون في الشعاب.

وعلى كل حال، فالمقصود أن هذه الآية نزلت قبل غزوة تبوك حيث تباطأ بعض المسلمين في السير إلى تلك الغزوة، فقال تعالى: إن لم تنصروا محمدًا فقد نصره الله حين كان وحيدًا ولم يكن له إلا صاحب واحد، في إشارة إلى ليلة الهجرة عندما أخرجه الكفار من مكة، ولم يكن معه في تلك الليلة سوى أبي بكر، وكان لأبي بكر خِراف فكان عامر بن فُهيرة يأتي بتلك الخِراف إلى باب الغار بعد صلاة العشاء في الليل فيقوم رسول الله ﷺ وأبو بكر بحلبها والشرب من لبنها. وبعد أن بقيا ثلاث ليال هاجرا إلى المدينة. ولما كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار قال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وقد اعتبر بعض من لا علم له بالقرآن هذه الجملة التي هي مدحٌ لأبي بكر، اعتبرها طعنًا به لأنه حزن وبقي حزينًا حتى قال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

والجواب: إن حزن أبي بكر ليس فيه منقصةٌ ولا عيبٌ لأن رسول الله ﷺ نفسه حزن مرَّات

عدَّة ونهاه الله عن ذلك الحزن، كما جاء في سورة الحجر:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال كذلك في سورة النحل:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

وفي سورة العنكبوت قالت الملائكة لحضرة لوط ؏:

﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وقال تعالى لجميع المؤمنين في سورة آل عمران:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وبناءً على ذلك، فلا يصحّ ما قاله بعض الخرافيين أن نهيَ الرسول ﷺ أبا بكر عن الحزن بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ دليل على أن عمل أبي بكر - أي حزنه - كان عملاً سيِّئًا، لأن قولهم هذا مُخالف للقرآن، إذ بيّنا في الآيات المذكورة أعلاه أن مثل هذا النهي عن الحزن ورد بحقّ رسول الله ﷺ نفسه وبحقّ سائر الأنبياء ؈ وبحقّ سائر المؤمنين. ثانيًا: إن تلك الكلمات كانت لأجل مواساة أبي بكر كما قال تعالى مُسلِّيًا رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وأمثالها. فهذا النمط من النهي ليس نهي تحريم. وثالثًا: الحزن معناه الغمّ وضيق النفس، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: لا تحزن من عمل الكفار ومن الهجرة وفقدان النصير لأن الله معنا. وكل مؤمن ينتابه الحزن والضيق في مثل هذه المواقف وهذه صفة حسنة، فحزن أبي بكر كان عملاً جيدًا ونهي رسول الله ﷺ إياه عنه كان من باب المواساة. ورابعًا: ليس الحزن بمعنى الخوف فلا صحة لما قاله بعضهم من أن أبا بكر خاف، وأن خوفه هذا دليل على نقص فيه، لأن الحزن ليس بمعنى الخوف كما قلنا، فالخوف هو الرعب والفزع أما الحزن فهو الغمّ وضيق النفس. والخلاصة أن جملة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ دليل على التسلية والمواساة فحسب.

والنقطة الأخرى التي ينبغي توضيحها في هذا المجال أن كلمة ﴿مَعَنَا﴾ ليس المراد منها

الـمعيّة التكوينيّة بل معيّة التأييد والحماية والنصرة، بدليل أن الـمعيّة التكوينيّة للحقّ تعالى كائنة لجميع الـمخلوقات ولا تختصّ بالرسول ﷺ وصاحبه، فمعنى كلمة ﴿مَعَنَا﴾ أن الله يعتني بنا ويؤيدنا ويحمينا، فكل من قرأ هذه الآية يكون قد قرأ القرآن من جهة ويكون قد ذكر تأييد الله وعنايته بأبي بكر من الجهة الأخرى، وهو ينال الأجر والثواب على هذه القراءة وعلى ذكره ذلك التأييد الإلـهي. والناس الذين يقرؤون هذه الآية إلى يوم القيامة يُثنون على أبي بكر ويمدحونه حتى لو لم يكونوا مُدركين لـمعنى الآية. وعلى كل حال، معنى الآية هو قول النبيِّ ﷺ لأبي بكر: إننا في رعاية الله وحفظه، والله ناصرنا وحامينا، وهذا مثل الآية التي خاطب الله تعالى فيها موسى وهارون بقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦].

ولما قَوِيَ الـموحِّدون منذ بداية الهجرة وقويت كلمة التوحيد ودعوة الإسلام قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٤٣ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: ٤١-٤٧].

الفوائد: في هذه الآيات يُحرّض الله تعالى الـمؤمنينَ على الجهاد، ولكن بما أنه لم يكن جميع الصحابة من أهل اليقين والإيمان، وكان طريق تبوك بعيدًا ومحاربةُ دولة الروم أمرًا صعبًا

وخطرًا، فقد تباطأ أناسٌ من الصحابة، كما لم يكُن المنافقون راغبين بالذهاب فكانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ ويُقدِّمون له الأعذار والحُجج لاستئذانه في عدم الخروج والقعود عن المشاركة في هذه الغزوة، فكان رسول الله ﷺ يأذن لكل من استأذنه في عدم الخروج وقدَّم له الأعذار دون أن يُحقِّق ويعلم صدقه من كذبه، لذا عاتبه الله تعالى بقوله: لم أذنت لهم في القعود عن الجهاد دون أن تتبيَّن من يملك العذر حقيقةً ممن لا يملكه؟ وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم حقيقة أحوالهم، وتصرّفَ دون علم وكان ذلك خلافًا للأولى به، رغم أنه تبيَّن أن خروج المنافقين مع المجاهدين لم تكن فيه فائدةٌ لأن من لا يؤمن بالجهاد والشهادة لن يفعل شيئًا في ميدان القتال سوى بثّ الفتنة وإلقاء الشك ولن يزيد المؤمنين إلا تعبًا، وسيأتي بأعمال غير لائقة كما بيّن ذلك الحقّ تعالى في هذه الآيات، ولكن هذا لا يمنع أنه ما كان ينبغي على رسول الله ﷺ أن يعذر المُعتذرين عن المشاركة في الحرب والجهاد ويأذن لهم في القعود دون التحقيق في أمرهم، ولو لم يأذن لهم رسول الله ﷺ فإن المنافقين سيمتنعون من أنفسهم ودون إذن من الرسول عن الخروج إلى الجهاد، رغم عدم امتلاكهم لأي عذر، وعندئذٍ لن يستطيعوا أن يتحجَّجُوا بإذن رسول الله ﷺ، وعندئذٍ ستنكشف حقيقتهم ويظهر نفاقهم، وسيطّلع المؤمنون على حقيقة أمرهم وأنهم قعدوا وتخلّفوا دون إذن في القعود.

وجملة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ تحتمل معنيين: الأول: ما ذكرناه في الترجمة (أي فيكم جواسيس لهم). والثاني: أن بعض المؤمنين قد يُصغون إلى أقوالهم وينخدعون بكلامهم فيضعفون عن الجهاد.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ
أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ
مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ

وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٤٨-٥٢].

الفوائد: ابْتُلي نبيُّ الإسلام ﷺ طول دعوته بأعداء مخالفين من المشركين أو المنافقين، وهذا شأن كل من نهض في هذه الدنيا لإيقاظ الناس وإيصالهم إلى طريق السعادة.

يُمكن أن يكون المقصود من ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ في جملة ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ المشقّة، أي لا تمتحنّي بمشقّة السَّفَر، ويُمكن أن يكون المراد فتنة المعصية أي إن لم تأذن لي فإنني لن آتي وسأقع عندئذ في الكفر والعصيان.

والمقصود من إحدى الحُسنيين في جملة ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ أن المؤمن ينتظر في الجهاد إما القتل في سبيل الله أي الشهادة، أو النصر ونيل الغنيمة.

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٣-٥٧].

الفوائد: هذه الآيات صريحة في أن الله تعالى لا يقبل عمل الخير من الفاسق والكافر أي لا يُثيبه عليها، ولكن لا يخفى أنه إذا كان لأعمال الخير آثار دنيوية طبيعية فسينال فاعلها بركة آثارها وإن لم ينل عليها أجرًا أخرويًّا. وهذا ينطبق أيضًا على عمل المنافق حيث لا يُثاب عليه في الآخرة لأنه لا عقيدة له فإذا عمل عملاً من الأعمال التي أمر بها القرآن أدّاها مُكرهًا أو متثاقلاً إذ لا عقيدة له بيوم الجزاء، فالمنافقون لا يقومون إلى العبادة إلا كُسالى لأنهم يعتبرون العبادة مفروضة عليهم فرضًا، لذلك لا يقبلها اللهُ تعالى منهم. وهذا خلاف حال المؤمن الذي يُقدم على العبادة بكل مَيْلٍ ورغبة وخشوع ويُنفق ويُزكّي أمواله وهو خاشعٌ راغبٌ في ثواب الله كما

قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة: ٥٥].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أنه قد لا تنفع الإنسان أمواله وأولاده دائمًا، كشأن المنافقين الذين يُنفقون كلَّ عمرهم في جمع الأموال والحصول على الأولاد ويشغلهم ذلك حتى يظلوا غافلين عن معرفة الله ودينه، فتجدهم يتعبون ويعانون المشقات للحصول على المال ثم يُعانون مصاعب أشد للمحافظة على المال الذي جمعوه من الآفات والحوادث الدنيوية، وفي نهاية المطاف وبسبب افتقادهم لعقيدة راسخة بالله واليوم الآخر لا يستفيدون من أموالهم وأولادهم شيئًا سوى تحمل المشقات والعذاب الدنيوي، وأما في الآخرة ففي حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩].

الفوائد: من هذه الآية يتبيّن أنَّ دينَ كثير من الناس لا يعدو لَقْلَقَةً باللسان. وأنهم يدَّعون الدينَ لينالوا به الدنيا، فإذا نالهم شيءٌ من الصدقات والأموال الشرعية عن طريق الدين رضوا عن الله ودينه وإلا فلا. كهذه الآيات التي نزلت في غزوة حُنين عندما أعطى رسول الله ﷺ المسلمين من غنائم هوازن فقام رجل يُدعى «**حرقوص بن زُهير**» - وقد أصبح في زمن خلافة عليٍّ عليه السلام من رؤوس الخوارج - فقال لرسول الله: يا رسول الله اعدل! فقال: «**وَيْلَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ [قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟!]**»، وقد قال النبيُّ ﷺ بشأن هذا الشخص المدَّعي للحرص على العدل والتقوى، ما معناه: «**احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون**»[1].

﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ

١- لفظ الحديث الذي ورد في هذه الحادثة هو قوله ﷺ: «دَعْهُ! فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ؛ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ...... الحديث» صحيح البخاري (٣٦١٠)، وصحيح مسلم (٢٥٠٥).

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠].

الفوائد: المراد من الصدقات هنا الزكاة لأنه قال في آخر الآية ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وقد حدَّدت الآية ثمان فئات تُصْرف عليهم هذه الزكاة:

١- الفقراء.

٢- المساكين.

٣- موظفو الدولة الإسلامية.

٤- المؤلفة قلوبهم.

٥- تحرير العبيد.

٦- المدينون.

٧- في الجهاد ونشر الإسلام.

٨- من تقطَّعت به السبل من المسافرين.

في صدر الإسلام كانت ميزانية الدولة الإسلامية كلُّها تُدار بواسطة الزكاة والصدقات والخراج، وذلك لأن الزكاة كانت تؤخذ من كل شيء، كما أن كل من لم تكن إيراداته المالية السنوية تكفي لمصاريفه السنوية كان يُعدُّ من الفقراء والمساكين.

وقد أوجب الله تعالى الزكاة على الأغنياء كي يُثبتوا عمليًا أنهم يُحبون الله والإسلام أكثر من حبهم للمال. ولكي يتم القضاء على المفاسد الاجتماعية، لأنه لو لم يأخذ الفقراء حقَّهُم فإنهم سينضمون إلى الأحزاب الخارجة عن الإسلام [كالشيوعية]، ولأنه إذا لم تُدار البلاد بالزكاة المشروعة فسوف يتم إدارتها بطرق غير مشروعة.

وعلى كل حال، فقد جاء حرف الجر «**اللام**» في بداية الأصناف الأربعة الأولى من مصارف الزكاة، وجاء حرف الجر «في» في بداية الأصناف الأربعة الأخيرة، والسبب في ذلك أن الأصناف الأربعة الأولى من مُستحقي الزكاة لهم حقّ التملك ويُمكنهم أن يُنفقوا المال في أي جهة أرادوا، أما الأصناف الأربعة الأخيرة لمصارف الزكاة فلا يُمكنهم أن يصرفوا مالها حسب رغبتهم بل

عليهم أن يصرفوها في ذلك الوصف المحدد الذي جاء بعد حرف «في»، أي «**وَالْغَارِمِينَ**» في الديون التي غرموها، و﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يفتح طريق الله أمام الناس، وَ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيما يؤمِّن إعادة من انقطع به السبيل إلى بلده لا أكثر من ذلك، والأمر ذاته ينطبق على ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

ويُستفاد من هذه الآية وجوب صرف الزكاة الواجبة في تلك المصارف المفروضة وعدم جواز صرفها في المصارف المُستحبّة كبناء المساجد أو الجسور.

ويُستفاد من الآية أيضًا أن هناك حصة من الزكاة تُعطى للعاملين عليها، فهل يُمكن اعتبار الإمام أي الحاكم من العاملين عليها أم لا؟ اخْتُلف في ذلك، والصواب أنه يُمكن اعتباره من العاملين عليها. والأمر الآخر أن للعامل على الزكاة أن يأخذ من الزكاة بقدر عمله لا أكثر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أنه من الواجب على إمام المسلمين أي حاكمهم أن يُرسل موظفين لجمع الزكاة وأن لا يُوكِلَ أمر دفع الزكاة إلى الناس، أما في زماننا حيث لا تعمل الدول بواجباتها الإسلامية فيُمكن للناس أن يُعطوا زكاتهم للأصناف الخمسة الأولى من مصارف الزكاة، لأنه لا يوجد حاليًا عبيد لتحريرهم كما لا يوجد عاملون عليها ولا مؤلفةٌ قلوبهُم، ولا بدّ أن تكون الفئات الخمسة المذكورة في الآية من المسلمين أي لا يجوز إعطاء الزكاة للفقير الكافر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أن الله تعالى هو الذي اهتمّ بتحديد مصارف الزكاة ولم يُوكل ذلك إلى رسوله ﷺ أو إلى أي شخص آخر كما رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الله تعالى لم يرضَ بقسمة الزكاة أن يتولاها ملكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ حتى تَوَلَّى قسمتَها بنفسه**»[١].

١- أخرج نحوه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب مَنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ وَحَدِّ الْغِنَى، حديث رقم (١٦٣٠). ولفظه: «عن زِيَادَ بْنَ الْحَارِثِ الصُّدَائِيَّ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَبَايَعْتُهُ فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا قَالَ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلاَ غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ». وقال المنذري:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١].

الفوائد: كان المنافقون يقول بعضهم لبعض: لا تقولوا شيئًا في غياب محمَّدٍ ﷺ فإنا نخاف أن يبلغه ما نقول، فيقول آخر: لو سمع كلامنا لذهبنا إليه وأقسمنا أننا لم نقل شيئًا وسيُصدقنا، وغرضهم أن محمدًا لم يكن لديه الذكاء والقدرة على كشف الكذب والخداع وأنه بسيط القلب وساذج سريع التصديق فكل من قال له شيئًا صدّقه فهو أُذنٌ -أي سمّاعٌ- لكل إنسان. فقال اللهُ ردًّا عليهم: إنه مؤمنٌ بالله، وانطلاقًا من إيمانه بالله وخوفه منه لا يُؤذيكم. كما أنه ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقبل قول المؤمنين، أي أنه إذا كان سليم القلب فهو كذلك للمؤمنين ولم يقل: يؤمن بالمؤمنين، بل قال: للمؤمنين، يعني أن إيمانه بالله هو لصالح المؤمنين ولنفعهم، كما أنه قال: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي أنه يحمل أمركم على الظاهر ولا يُفتِّش عمّا في القلوب[1] وهذا سببٌ لرحمتكم فاستماعه لكلامكم لخيركم وصالحكم.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: ٦٢].

الفوائد: بَيّن الله لنا في الآيات السابقة صفات المنافقين، وذكر في هذه الآية إحدى صفاتهم وهي: قَسَمُهُم الكاذب لإرضاء المؤمنين وخداعهم، والحال أنه لو كانوا مؤمنين حقًا لوجب عليهم أن يُرضوا الله ورسوله ﷺ. وقد أتى بضمير «**يُرضوهُ**» مفردًا لأن رضا الله هو الأساس وهو الذي يؤدي إلى رضا الرسول، وليس للرسول رأي من عند ذاته، ولذلك لما قال أحد [الأسرى] الكُفّار: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَرَفَ الْحَقَّ**

في إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وقد تكلم فيه غير واحد. عون المعبود (٥/ ٣٩).

١- وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ». أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث (١٠٦٤).

لِأَهْلِهِ»[1].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة: ٦٣-٦٦].

الفوائد: معنى ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ يُخالف أمر الله عِنادًا، لأن فعل ﴿يُحَادِدِ﴾ يأتي بمعنى **يُعاند** أيضًا، وإلا فليس كل من خالف أمرًا من أوامر الله جهلاً ودون معاندة منه لِلَّهِ استحقّ جهنم خالدًا فيها.

فإن قيل: إن المنافقين ما كانوا يؤمنون بالله ورسوله ﷺ ولا بالوحي، فكيف كانوا يخافون من أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تُنبِّئهم بما في قلوبهم ويحذرون من ذلك؟ فالجواب: **أولاً**: هذا حذرٌ أظهره المنافقون لا عن عقيدة حقيقية بل على وجه الاستهزاء. **ثانيًا**: أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول إلا أنهم شاهدوا أن الرسول ﷺ كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم. **الثالث**: أنهم كانوا يعرفون كونه رسولاً صادقًا من عند الله تعالى، إلا أنهم كفروا به حسدًا وعنادًا[2].

وقد أثبتت التجربة أن الحسود ينكر الحقائق المحسوسة. وفي زماننا هذا عندما قُمنا ببيان مقدار من حقائق الدين، فإن كثيرًا من مخالفينا كانوا يعلمون أن الحقّ معنا ورغم ذلك لم يكفُّوا عن مخالفتنا

١- **مسند أحمد**، ٣/ ٤٣٥. وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه: **إسناده ضعيف لانقطاعه**. وأخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، ١/ ٢٨٦، رقم (٨٣٩)، قال الهيثمي (١٠/ ١٩٩): «فيه محمد بن مصعب وثَّقَهُ أحمد وضعَّفَهُ غيرُهُ وبقيةُ رجاله رجال الصحيح» انتهى. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٤/ ٢٨٤، رقم (٧٦٥٤) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى فى **شعب الإيمان**، ٤/ ١٠٣، رقم (٤٤٢٥) وقال العجلونى (٢/ ٧٦): سنده ضعيف.

٢- هذه الوجوه الثلاثة مستفادة من تفسير **مفاتيح الغيب** للفخر الرازي ذيل تفسيره للآية المذكورة.

حسدًا وعنادًا، وقد وقع المنافقون في الكفر بسبب حسدهم، كما ذُكِر في الآية، ولذلك بعد عودتهم من غزوة تبوك أراد جماعة من المنافقين تجفيل (أي تهييج) جمل النبيّ ﷺ عندما كان يسير في عقبة[١] [جبليّة] كي يقع النبيُّ في الهاوية ويُقضى عليه، فأخبر الله رسوله ﷺ بذلك فأمر رسولالله ﷺ حُذيفة وعمارًا بأن يُحافظوا على جمله، وهناك أبرقت السماء فشاهد حُذيفة المنافقين وعرفهم ولكن رسول الله ﷺ لم يسمح له بإظهار أسمائهم، وربما أظهر أسماء بعضهم أحيانًا، ويُمكن أن يُستنبط من هذه الآيات أن الاستهزاء بالله وبرسوله ﷺ وبأحكام الله وتشريعاته يوجبُ الكفر.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٧-٦٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أن الامتناع عن الإنفاق في سبيل الدين دليلٌ على خلوِّ القلب من الإيمان ويدلُّ على الكفر والنفاق، إذ لو اعتقد الإنسان بشيء حقيقةً واهتم به لم يمتنع عن إنفاق المال لأجله.

ومعنى جملة: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أن الله تعالى -المُنزَّه والمُبرَّأ عن النسيان الحقيقيّ- لن يشمل المنافقين بتوفيقه ولطفه ورحمته، وستكون معاملته للمنافقين يوم القيامة مثل معاملة من نسي الآخر.

١- المقصود من العقبة: طريق جبليّ ضيق على حافة واد.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠].

الفوائد: ذكرَ اللهُ تعالى في هذه الآية ستَّةً من الأقوام الذين أهلكهم لأن مساكن أولئك الأقوام جميعهم كانت في الحِجَاز وكان أهالي الحجاز يرون آثار تلك الأقوام البائدة.

ومعنى ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ المدن التي قُلِبَتْ رأسًا على عقب وهي مدن لوط عليه السلام.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن اللذات المعنوية والنشاط الروحي أكبر من اللذات الجسمية.

والرضوان هو رضا الله عن العبد. وما أسعد الإنسان وما أعظم شعوره بالبهجة واللذة عندما يعلم أن الحقّ تعالى راض عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٣-٧٤].

الفوائد: تختلف مجاهدة المؤمنين للمنافقين عن مجاهدتهم للكفار. فمجاهدة المنافقين تكون بذكر الأدلة والبراهين وبالمناقشة والموعظة والتخويف. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا**

ظهرت البدعُ فليُظْهِر العالمُ علمَه وإلا فعليه لعنةُ اللهِ»[١]. وينبغي على المسلم أن يُعامل الكافرين والمنافقين بالشدة والغِلظة ولا يُظهر لهم اللين والبشاشة. ويُعدُّ أهل البِدعة من جملة المنافقين[٢].

ورغم أن المنافقين كانوا جميعًا يُظهرون الإسلام ويُؤدُّون الصلاة ويصومون، إلا أن اللهَ اعتبَرَهم كفارًا بسبب تفوُّهِهِمْ بكلامٍ فيه تحقيرٌ للنبيّ ﷺ واستهزاء به، أو بسبب إنكارهم أمرًا من أوامره ﷺ.

والمُراد من جملة: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ الإشارة إلى أصحاب العقبة الجبليّة الذين كمنوا لرسول الله ﷺ في إحدى المضائق الجبليّة في طريق عودته من تبوك نحو المدينة، وعزموا على أن يُشمسوا (يُجفِلُوا) ناقة رسول الله ﷺ لترميه في الوادي فيقتلوه بهذه الطريقة، لكنهم لم ينجحوا في هذا المسعى ولم ينالوا ما همّوا بفعله.

وجاء ضمير عبارة ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ مفردًا لأنه يعود على الله والغرض دفع توهم بعض البُلهاء الذين قد يتصوَّرون أن رسول الله ﷺ أيضًا مثل الله يُمكن أن يُغني أحدًا، في حين أن كلَّ من غَنِيَ فإنما غَنِيَ بفضل الله وحده، وليس للنبيّ صفة الله. وإن كان النبيّ ﷺ قد أعطى المسلمين من الغنائم الحربية فإنما فعل ذلك بأمر الله ولم يكن مالكًا لشيء حتى يُعطيه لأحد، ولذلك: «لما سمع رسول الله ﷺ خطيبًا يقول: «**مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى**»، **قال له** ﷺ: **بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ! قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ!**»[٣].

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥

١- أخرجه الحافظ الديلمي في **مسند الفردوس**، ونحوه الحافظ ابن عساكر في **تاريخ دمشق** (٥٤/ ٨٠).

٢- لا يخفى ما في هذا التعميم من مُغالاة ومجانبة للواقع ولم يقل بذلك أحد من علماء الأمة، إذ ما من فرقة إلا ولديها بعض البِدع فعلى قول المؤلف تكون أمة الإسلام كلها منافقة تظهر الإيمان وتبطن الكفر بالله واليوم الآخر!! فلا يبقى مسلم على وجه الأرض! وقد اتفق العلماء على الرواية عن أهل البدع - غير المكفِّرة - إذا كانوا من أهل الصدق والأمانة.

٣- أخرجه مسلم في **صحيحه** رقم (٨٧٠)، رقم (٢٩٥٧٤) ، وأحمد في **المسند**، ٤/ ٢٥٦، رقم (١٨٢٧٣).

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨].

الفوائد: على الإنسان أن يقنع بما أعطاه الله، وأن يكون راضيًا عن ربّه وخالقه، وأن لا يطلب الزيادة برغبة. قال رسول الله ﷺ: «عاقبة الثروة في مظانّ الخطر». وقد روى الـمُفسّرون ذيل الآيات الـمذكورة أعلاه أنها نزلت بحقّ ثعلبة بن حاطب الذي كان يأنس بالزهد والعبادة، فجاء مرةً إلى رسول الله ﷺ يشتكيه فَقْرَهُ قائلاً: يا رسول الله! ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فوعظه النبيُّ ﷺ وقال له: إن عاقبة الغنيّ في خطر! وقال له ﷺ: «**يا ثعلبة! قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ**»، وأنا أرى أن عاقبة الفقر إلى خير، وعاقبة الغنى مظنة الشر، واقتدِ برسول الله ﷺ. لكن مواعظ النبيِّ لم تُجدِ معه نفعًا إذ عاد ثانيةً وسأل النبيَّ أن يدعو له أن يرزقه مالاً وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ولأصلنَّ به الرحم، وألَحَّ إلحاحًا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً كما يرغب! فاستجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فبارك الله له في أغنامه القليلة فزادت ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به الـمدينة فتنحَّى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحَّى بها وكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحَّى بها بعيدًا عن الـمدينة فكان لا يشهد جمعةً ولا جنازةً مع رسول الله ﷺ، فجعل يتلقَّى الركبان ويسألهم عن الأخبار. وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه وقال: ما فعل ثعلبة وما الذي يمنعه من الصلاة معنا؟ فأخبروه أن غنمه كثرت حتى لم يَعُد وادي الـمدينة يتَّسِع لها، فابتعد نحو وادٍ بعيد عن الـمدينة، فقال رسول الله ﷺ: **ويح ثعلبة بن حاطب!** ثلاث مرات. ولما نزلت آية الزكاة [أي الآية ٦٠ من سورة التوبة وتُعْرف بآية الصدقات]، بعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذانها، وقال لهما: «مُرَّا بثعلبة بن حاطب، و[بفلان]، رجلٍ من بني سليم فخُذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فغلب عليه حب الـمال ودفعه إلى عصيان أمر النبي ﷺ

فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، ولم يعط زكاة ماله، وقال لهما: انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما هذه عليك. قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فَمَرَّا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي.

قال فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أنْ يُكَلِّماه قال: **يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة!** ثم دعا للسلمي بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ... (إلى قوله)... وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾. وكان عند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة، سمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: إن الله عز وجل منعني أن أقبل منك صدقتك، لأنك اعتبرت الزكاة جزيةً، فنهض وصاح وجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك وقد أمرتك ونصحتك وقلت لك اصبر على الفقر ولا تطلب الثروة فلم تطعني فابتُليتَ بهذا الأمر، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله يائسًا.

وقُبِض رسول الله ﷺ، فأتى أبا بكر فقال: اقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ثم أنا أقبلها؟ فقُبِض أبو بكر ولم يقبلها. فلما وَلِيَ عمر أتاه فقال: اقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر، أنا أقبلها منك؟ إلى أن هلك ثعلبة[1].

١- أصل هذا الحديث الطويل أخرجه بلفظ مقارب دون بعض الزيادات التي أوردها المؤلف: الطبري، **جامع البيان،** ١٤ / ٣٧٠-٣٧٢، والبغوي، **معالم التنزيل،** ٤/ ٧٧، والواحدي، **أسباب النزول،** ص ٢٩٠-٢٩٢، وابن الأثير، **أسد الغابة،** ١ / ٢٨٤-٢٨٥، وأشار إلى أنه مُخَرَّجٌ عن ابن منده وأبي نعيم وابن عبد البرّ القرطبي في **الاستيعاب،** ١٠ / ٢١٠، وعزاه الهيثمي في **مجمع الزوائد** إلى الطبراني وقال: «فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك». وعزاه السيوطي في **الدر المنثور،** ٤ / ٢٤٦ والهيثمي في **مجمع الزوائد،** ٧ / ٢١ للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في **الأمثال** وابن مردويه وأبي نعيم في **معرفة الصحابة،** وابن عساكر. ومعان بن رفاعة السلمي: لين الحديث، وعلي بن يزيد: ضعيف بمرة. فالخبر ضعيف. قال فيه ابن حجر: «وهذا إسناد ضعيف جدا». وضعف القصة أيضًا

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة: ٧٩-٨٠].

الفوائد: إحدى كبائر الذنوب الطعن في الناس ولمزهم وتعييرهم، خاصةً إذا كان الطعن

الذهبي في ميزان الاعتدال، والسيوطي في أسباب النزول وغيرهم. وقال الشيخ محمود شاكر: «هو ضعيف كل الضعف -ليس له شاهد من غيره- وفي بعض رواته ضعف شديد». وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: «ضعيف جدًّا».

وفي كون المراد بالآية ثعلبة بن حاطب، لا يصح، فإنه صحابي جليل بدري باتفاق أهل السير والتراجم وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ». [صحيح مسلم، ومسند أحمد وصحيح ابن حبان وسنن الترمذي وابن ماجه] وحكى ﷺ عن ربه أنه قال لأهل بدر: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». [متفق عليه] قال ابن حجر: «فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه وينزل فيه ما نزل». قال القرطبي في تفسيره: «ثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، فما روي عنه غير صحيح». وقال ابن حزم في المحلى: «الأثر الذي روي أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب لا يصح، وباطل لأن ثعلبة بدري معروف». وثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، الذي شهد بدرًا، قُتِلَ في غزوة أحد، وفي هذه الرواية أنه هلك في عهد عثمان، فتأكد أنه ليس هو ثعلبة بن حاطب البدري. ثم إنه لم يعرف أن الرسول ﷺ رفض قبول توبة تائب، نادم منيب، بل إن هذا مخالف صراحة لما هو معلوم من الدين بالضرورة من قبول توبة العبد إذا تاب. وقد قبل الرسول ﷺ توبة من هو أشد كفراً.

فتبين مما سبق أنه ليس ثعلبة بن حاطب البدري رضي الله عنه بل هؤلاء صنف من المنافقين ينتحلون الصفة المذكورة في الآية، كما ذكر الحافظ ابن حجر: «أن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [التوبة: ٧٥] قال: هؤلاء صنف من المنافقين فلما آتاهم ذلك بخلوا فأعقبهم بذلك نفاقاً إلى يوم يلقونه ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو، كما أصاب إبليس حين منعه التوبة». [المترجم. إضافة وتصرف من المُصحح]

واللمز لأُناس قاموا بعمل حسنٍ في الظاهر، فيُعَيّرونهم بدلاً من الثناء عليهم وشكرهم وترغيبهم وتشجيعهم على هذا العمل الحسن، وقد رُوي في ذيل هذه الآيات أنه لما حثَّ رسولُ الله ﷺ الناسَ على أن يتجهّزوا ويستعدّوا ويخرجوا نحو تبوك وينفقوا من أموالهم في هذا الصدد، «جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله! مالي ثمانية آلاف، جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ**»، وجاء عُمَر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عدي الأنصاري بسبعين وسقًا من تمر الصدقة، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة، أمَّا أبو عقيل فجاء بصاع من تمر، وقال: آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذت صاعين من تمر، فأمسكتُ أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر ربّي، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات. فقال المنافقون على وجه الطعن: ما جاؤوا بصدقاتهم إلا رياءً وسمعةً، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليُذكر مع سائر الأكابر، واللهُ غنيٌّ عن صاعه، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

ويُستفاد من الآية ٨٠ أن كل من أراد أن يغفر الله له ذنبه ويقضي له حاجته فعليه بالتوبة والعودة عن فسقه وكفره وإلا فإن وساطة رسول الله ﷺ له لن تفيده شيئًا. ويُستفاد منها أيضًا أن دعاء رسول الله ﷺ لا يُستجاب في جميع الأحوال، وبالطبع فإن الحق تعالى ليس تابعًا لرسوله ﷺ.

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾
فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ
طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ

١- الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**. ونحوه في **معالم التنزيل** للبغوي، ٤/ ٧٩، و**جامع البيان** للطبري، ١٤ / ٣٨٣-٣٨٨، و**الدر المنثور** للسيوطي، ٤ / ٢٤٩-٢٥٠.

إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨١-٨٤].

الفوائد: المقصود من كلمة ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلِّفين عن الخروج إلى غزوة تبوك وقد سماهم الله تعالى ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ نظرًا إلى أن رسول الله ﷺ نفسه هو الذي تركهم ولم يُرِدْ أن يخرجوا معه إلى الجهاد لأنهم لو حضروا مع المسلمين لأوقعوا بينهم الفتنة والفساد.

وجملة ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ إحدى الإخبارات بالغيب لأنه بعد غزوة تبوك لم يخرج رسول الله ﷺ إلى أي غزوة أخرى، ثم أدركته الوفاة، ولم يتوفَّق المنافقون بعدها للجهاد معه ﷺ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أنه لا تجوز صلاة الجنازة على الميت الكافر، ومفهوم الآية أنه يجب صلاة الجنازة على الميت المسلم، كما تدل جملة ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بمفهومها أنه يجوز الوقوف والدعاء على قبر المسلم.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ

تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٨٥-٩٢].

الفوائد: المقصود من عبارة ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أن لا يقوموا بنشر الأراجيف، وأن يسعوا في خير المجاهدين وأن يهتموا بحاجات بيوت المجاهدين ومساكنهم، وأن يعملوا على إصلاح زاد وعتاد المجاهدين، وأن لا يألوا جهدًا في القيام بمثل أعمال الخير هذه.

والمراد من جملة ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ الإشارة إلى الذين لم يكونوا يمتلكون الراحلة التي تحملهم في مثل ذلك الطريق الطويل والبعيد المؤدي إلى تبوك، كما لا يملكون القدرة الجسميّة على قطع كل تلك المسافة الطويلة سيرًا على الأقدام، وهؤلاء وإن كانوا فقراء أي لا يملكون مصروفهم اليومي، ولكن يُستَفاد من جملة: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أن الآية نزلت في فقراء كانوا يملكون نفقتهم اليومية أيضًا.

﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة: ٩٣-٩٤].

الفوائد: إذا أعلن الإمام نفير الجهاد وجب على جميع المسلمين الخروج إلى الجهاد سوى من استثنتهم الآيات السابقة. ورغم ذلك كان هناك أناس أغنياء قادرون على الجهاد ومع ذلك تخلَّفوا ولم يخرجوا، لأنهم كانوا من المنافقين لا يؤمنون بالجهاد الإسلامي؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات في ذمِّهم وتقبيح عملهم.

هذا ولما عاد رسول الله ﷺ من تبوك سالـمًا غانمًا، ولم يكن المنافقون يصدِّقون أن يعود جيش المسلمين من لقاء الروم سالـمًا، جاء أولئك المنافقون يعتذرون عن تخلُّفهم بألسنتهم، أي أن اعتذارهم كان لقلقةً باللسان فقط وليس من القلب بل قلوبهم منكِرة. وفي هذه الآيات يقول اللهُ تعالى لرسوله ﷺ: إذا جاءك هؤلاء المنافقون يعتذرون فقل لهم: لا تعتذروا فقد نبَّأني الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ الَّتِي تُسِرُّونَهَا فِي ضَمَائِرِكُمْ، وَهِيَ مُخَالِفَةٌ لِظَوَاهِرِكُمُ الَّتِي تَعْتَذِرُونَ بِهَا، وعن

قريب سيرى اللهُ ورسولُهُ عملكم. إذن هذه الخطابات المتعددة: ﴿أَخۡبَارِكُمۡ﴾، ﴿لَكُمۡ﴾، ﴿عَمَلَكُمۡ﴾ تعود كلُّها على المنافقين لا على المؤمنين ولا على سائر المسلمين الذين سيأتون بعد زمن طويل من وفاة رسول الله ﷺ.

وللأسف فقد جاء جماعةٌ من الأُمِّيِّين الجهلة والمحدِّثين السُّذَّج أو المغرضين، وتلاعبوا بمعاني القرآن وجعلوا الخطابات في هذه الآية موجَّهةً إلى جميع المسلمين ووضعوا أحاديث مضادَّة للقرآن تقول: إن رسول الله ﷺ مُطَّلِعٌ على أعمال جميع المسلمين، وأن أخبار المسلمين جميعهم تصل إلى رسول الله ﷺ، وقد قالوا بذلك ليثبتوا هذا المقام المخترع للأئمة بعد الرسول ﷺ، ويجعلوا الأئمة عليهم السلام مطلعين على أعمال الناس العادية وأن الإمامَ يعلمُ أعمالَ جميع الناس، هذا مع أن هذه الآية لا تتعلَّق بما قالوه أصلاً، بل المُخَاطَب فيها هم المنافقون والله يقول لهم: في المستقبل القريب سنرى أنا ورسولي أعمالَكم. ويبدو أن لدى الغلاة مهارةً وأغراضًا كثيرةً في التلاعب بمعاني القرآن وتفسير آياته وتأويلها حسب أهوائهم، كما فعلوا في التلاعب بمعنى الآية ١٠٥ التي ستأتي في هذه السورة.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة:٩٥-٩٩].

الفوائد: تُطلَق كلمة «**الأعراب**» و«**الأعرابي**» على ساكني الصحراء وعلى البدو الرُّحَّل الذي يتجوَّلون في الصحراء [بحثًا عن المرعى والكلأ]. أما «**العربي**» فهو اسم لساكني المدن [من العرب]، ولذلك إذا قُلتَ لشخصٍ ما: يا عربي! سُرَّ من ذلك، أما إذا قلت له: يا أعرابي! غضب

من ذلك. وقد قال رسول الله ﷺ: «**حُبُّ العَرَبِ مِنَ الإِيمَانِ**»[١]؛ ومحبة العرب سببها أن كلام الله نزل بلغتهم، ويجب أن تصبح اللغة العربية لغة المسلمين العالمية. وسُمِّيَ العربُ عربًا لأن لغتهم «**مُعَرَّبَةٌ**» (بتشديد الراء وفتحها)، وأيضًا لأنَّ لغتهم «**مُعْرِبَةٌ**» (بتخفيف الراء وكسرها)؛ أي أن ما في ضمير الإنسان يظهر بواسطة هذه اللغة، لأن لغة العرب فصيحة ويستطيع المتكلِّم أن يعبِّر بواسطتها عن كلِّ ما في ضميره.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

الفوائد: السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ في الإيمان والهجرة ونصرة رسول الله ﷺ هم الذين هاجروا إلى الحبشة أو هاجروا إلى المدينة والصحابة الذي شهدوا معركة بدر. والمقصود من الأنصار المسلمون من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة في منى ودعوه إلى الهجرة إلى المدينة، وكذلك الذين كانوا يسكنون في المدينة، ونصروا رسول الله ﷺ وسائرَ المسلمين وآووهم ولم يمتنعوا عن الإيمان وعن نصرة المسلمين.

١- جملةٌ من حديث أطول، رواه الحاكم في **المستدرك** (٤/ ٨٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، لكن الذهبي علَّق عليه في **التلخيص** قائلًا: «الهيثم بن حماد متروك». ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٨/ ٢١٥) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك». انتهى. قلتُ: رواه الطبراني في **الأوسط** عن أنس، وابن عساكر في **تاريخ دمشق** عن جابر. انظر جلال الدين السيوطي، **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**، الأحاديث رقم (٥٧٨٣) و(٥٧٨٥) و(٥٧٧٩). وضعَّفه الألباني (٢٦٨٣ و٢٦٨٤)، والأولى أن يُقال بأنه موضوع لأن في سنده متروك، ولمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولقوله ﷺ في حجة الوداع: «أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ... إِلَّا بِالتَّقْوَى». أخرجه أحمد في **المسند** عَنْ أَبِي نَضْرَةَ (٥/ ٤١١) وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٥٦٢٢): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ» انتهى. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي **الْأَوْسَطِ وَالْبَزَّارُ** بِنَحْوِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٣٠٧٩): «وَرِجَالُ الْبَزَّارِ رِجَالُ الصَّحِيحِ». انتهى.

وقد مدحهم الله بكل صراحة في هذه الآية، ووعدهم الجنة جميعًا، وشملهم برضوانه أجمعين، وَمِنْ ثَمَّ فلا يجوز لأحد أن يسُبَّهم أو يشتُمَهم. وإن كان قد بدر منهم عملٌ سيِّئٌ فحسابهم على الله ولا علاقة للمسلمين الذين جاؤوا بعدهم بذلك.

وللأسف، فإن جماعة من أهل زماننا ممن لا علم له بأحكام الإسلام وتعاليمه، لا عمل لهم في مجالسهم ومحافلهم إلا سب المهاجرين الأولين وأنصار رسول الله ﷺ والإساءة إليهم. فعلى المسلمين أن يستيقظوا ولا يعملوا بما يرضي الاستعمار وأن يمنعوا هذا العمل، وأبرزُ الشخصيات من المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين: هم الخلفاء الراشدون الأربعة، وإن كانت قد حصلت بينهم بعض الاختلافات الجزئية (رغم أنه لم يكن بينهم خلافات بالتأكيد)، فهم أعلم بها، وحسابهم في ذلك على الله. وواجب المسلمين في هذا الصدد هو ما أمرت به الآية العاشرة من سورة الحشر فقط أي قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة: ١٠١-١٠٢].

الفوائد: كَانَتْ مَنَازِلُ قَبَائِلِ مُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَغِفَارَ حَوْلَ الْـمَدِينَةِ، وكانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، وَكان مِنْ أَهْلِ الْـمَدِينَةِ نَفْسِهَا أَيْضًا كثيرٌ من الـمُنَافِقِينَ [مِنَ الْأَوْسِ وَالْـخَزْرَجِ]، وكلُّ هؤلاء، طبقًا لهذه الآية، لم يكن يعلمهم رسول الله ﷺ، فقول الذين يدَّعون أن رسول الله ﷺ يعلم كلَّ شيء ويعلم جميعَ أحوال الناس، قولٌ باطلٌ.

والعجيب أننا نجد في زماننا مَنْ يَعْتَبِرُ أتباعَ حزب أو جماعة يربو عددهم على مليوني

شخص[1] منافقين جميعًا! مع أن من يعتبرهم كذلك لا يعرف أفراد تلك الجماعة ولا أسماءهم، فإذا كان رسول الله ﷺ لا يعرف [جميع] المنافقين، فكيف أمكن لهؤلاء أن يعرفوا كل أولئك الناس ويحكموا عليهم جميعًا بالنفاق دون أن يروهم؟! وهم لا يحكمون عليهم بذلك إلا تقليدًا لمرجعهم الذي لا اطلاع له على الأمر.

والمقصود من جملة ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ القول بأنه كما كان أجر المهاجرين والفدائيين الأوائل والرُّوَّاد كبيرًا كذلك يكون عذاب من هم سابقون في النفاق كبيرًا، ومرتين معناها الضعف أي ضعف العذاب، أو أن نقول: إن الله يبتليهم في الدنيا بالمرض ومرضُهم يؤدِّي إلى كفرانهم كما أن الله يفضحهم ويُكلِّفُهم بالصلاة والزكاة مع أنه لن يكون لهم ثواب عليها، وعندما يرحلون عن الدنيا يُعذَّبون كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، ثم بعد كل ذلك يصيرون إلى عذاب الآخرة الذي هو أكبر، وينبغي أن نعلم أن للمنافقين علامات تُميِّزُهم عن المهاجرين والأنصار، وقد ذُكرت علامات المنافقين في هذه السورة.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٣-١٠٤].

الفوائد: اخْتُلف في المراد من الصدقة هنا لكن الظاهر حملها على الزكاة الواجبة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أنه يجب على إمام المسلمين وحاكمهم أن يُرسل موظفين لجباية الزكاة. وتدلُّ كلمة ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ على وجوب أخذ بعض أموالهم، وهذا البعض هو الذي كان رسول الله ﷺ يأخذه من العُشر أو الخُمس أو نصف العُشر أو ربع العُشر حسب اختلاف الأجناس، كما أن الآية ظاهرةٌ في وجوب الأخذ من عينِ الأموال لا من قيمتها.

وتدلُّ كلمة ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أن المالَ هو مال المُزكِّي لا أنه جزءٌ من مال من تُصرَف إليه الزكاة

١- يبدو أنه يقصد أتباع منظمة سياسية سرية معارضة في إيران تُدعى «منظمة مجاهدي الشعب». ومن الواضح أن وصمهم بالمنافقين سياسيٌّ وليس المقصود منه النفاق الديني الاصطلاحي.

أي الفقير، كما تدلُّ العبارة على أن الزكاة واجبةٌ في ذمّة المالك، فإذا تلف مقدار النصاب بقي في ذمّته وعليه أن يُعطي بدلاً منه. وتدل أيضًا على وجوب أن يُعطي المالك زكاة ماله ولو كان مديونًا للغير لأن المال حاليًا ماله ولو كان قد اقترضه. وأخيرًا تدلُّ هذه الكلمة على أن الزكاة واجبةٌ في جميع الأموال لأن كلمة ﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ جمعٌ مضاف يُفيد العموم ولا ينحصر بما ذكره الفقهاء [من الأجناس التسعة].

وَيَدُلُّ فعل ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ على أن المالك يجب أن يكون بالغًا عاقلاً كي يُطهَّرَ من إثم البخل، أما الطفل أو المجنون فلا يصدق عليهما التطهير من الآثام.

ومعنى ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ يختلف عن معنى ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ لأن المعطوف لا بدّ أن يكون غير المعطوف عليه، فكلمة ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ يُقصد بها تطهيرهم من حبّ المال والبخل في الإنفاق، وكلمة ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ يُقصد بها تطهير المال من خلال زيادته ورفع الدرجات وكسب الحسنات.

وَتَدُلُّ جملةُ: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن على جابي الزكاة أن يدعو لمن أدَّاها كأن يقول له مثلاً: «**آجرَكَ اللهُ فيما أعطيتَ، وَبَاركَ لكَ فيما أبقَيتَ**»، ويُستفاد من هذه الآية جواز الصلاة على المؤمن (أي أن يقول الشخص عن مؤمنٍ ما أيًّا كان: صلى الله عليه)، وقد جاء في سورة البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أن الآخذ الحقيقي للزكاة والصدقات هو اللهُ تعالى، ولا منّة على الفقير أو على العامل، رغم أن رسول الله ﷺ أو آخرين كان يجبون الزكاة ولكنهم لما كانوا يفعلون ذلك بأمر الله تعالى، وبحضوره، كان الآخذ الحقيقي هو الله، والآخرون مباشرون للأخذ فقط.

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥].

الفوائد: جملة ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ...﴾ إلى آخر الآية أفضل كلام جامع في الترغيب والتخويف للمطيعين والعاصين، ويُفيد أن الله مُطلع على أعمالكم كلِّها وسلوككم كلِّه وكذلك رسوله ﷺ

والـمؤمنون. وليس الـمقصود رؤيتهم أثناء قيامهم بالأعمال حتى يستشكل بعضهم ويقول: كيف يرى الـمؤمنون أو رسول الله ﷺ أعمال الناس رغم أن تتبع كثيرٍ من أعمال الناس حرام؟ بل الـمقصود أن الله سَيَزِنُ أعمالكم ويُجازيكم عليها، أما بالنسبة إلى الرسول ﷺ والـمؤمنين فالـمعنى وصول الخبر إليهم. كما قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ رَجُلاً عَمِلَ عَمَلاً فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ**»[1]. فإذا قام شخص بعملٍ ما «**قُرْبَةً إلى اللهِ**» ولو كان العمل مخفيًا أظهره الله. ودليلنا على هذا التفسير هو حرف «**سين**» في كلمة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ التي تدلُّ على الاستقبال، لأنه لو أُريد رؤية عملهم حال قيامهم به لما احتاج الأمر إلى حرف «**سين**». فإن قال قائل: إذن، إذا كان الله سيحاسب الإنسان على عمله ويجزيه عليه في الـمستقبل فما فائدة إخبار الرسول ﷺ والـمؤمنين بهذا الأمر؟ فالجواب من وجوه:

أولاً: أن أجدر ما يدعو الـمرء إلى العمل الصالح ما يحصل له من الـمدح والتعظيم والعزّ الذي يلحقه عند ذلك، فإذا علم أنه إذا فعل ذلك الفعل عظَّمه الرسول والـمؤمنون، عظم فرحه بذلك وقَوِيَتْ رغبته فيه.

ثانيًا: ومما ينبه على هذه الدقيقة أنه ذَكَرَ رؤية الله تعالى أولاً، ثم ذَكَرَ عقيبها رؤية الرسول عليه السلام والـمؤمنين، فكأنه قيل: إن كنت من الـمحقِّين الـمحققين في عبودية الحق، فاعمل الأعمال الصالحة لِلَّهِ تعالى، وإن كنت من الضعفاء الـمشغولين بثناء الخلق فاعمل الأعمال الصالحة لتفوز بثناء الخلق، وهو الرسول والـمؤمنون[2].

ثالثًا: إذا اطَّلع الرسول والـمؤمنون على عمل العبد شهدوا له بذلك يوم القيامة طبقًا لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:

١- رواه بلفظ قريبٍ جدًّا الإمام أحمد في **مسنده**، ٣/ ٢٨، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف. ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٠/ ٢٢٥) وعزاه لأحمد في مسنده و**أبي يعلى في مسنده** وقال: «إسنادهما حسن». انتهى. وأخرجه ابن حبان في **صحيحه**، ١٢/ ٤٩١، رقم (٥٦٧٨) ، والحاكم في **الـمستدرك**، ٤/ ٣٤٩، رقم (٧٨٧٧) ، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في التلخيص على تصحيحه.

٢- هذان الوجهان مستفادان من تفسير **مفاتيح الغيب** لفخر الدين الرازي، ذيل تفسيره الآية .

٤١]. فإذا علم العبد أن الأولين والآخرين سيطَّلِعون على أعماله يوم القيامة بذل مزيدًا من السعي والجهد في الأعمال الصالحة واجتنب الأعمال السيِّئة.

من هذا البيان يَتَبَيَّنُ أن المؤمنين لا يرون أعمال المؤمنين الآخرين أثناء قيامهم بها ولا رسول الله ﷺ يراها كذلك، فالروايات الموضوعة التي تقول: إن المقصود من المؤمنين في الآية هم الأئمَّة عليهم السلام الذين يشاهدون كل إنسان أثناء عمله لا تعدو أقاويل باطلة تُضادّ العقل والقرآن، لأن القرآن نهى عن التجسُّس وتتبُّع ذنوب الآخرين وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: ١٧]. وأما عقلاً فلا يُمكن لعبدٍ من العباد أن يكون في مكانين ويشاهد أعمال شخصين في زمنٍ واحد، فضلاً عن أن يكون في أماكن عديدة، ولو اطلع الأئمة على أعمال العباد لأصابهم الغمّ والحزن ولصارت الآخرة بالنسبة إليهم دار الغُصص بدلاً من دار السلام.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾ [التوبة: ١٠٦].

الفوائد: اعلم أن الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك كانوا ثلاث فئات: الفئة الأولى: المنافقون الذين مردوا على النفاق وماتوا عليه. الفئة الثانية: الذين تابوا وذكرهم الله بقوله في الآية ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾. الفئة الثالثة: الذين لم يُسارعوا إلى التوبة ولكنهم ندموا وظلُّوا بلا مصير محدَّد فهذه الآية نزلت بشأنهم. وقد أعرض عنهم رسول الله ﷺ ونهى المسلمين عن مجالستهم، وأمر نساءهم أن تجتنبهم، فجاءت زوجة أحدهم ويُدعى «هلال [بن أميَّة]» وكان رجلاً مُسِنًّا، فاستأذنت رسولَ الله ﷺ في إطعام زوجها فأَذِنَ لها. حتى أن المشركين كتبوا إلى هؤلاء يقولون: تعالوا التحقوا بنا، وبعض هؤلاء المُتخلِّفين بكوا حتى أُصيبت أعينهم بالأذى، وقاطعهم الناس مقاطعة تامة وجفاهم رسول الله ﷺ حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحُبَتْ، ثم قُبلت توبتهم بعد خمسين يومًا من هجر النبيّ ﷺ والمسلمين لهم. وكانت إحدى علامات النفاق هذا التخلف عن غزوة تبوك الذي كان المهاجرون والأنصار بريئين منه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

__الفوائد__: المسجد هو مكان اجتماع المسلمين للعبادة، وَمِنْ ثَمَّ إذا كان هناك مسجدٌ في حيٍّ فلا يجوز أن يُبْنى إلى جانبه مسجدٌ آخر لأن ذلك سيؤدّى إلى الفُرقة بين المسلمين، خاصةً في المدينة التي كان رسول الله ﷺ فيها وكان من الواجب على المسلمين جميعًا أن يحضروا في مسجد الرسول ﷺ ليجتمعوا إليه ويسمعوا منه. وقد قام المنافقون في زمن رسول الله ﷺ بإحداث كثير من المشاكل والإخلال في أمور المسلمين، ومن جملة ذلك أن اثني عشر نفرًا منهم أرادوا بناء مسجد بحُجّة أن بيوتهم بعيدةٌ عن مسجد الرسول وأن الليل مظلمٌ وأن بعض الليالي تكون ممطرةً، وأرادوا أن يجعلوا ذلك المسجد قاعدةً للنفاق والتفرقة، ومن جملتهم: «أبو عامر الراهب، [وسماه رسول الله ﷺ الفاسق]، وكان قد تنصَّر في الجاهلية وترهَّب وطلب العلم، فلمَّا خرج رسول الله ﷺ عاداه، لأنه زالت رياسته، وقال: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعِدُّوا بما استطعتم من قوَّة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا، فإنِّي ذاهبٌ إلى قيصر، وآتٍ من عنده بجند، فأُخْرج محمَّدًا وأصحابه. فبنى المنافقون هذا المسجد، وانتظروا مجيء أبي عامر ليُصَلِّي بهم في ذلك المسجد. وقالوا للنبيِّ ﷺ عند ذهابه إلى غزوة تبوك: يا رسول الله! بنينا مسجدًا لذي العلة والليلة الممطرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة. فقال ﷺ: إني على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه، فلما رجع من غزوة

تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾»[١].

وقد وصف اللهُ ذلك المسجد بأربع صفات: **أولاً**: ﴿ضِرَارًا﴾: أي أن فيه إضرارًا بالمسلمين وأذىً لهم. **ثانيًا**: قوله: ﴿وَكُفْرًا﴾ أي فيه تقويةٌ للكفر. **ثالثًا**: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يبثُّ التفرقة بين المسلمين. **ورابعًا**: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أنه بمثابة خندق وكمين يتجمَّع فيه أعداء الإسلام.

ومن القدر أن معظم مساجدنا اليوم سبب للتفرقة وترويج الكفر والشرك ونشر العقائد المضادّة للقرآن، وأصبحت خندقًا للمنافقين مثل الزوايا الصوفية التي يُدعى فيها غير الله، وجعلوها دكَّانًا لحزبٍ خاصٍّ.

والمرادُ من جملة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ مسجد قباء أو مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، وقد يكون كلاهما مرادًا، وقد بيّنت الآية صفتين حسنتين لهذا المسجد: **الأولى**: أنه أُسّس على التقوى أي أُسّس لأجل خشية الله ونيل رضاه، وبُني من المال الحلال. **الثانية**: أنه بُني بيد أشخاص مؤمنين طالبين لطهارة البدن والروح ويُحِبُّهم الله.

وكانت إحدى علامات المنافقين بناء مسجد الضرار، وكان المهاجرون والأنصار بريئون من هذا العمل.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ أنَّ الجهادَ

١- فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٦/ ص ١٩٨ - ٢٠٠.

معاملةٌ مع الله وأنَّ اللهَ تعالى أقرَّ هذه المعاملة في كُتُبِهِ المنزَّلة، فالمشتري: هو الله، والبائع: هو المؤمن، والدلال: هو رسول الله ﷺ، والبضاعة: هي النفس والمال، والثمن: جنّة الخُلد.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أن المؤمنين في الجهاد يَغْلِبون أحيانًا ويُغْلَبون أحيانًا أخرى، فعليهم إذا انتصروا أن لا يأخذهم الغرور وإذا غُلبوا أن لا يتملّكهم اليأس.

وتدلُّ أوصاف: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ...﴾ أن أهل الجهاد في الإسلام هم من يتَّصفون بهذه الصفات والكمالات المذكورة في الآية، وليس مثل دول الكفر التي تُرسل إلى ميادين الحروب كل من كان أكثر قسوةً وأشدّ كفرًا وأبعد عن الرحمة، لأن الجهاد الإسلامي هدفه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العدل والإيمان في المجتمع، وليس هدفه الفتوحات واستعمار البلدان.

ومعنى ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ حسب ما ذكره المُفسّرون: الصائمون، طبقًا لأحد المعاني اللغوية لكلمة السائحين. ويُمكن القول: إن الكلمة مشتقة من مادة السياحة والمراد بها الذين يُسافرون في الأرض طلبًا للعلم والجهاد أو للنظر في مخلوقات الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [التوبة: ١١٣-١١٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ أنه لا ينبغي على رسول الله ﷺ أن يطلب للمشركين المغفرة لأن وعدَ الله ووعيدَه لا يتغيران بطلبِ أيّ واحدٍ كان حتى لو كان الطلب من الأنبياء عليهم السلام، ووعدُ الحقّ تعالى لا يتخلَّف. وقال بعض المُفسّرين: إن المراد من المشركين في هذه الآية والدا رسول الله ﷺ وأعمامه. ولكن يجب أن نقول: أولاً: إن كلمة ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هنا عامّة ومطلقة. وثانيًا: ما الدليل على أن والدي الرسول ﷺ أو أعمامه كانوا

مشركين؟ وأساسًا ليس من اللائق ولا المناسب ذِكر والدي رسول الله ﷺ، ومثل هؤلاء المُفسّرين يبحثون عن الضوضاء والشوشرة وبثّ العداوة وإثارة البغضاء بين المسلمين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أن الله إنما يُعاقب ويُؤاخذ بعد البيان، وأنه لم يُرِدْ منا ترك شيءٍ لم يُبيّن لنا تحريمه، اللهم إلا أن يكون الأمرُ من بديهيات العقل ومما تُدركه عقول جميع العُقلاء استقلالاً أو يكون من العقائد [الفطرية] أيضًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٦-١١٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ...﴾ أن الله قَبِلَ توبة رسوله ﷺ. وهنا طُرِحَ إشكالٌ يقول: إنَّ رسول الله ﷺ لم يُذنب في هذا الأمر أساسًا حتى يتوب الله عليه ويغفر له ذنبه؟! والجواب: إن الله قال إنه غفر للمهاجرين والأنصار أيضًا وتاب عليهم أي قَبِلَ توبتهم مع أن المهاجرين والأنصار لم يكن لهم ذنب إلا عددٌ قليلٌ منهم ضاقت صدورهم وقلّ صبرهم وندموا على خروجهم إلى الجهاد وأرادوا العودة، أمَّا بقيّة المهاجرين والأنصار فلم يكن لهم ذنب، ومن الممكن أن يكون رسول الله ﷺ وجميع المهاجرين والأنصار الذين شاركوا في غزوة تبوك وتحملوا مشقات بالغة قد وقع كلٌّ منهم في شيء من قلّة الصبر والجزع. وكانت صعوبات غزوة تبوك من عدة جهات: أولاً: بُعد الطريق خاصةً لمن كانوا يسيرون على أقدامهم. وثانيًا: قلّة الماء. وثالثًا: انتهاء ما معهم من الزاد. وقد وصل بهم الأمر إلى أن كلَّ عشرة منهم كانوا يتناوبون على مصِّ التمرة الواحدة حتى لا يُهلكهم الجوع، ورابعًا: الحرّ الشديد.

والـمُراد من الثلاثة الذي تخلَّفوا عن الذهاب إلى تبوك ثم ندموا بعد ذلك: «كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ» و«هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ» و«مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ» الذين ضاقت عليهم الـمدينة بما رَحُبَت، وذهبوا إلى الجبال، وكان من يأتيهم بالطعام لا يُكلِّمُهُم، فقالوا لبعضهم البعض: إذا كان الناس لا يُكلموننا فتعالوا نبتعد عن بعضنا ولا يُكلم بعضنا بعضًا حتى يقبل الله توبتنا، فظلوا على هذه الحال خمسين يومًا حتى نزلت بشأنهم آية التوبة.

ولم يكن طعام أكثر الـمجاهدين في تبوك سوى دقيق الشعير والتمر الـمُدَوَّد وسمن البقر الذي تغيَّر طعمه، ولذا سُمِّي ذلك الجيش بجيش العُسرة، ورغم قلّة الـمركب كانوا يضطرون أحيانًا إلى ذبح جمل ويقومون بترطيب شفاههم من العطش بأحشائه وأمعائه.

تخلَّف أحد الـمجاهدين واسمه «أبو خيثمة» عن الخروج مع رسول الله ﷺ حتى مضت عشرة أيامٍ بعد مسير رسول الله، فعاد «أبو خيثمة» إلى أهله في يوم حارٍّ فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط قد رشَّت كلُّ واحدةٍ منهما عريشها وبرَّدَت له فيه ماءً وهيَّأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريشين فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله في الضحِّ[1] والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ وماءٍ باردٍ وطعامٍ مهيأٍ وامرأةٍ حسناء في ماله مقيم!؟ ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: لا والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضِحَهُ فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه بتبوك، فقال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل! فقال رسول الله: **كن أبا خيثمة!** فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبوخيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله. فقال له رسول الله: أولى لك أبا خيثمة! ثم أخبر رسولَ الله الخبرَ فقال له رسول الله خيرًا ودعا له بخير»[2].

وكذلك حال أبي ذر الغفاري الذي تخلف في بداية الأمر وأرهقه العطش، وسار إلى رسول الله ﷺ فرأى وهو سائر حفرةً فيها ماء، فلم يشرب منها بل قال سآخذ هذا الـماء إلى

١- الضحّ أي الشمس.

٢- ابن هشام، **السيرة النبويّة**، ٤/ ١٣٣ - ١٣٤. والبيهقي، **دلائل النبوة**، ٥/ ٢٢٢- ٢٢٣.

رسول الله ﷺ كي لا يصيبه العطش.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

الفوائد: أمر الله تعالى في هذه الآية كلَّ مؤمن أن يكون مع الصادقين أي يُصاحب الصادقين ويُرافقهم ويُوافقهم. قال بعض الشيعة: إن المقصود من ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هنا اثنا عشر إمامًا هم أئمة الشيعة الاثني عشرية! ولكن تخصيص الآية باثني عشر نفرًا لا دليل عليه، لأن الله تعالى قال في سورة البقرة:

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية عامة تشمل كل من اتصف بالصفات المذكورة فيها.

وقال تعالى في سورة الحجرات:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال في سورة الحشر واصفًا فقراء المهاجرين الذين نصروا الله ورسوله ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: ٨]. فالصادقون غير منحصرين باثني عشر شخصًا. يُضاف إلى ذلك أن الآية تدل على عظمة هؤلاء الصادقين وكمال صدقهم.

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أنه يجب على المسلمين أن يُحِبُّوا النبيَّ ﷺ أكثرَ من حُبِّهم لأنفسهم وأرواحهم وأن يُضحّوا بأرواحهم لأجله، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]. فعلى المؤمنين أن لا يتوانوا عن تقديم أموالهم وأنفسهم في سبيل الدين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ على أن الله يُعطي أجرًا عظيمًا على كُلِّ ألمٍ ومشقَّةٍ في سبيله وعلى كلِّ خطوةٍ وكلِّ درهم يُنفق في سبيله سواءً وقع القتال أم لم يقع.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ أن على المجاهدين أن يتقدَّموا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وأن يُسخِّروا أراضي الكفار ومدنهم.

وعلى كل حال، يُستفاد أيضًا أن مُقدمات الجهاد لها أجر مستقل عن الجهاد.

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ۝١٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٢-١٢٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ أنه يجب أن يكون هناك طائفة من المسلمين يشتغلون دائمًا بالجهاد وطلب علم الدين ويتعلمون آداب الجهاد والفقه في الدين، ثم يُعلّمون الآخرين ذلك.

ومعنى «**التفقُّه**» الفهم، فالتفَقُّه في الدين معناه فهم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والتعمّق فيهما. واستدلَّ بعض المجتهدين بهذه الآية على وجوب التقليد مع أن الآيَةَ دليلٌ على وجوب التفقُّه وتأكيدٌ على التعلُّم وليس فيها أي دليل على التقليد. ومعنى الآية أنه لا بدّ أن يكون هناك دائمًا طائفة من المسلمين يقومون بتعلُّم الدين وتعليمه للآخرين أي يجب أن يكون المسلمون دائمًا بين مُعلِّم ومُتعلِّم.

يقول بعض الضالين أيضًا: إنه كما يجب الرجوع في كل صنعة إلى الـمُتخصّصين فيها كذلك في الدين يجب الرجوع إلى الـمُجتهد بوصفه الـمُتخصِّص في الدين. والجواب ما يلي:

أولاً: ليس الـمجتهد مُتخصِّصًا في الدين خاصةً في الإسلام، ولذلك نجدهم زادوا ونقصوا في أصول الإسلام وفروعه وغيّروها.

ثانيًا: كل مُتخصِّص في أي عمل وصنعة لا بدّ له من شهادة وإجازة من جامعة مناسبة، ولكن الـمجتهدين ليس لديهم إجازة من الله في الإفتاء عنه، لا بل نهاهم الله عن ذلك ولم يُعطهم إذنًا خاصًّا لهم في مثل هذا الأمر بل جعل عامة الـمسلمين مسؤولين عن فهم أمور دينهم، فعليهم التفقُّه بشكل كافٍ ووافٍ بحد استطاعتهم في كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ حتى يترسَّخوا في العلم.

ثالثًا: من الـممكن في مسائل الصناعة والطب فهم الآثار التخصصية للمختَصِّين، أي يُمكننا أن نفهم أن الـمتخصِّص الفلانيّ صادق أم لا، فمثلاً إذا أعطى الطبيب دواءً أو حقنةً فإن تحسُّن حالة الـمريض يكشف لنا عن تخصُّص الطبيب وعلمه، أما إذا ساء حال الـمريض تبيَّنَ لنا عدم تخصص الطبيب، لكن آثار تخصُّص مُدّعي التخصُّص والعلم في الدين لا تظهر إلا في الآخرة!

رابعًا: الرجوع إلى الـمُتخصِّص يكون في الواجبات الكفائية لا في الواجبات العينية، وعلم الدين من الواجبات العينية.

خامسًا: قال رسول الله ﷺ «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، ولم يقل: التقليد فريضة على كل مسلم! ولمزيد من التوضيح حول هذا الأمر تُراجع الفقرة ٢٣ من مُقدمات هذا التفسير.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أن على الـمسلمين أن يبتَدِئُوا جهاد الكفار القريبين منهم ثم البعيدين أي يُجاهدوا **الأقرب فالأقرب** إلا إذا عقدوا معاهدةً مع الكفار القريبين منهم.

١- أخرجه ابن ماجه في **السنن**، ١/ ٨١، رقم (٢٢٤). قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف. ورواه كثيرون آخرون كالبيهقي في **شعب الإيمان**، ٢/ ٢٥٣، رقم (١٦٦٣)، وقال: هذا الحديث شبه مشهور، وإسناده ضعيف، وقد رُوِيَ من أوجهٍ كلُّها ضعيفةٌ.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٧].

الفوائد: كلُّ من قرأ آياتِ القرآن وسورَه وفهمها ازداد إيمانًا أي انضاف -في الحقيقة- شيءٌ جديدٌ لإيمانه، لأن علم الإنسان وإيمانه ينبغي أن يكتملا ببركة آيات القرآن، وهذه الزيادة والتكامل هي لأهل الإيمان كما بيّنت الآيات المذكورة أعلاه بصراحة، وأما المنافقون والمتاجرون بالدين الذين لا اهتمام حقيقي لهم بالقرآن والإسلام فإن سماعهم لآيات القرآن لا يزيدهم إلا خِسّةً وانحطاطًا، لأن الله، بسبب عدم اكتراثهم بكلامه، سلبَ منهم التوفيق إلى الهداية وخلّى بينهم وبين الضلال، وستكون مؤاخذتهم أشدّ، ولذلك كان المنافقون زمن رسول الله ﷺ كلما نزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ثم نهضوا وخرجوا غير مُكترثين بما سمعوه.

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أن محمدًا ﷺ من الناس ومن جنسهم، وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر مرات عديدة في كتابه كي يعلم الناس أن النبيّ ﷺ الذي نشأ فيما بينهم ورآه الكبير والصغير وشاهدوا صدقه وأمانته واستقامته ولم يشاهدوا فيه عيبًا أو كذبًا، يُمكنهم أن يقدروه حقَّ قَدْرِهِ على نحو أفضل خاصةً أن هذا الرسول يُسيئه ما يقع فيه الناس من مشقّة وعذاب ويُريد كلَّ الخير لهم، وهو حريصٌ على إيمانهم رؤوف ورحيم بهم. والرأفة أشدّ من الرحمة. ويجب أن نقول: إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم وبالعاصين رحيم فقط.

ويُستفاد من عبارة ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ عدم جواز الغُلوّ بحقّ رسول الله ﷺ، كما رُوِيَ عن حضرة الأمير عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:

«إن رسول الله ﷺ خرج على نَفَرٍ من أصحابه فقالوا له: مرحبًا بسيدنا وَمولانا! فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا ثم قال ﷺ: لا تقولوا هكذا وَلكن قولوا مرحبًا بنبيِّنا وَرسولِ ربِّنا، قولوا السَّداد من القول وَلا تغلوا في القول فتمرُقُوا»[١].

وتدلُّ جملة ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ أن رسول الله ﷺ كان يعتمد على الله لا على الناس، أي كان اعتماده وتوكله على ربّ العرش العظيم. فإذا كان الله يحفظ عرشه العظيم فمن باب أولى أن يحفظ رسوله ﷺ، والـمقصود من العرش: الحكم والسلطان على الكون كله[٢].

١- محمد بن محمد بن الأشعث، **الجعفريات** (ويقال له الأشعثيات أيضًا)، ص١٨٤.

٢- إن العرش في اللغة له أكثر من معنى؛ منها: سرير الملك أو الكرسي العظيم وسقف البيت وركن الشيء والمُلْك وغيرها. والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني المذكورة، هو سرير الملك؛ ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية قد جاءت معيِّنة لهذا المعنى وحدَه دون غيره من المعاني. فعرش الرحمن لا يشابهه شيء من عروش المخلوقين، ولا يعلم سعته وعظمته وكنهه ومادته إلا الذي خلقه -سبحانه وتعالى-، فلا نقول فيه إلا إذا ورد في القرآن الكريم وما صح عن الرسول ﷺ فيه، ولا نتجاوز عنهما. وقد خصّ الخالق سبحانه وتعالى عرشه العظيم بخصائص عديدة ميزته على كثير من المخلوقات الأخرى، وذلك لما للعرش من المكانة الرفيعة عنده عز وجل، وقد ذُكر عرش الرحمن في واحد وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، ومجيء ذكر العرش بهذا العدد يدل على ما له من مكانة ومنزلة عالية عند الخالق سبحانه وتعالى. فحسب تلك النصوص الواردة فيه:

١- أنّ العرش ليس موجودًا مجازيًّا أو تخييليًّا بل هو مخلوق -على الحقيقة- من مخلوقات الله تعالى، خلقه وأوجده وهو ليس كعروش المخلوقين بل عرش يليق به سبحانه وتعالى.

٢- أنّ خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧].

٣- أن العرش فوق السموات والأرض وأعلى منهما وهو كالسقف عليهما، بل هو سقف للجنة كما في حديث: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّه فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [صحيح البخاري].

٤- استواء الله عز وجل عليه: يعتبر استواء الله سبحانه وتعالى على العرش -كما يليق بجلاله دون تشبيه وتكييف- أعظم الخصائص التي اختص بها العرش. كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ۝٥﴾ [طه: ٥]. وكما قال تعالى في خمسة مواضِع: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤].

٥- العرش أعلى المخلوقات وأرفعها وأكبرها وأعظمها وأثقلها وأوسعها. ولا يقدر عظمته إلا الله جل وعلا. قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] فالله سبحانه وصف العرش في هذه الآية وغيرها بكونه عظيماً في خلقه وسعته. وغيرها من الصفات والخصائص التي ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة عن عرش الرحمن ﷻ.

وباختصار شديد، فإن العرش مخلوق عظيم من مخلوقات الله عزوجل على الحقيقة وليس على المجاز كما أشار إليه المؤلف رحمه الله.

أما تفسير الآية، فكما قال ابن كثير رحمه الله: «أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى». [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٤)] [المُصحح].

سورة يونس

مكية وهي مئة وتسع آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ١-٣].

الفوائد: كان أهل مكة يتعجَّبون كيف أن رجلاً مثلَهُم من جميع الجهات، علاوةً على أنه يتيمٌ وفقيرٌ وأُميٌّ ولا يمتاز عنهم بشيء، يكون نبيًّا! لذلك لم يقبلوا بنبوته. وهم في هذا كشأن أهل زماننا الذين يقولون: إذا لم يكن النبيّ عالـمًا بالغيب ولم يكن مخلوقًا من نور ولم يكن يرى خلفه كما يرى أمامه ولم يكن كذا وكذا فإننا لا نؤمن برسالته! من هذا يتبيّن أن أهل زماننا أسوأ من أهل الجاهلية، وأن التكبر لا يسمح للناس أن يُطيعوا رسولاً مثلهم من جميع الجهات. لكن الله ردّ عليهم بقوله: إنني جعلت هذا الرجل الذي هو مثلكم رسولاً وكل من ترك التكبر جانبًا وآمن به فقد وضع قدمه على طريق الحقّ وسار فيه.

والـمُراد من ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ مركز الأمر والنهي الإلهيين في عالـم الخليقة الذي استولى عليه الحقّ

تعالى ونفذ فيه أمره(١).

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ...﴾ أنه لا يوجد أي شفيع ولا شفاعة إلا بعد أن يُعيّن الله تعالى الشفيع ويأذن له بالشفاعة، ولمزيد من التوضيح حول موضوع الشفاعة يُراجع ما ذكرناه في التعليق على الآية ٢٥٤ من سورة البقرة.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ٤﴾ [يونس: ٤].

الفوائد: لا يفعل الله أعمالاً بلا غاية أو عبثية لأنه حكيم، فقد خلق العالم لغاية، وبيّنت هذه الآية تلك الغاية فذكرت أنه تعالى خلق العالم في البداية من العدم [ثم يُفنيه] ثم يُعيده في يوم القيامة لينال كل فرد جزاءه العادل. فالغاية النهائية من خلق العالم هي يوم القيامة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٨﴾ [يونس: ٥-٨].

الفوائد: الشمس ضياءٌ أي أنها مُشعةٌ بالنور، أما القمر فهو نورٌ. فضياء الشمس ذاتيٌّ وضياء القمر عرضيٌّ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ على التدبير والعلم وحكمة خالق العالم لأن ترتيب دوران القمر وحركته المنتظمة وزيادة النور ونقصانه على سطحه بشكل دقيق دليل على علم مُدّبره وحكمته.

---

١ - سبق بيان معنى العرش في الحاشية على تفسير المؤلف لآخر آية من سورة التوبة فراجعه ثمة.

والـمُراد من ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الدوران الانتقاليّ للقمر الثابت على نهج واحد لا يتغيّر على مدى ملايين السنين مما يُحيِّر العقول (وكذلك سير ودوران كل النجوم والكواكب)، والـمُراد كذلك: دوران القمر حول الأرض ودورانه الآخر تبعًا للأرض ومترافقًا مع دوران الأرض حول الشمس.

هذا وللقمر في مواجهة الشمس وضع ثابت دائمًا لا يتغيّر، أي أن نصف القمر دائمًا يُقابل الشمس فيعكس نورها، ونصفه الآخر في عكس اتجاه الشمس فيكون مظلمًا. ولما كان دوران القمر متوافقًا مع دوران الأرض لذلك فإن زيادة النور على سطح القمر ونُقصانه تبدو في نظر الناس مقابلة للأرض لا للشمس، إلى حدّ أنه في آخر ليالي السير الشهريّ يُصبح تمام نصفه الـمظلم مقابلاً للأرض فيُحجب عن الرؤية، إلى أن يظهر هلاله في بداية الشهر الجديد، وهذا الدوران الشهريّ لا يتخلّف أو ينحرف قيد أُنملة وباقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وتدُلُّ جملةُ: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ أن الحقّ تعالى جعل الشهر القمريّ منذ بداية تشكيل الـمنظومة الشمسية بهدف حساب الليل والنهار وغيره، وعدّ السنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: ٩-١٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ أن الله يهدي الناس ببركة إيمانهم إلى الأخلاق الحسنة وطريق السعادة والصراط الـمستقيم، وإذا لم يوجد الإيمان فإن الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة لن يكون لها أثر، أي أن الرجل العادل الأمين الذي لا يأخذ الرِّشوة، إن لم يكن عنده إيمان فسيُبتلى في النهاية ولو بعد عشر مرات بأخذ الرِّشوة. وكذلك من لا يظلم ولكنه لا يملك الإيمان فإنه سيُخدع في آخر الـمطاف بالهوى وسيقع في ظلم الناس.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ أن أهل الجنّة يُسَلِّم بعضهم على بعض أي يطلبون الرحمة من الله لبعضهم، فعلى الناس أن يقتدوا بأهل الجنّة وأن يُسَلِّموا على بعضهم وأن يقولوا في

نهاية مجالسهم أو في نهاية تناولهم الطعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١١-١٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ...﴾ أن الله لا يستجيب على الفور دعاء من دعا بأمر فيه شرٌّ له، وإلا لأهلك جميع الناس. ففي كل يوم تدعو الأمهات على أبنائها، ويدعو الخدم على أسيادهم، ويدعو المأمورون على آمريهم، والعمال على ربّ العمل والمستأجر على المؤجِّر! وكذلك يدعو أهل الخرافات دائمًا على أهل البحث والتحقيق، فلو استجاب الله لتلك الأدعية لأهلك جميع الناس.

وَيَدُلُّ قولُهُ تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ على نفي الجبر لأن الله يُخلّي بين مُنكري المعاد وبين طُغيانهم أي يذرهم في طُغيانهم أحرارًا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٣-١٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ اللهَ جعل الأمَّةَ الإسلاميةَ خليفةً لمن كان قبلها من المجرمين في الأرض كي لا تعمل عمل المجرمين وتأخذ العِبرة من مصيرهم وكي يرى الله ماذا ستفعل هذه الأمة.

وتدل جملة: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أن رسول الله ﷺ نفسه مُتَّبِعٌ

للوحي وأنه يجب عليه أن يعمل بما يُوحى إليه وأن لا يجتهد من عند نفسه.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٦-١٧].

الفوائد: قول الكفار للرسول ﷺ: إئت بقرآن غير هذا أو بدِّلْهُ، قد يكون على سبيل السُّخرية والاستهزاء وقد يكونون جادّين في طلبهم هذا ويُريدون أن يروا إذا كان محمَّدٌ يستطيع أن يأتي بكلام مثل القرآن أم لا؟ فإذا استطاع أن يفعل ذلك عرفوا أن القرآن من كلامه وأنه كذَّاب، أو أن مقصودهم كان أن يأتي الرسول ﷺ بكلام لا يكون فيه ذمٌّ لمعبوداتهم. وقد أجابهم الله تعالى عن كلامهم هذا بقوله: إن محمدًا كان بينكم أربعين عامًا وكنتم تعلمون أحواله جيدًا وتعرفون أنه لم يقرأ كتابًا ولم يرَ أستاذًا، ولو لم تكن إرادة الله وكلامه لما استطاع محمَّدٌ أن يأتي بكتاب على هذه الدرجة من العظمة حيث يتضمن دقائق علم التوحيد والأحكام ولطائف الأخلاق وأسرار القصص. فأنتم أيُّها الـمُكذبون من أظلم الناس.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

الفوائد: اعلم أن الكفار كانوا يقولون: ليست لنا أهلية أن نُكلِّم الله أو أننا نستحي من الله لذلك نقوم بالتذلل والخضوع لمعبودات غير الله، وكانوا يعتقدون أن هناك روحًا تتولّى أمور كلِّ إقليم من الأقاليم وأن الأصنام هي مظاهر لتلك الأرواح، وكان بعضهم يعتقد أن الكواكب مُؤَثِّرةٌ في هذا العالـم وأن الأصنام ما هي إلا مظاهر للكواكب، فإذا غربت الكواكب فإن لها مظهرًا لا يغيب وهو الصنم. واعتقد بعضهم أن تماثيلهم وأصنامهم نُـحِتَتْ على مثال الأنبياء والعظماء فإذا قاموا بعبادة تلك الأصنام قام أولئك الأنبياء والعظماء بالشفاعة لهم في هذه الحياة الدنيا، كما هي عقيدة عوام الناس في زماننا إذ يعتقدون أن مَنْ يُعظِّم قبور الأنبياء والأولياء ينال

شفاعتهم له عند الله. ويعتقد بعضهم أن الله نورٌ عظيم والـملائكة أنواره، فجعلوا لِلَّهِ صورةً (أي تمثالاً) باسم الوثن الأكبر وجعلوا للملائكة صورًا (أي تماثيل) أخرى، فلكي يُبطل كل تلك الخرافات قال تعالى: إنه لا يعلم هذه الأمور التي يدعونها في السماوات ولا في الأرض، والشيء الذي لا يعلمه الله لا أصل له ولا وجود وهو باطل، فهل ستُخبرون الله عمّا لا يعلمه؟! والعجيب أنه بعد هذه البيان الواضح للقرآن لا تزالا مثل هذه الأفكار الخرافيّة موجودة في زماننا بين شعبنا باسم الدين. وينبغي أن نعلم أن أعراب الجاهليّة ما كانوا يعتقدون بالقيامة وأنهم كانوا يعبدون هؤلاء الشفعاء كي يشفعوا لهم عند الله في أمور الدنيا أي يطلبوا لهم من الله وفرة الثمار والأمن ونحو ذلك.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: ١٩].

الفوائد: كان الناس أُمَّةً واحدةً، أي كانوا جميعًا على دين الفِطرة الإلهيّة والإسلام. فنشأت بينهم الاختلافات بسبب اِتِّباع الهوى، ولولا أن الله شاء أن يُعطي عباده حُرَّية الاختيار والعمل لأزال الاختلاف بينهم جبرًا، ولكنّ الله الذي قال: «**سبقت رحمتي غضبي**» لم يُعجّل العقاب لعباده، والـمُراد من الكلمة التي سبقت من ربّك: أمر الله تعالى بأن يختار الناس أعمالهم بإرادتهم الحرّة. يُراجع في ذلك ما ذكرناه ذيل الآية ٢١٥ من سورة البقرة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٢٠-٢١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أن الـمُعجزة لم تكن من صُنع رسول الله ﷺ وأنها أمرٌ غَيْبِيٌّ ولا علم لرسول الله ﷺ بمجيء الـمُعجزة ولا بوقت إيجادها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ...﴾ أن الـمشركين يُمارسون العناد واللجاج، وأنهم غير

مستعدِّين لقبول الحقّ حتى لو أراهم الله معجزات عديدة لأن طلبهم المعجزات لم يكن إلا بهدف التحجج والعناد، فقد وقع قحط وجدب في مكة لمدة سبع سنوات فلما جاء المطر قالوا: هذا من بركة أصنامنا!

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

الفوائد: يُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات أن المشركين يُخلصون لِلَّهِ في الدعاء في الأوقات العصيبة والمُخيفة في البحر فإذا نجّاهم اللهُ عادوا إلى ظُلمهم وشركهم، ولكن على أي حال كانوا أفضل من قومنا، لأن قومنا لا يدعون الله عندما يقعون في الشدائد والأهوال بل يتوسَّلون بالإمام وأحفاد الإمام، فشركهم دائم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

الفوائد: شبّه الحقّ تعالى الحياة الدنيا بالنباتات التي ينزل عليها المطر فتنمو وتُصبح مُخضّرةً نَضِرَةً ثم تحلّ بها الآفات فتُهلكها. ووجه التشبيه في هذا المثل هو في الرجاء واليأس، فكما أن صاحب البستان يأمل بتلك النباتات المُخْضَرَّة النَّضِرَة وبالمطر ولكنه في عاقبة الأمر يُصاب باليأس، كذلك طُلاب الدنيا يفرحون بمتاعها فترةً ثم يُصابون باليأس عندما تحلّ بهم حوادث المرض والموت. ومن الممكن أن يكون وجه التشبيه: العاقبة غير المحمودة، فكما أن عاقبة الربيع هي الخريف كذلك عاقبة الدنيا. ويُمكن أن يكون وجه التشبيه السعي بلا جدوى وبلا

فائدة، فكما أن سعي صاحب البستان يُصبح بلا جدوى عندما تحلّ الآفة ببستانه كذلك سعي أهل الدنيا لأجل الدنيا يكون بلا جدوى أو طائل. ويُمكن أن يكون وجه التشبيه: الحسرة والغُصص، فصاحب البستان وأهل الدنيا كلاهما يُصابون بالحسرات والغُصص، ويُمكن أن يكون وجه التشبيه: عودة الأمور على ما كانت عليه، فكما أن البستان يموت كل سنة في الشتاء ثم يزدهر ويزدان في الربيع، كذلك الدنيا يموت فيها الإنسان ثم يعود إلى الحياة في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥ ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: ٢٥-٢٧].

الفوائد: دعا الحقّ تعالى الناس بواسطة أنبيائه إلى ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ حيث السلامة من جميع الآفات وحيث تذهب أرواح الصالحين [بعيدًا عن عالـم الدنيا] إلى﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾. وللأسف، فإن الناس الذين تلوثوا بآلاف الأمراض القلبية من خداع وكِبْر وحِقد وبغضاء وأمثالها ليسوا جديرين بهذه الدعوة الإلهيّة إلا إذا صَفُّوا بواطنهم من تلك الآفات.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ أن يوم القيامة سيحضر الـمُريد والـمُرشد والعابد والـمعبود والـمشركون والشركاء كلهم في مكان واحد ويتم فصلهم عن بعضهم البعض. فيقول الـمعبود للعابد: إنك لم تعبدني بل عبدت معبودًا تَخَيَّلْتَهُ في ذهنكَ، لأن العابد والـمعبود كلاهما محتاجان ومتساويان في النقص والحاجة، بل جميع الـمُمكنات متساويةٌ

في فقرها لواجب الوجود واحتياجها إليه، لكن العابد يتخيّل أن لمعبوده صفاتٍ إلهيّةً ويتصور أنه يعبد معبوده الذي لم يكن إلهًا في الواقع بل ظنَّه إلهًا، لذلك يقول له المعبود: لقد أخطأت واشتبه عليك الأمر فأنا لست معبودك الذي تخيَّلْتَهُ. بناءً على ذلك يُمكن أن نقول: إن الذين يُنَادُون الإمام ويتذللون ويتضرّعون له متخيّلين أنه حاضرٌ ناظرٌ قاضٍ للحاجات قد صنعوا في الواقع إمامًا خياليًا في أذهانهم، والإمام أيضًا سيقول لهم يوم القيامة: إن ما تخيلتموه لم أكن أنا ويتبرأ منهم ويُشهد الله قائلاً: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

ومعنى جملة ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أن الناس سيُرَدُّون إلى حكم الله وستُصبح آلهتهم الخيالية كالأشخاص المفقودين الذين ضاعوا. وإذا كان الأمر كذلك فلسائل أن يسأل: كيف تتكلم الأوثان والأصنام يوم القيامة؟ والجواب: إن معبودات المشركين غير منحصرة في الأصنام. ثانيًا: معبودات المشركين أي أصنامهم لم تكن تُعبد على نحو الاستقلال بل بوصفها تمثالاً للعظماء، فالمعبودات الحقيقيّة التي كانت تُعبد على نحو الاستقلال هي أولئك العظماء، وهؤلاء هم الذين سيتكلمون يوم القيامة [ويتبرؤون ممن أشركهم مع الله في العبادة].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣١-٣٣].

الفوائد: يسأل الحقّ تعالى في هذه الآيات، وما بعدها، المشركينَ: مَنْ مالك السماوات والأرض ومُدبّر الخلائق؟ ويُقرُّ المشركون أنه الله، ومِنْ هذا يَتَبَيَّنُ أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بوجود خالق ومُدبّر غير الله، لكنهم كانوا يرجعون في طلب حوائجهم إلى الأصنام ويتذللون لها ويخضعون أمامها، وهذا يُشبه حال كثير من المسلمين الذين يؤمنون بالله تعالى لكنهم يدعون عبدًا صالحًا من عباده لقضاء حوائجهم ويخضعون له ويتذللون له، إلا أن هؤلاء الأفراد أسوأ من عُبّاد الأوثان لأنهم يعتبرون أحيانًا العباد الصالحين الذين يدعونهم إما شركاء

لِلّهِ أو أصحاب نفوذ في عالـم الخليقة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أن الحقّ واحد فحسب وكل ما عداه باطلٌ.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٤-٣٥].

الفوائد: كل الـمخلوقات في عرض بعضها [في التسلسل العِلِّيّ] أي هي في مستوى واحد من ناحية احتياجها للوجود والهداية، وحتى الأنبياء محتاجون لهداية الله. بناءً على ذلك فإن التوجُّهَ إلى الـمخلوق ودعاءَه وطلبَ الأشياء منه مع أنه هو نفسه يحتاج إلى الهداية، كفرٌ وحماقةٌ. وفي هذه الآيات يسأل الله الـمشركين سؤال توبيخ تنبيهًا للمُكلَّفين وحثًّا لهم على التفكير وأن يُحَكِّمُوا عقولهم في هذا الأمر.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦].

الفوائد: جعل الحقُّ تعالى العقلَ والعلمَ حُجَّةً، ولم يعتبر الظنَّ حُجَّةً بل نهى عن اِتِّباع الظنّ في أيِّ أمر، وبناءً على ذلك لا بدّ أن يحصُلَ كلُّ مُكَلَّفٍ على العلم [لا الظنّ] بأصول الإسلام وفروعه. وبما أن تقليد الأحكام عمل بالظنِّ فهو غير جائز، وجميع الـمجتهدين يُقِرُّون أن فتاواهم ظنية، وَمِنْ ثَمَّ فاتِّباعُ الفتاوى الظنيّة عمل باطل.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].

الفوائد: قرأ محمد ﷺ هذه الآيات على الناس بكل اطمئنان ويقين، وقال لهم: إن كنتم تعتقدون أن القرآنَ صُنعُ محمَّدٍ وأنني افتريته على الله فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من العلماء ليُساعدكم. ولو استطاعوا أن يأتوا بسورة حتى زماننا هذا لأتوا بها، ولكن مضى ألف وأربعمئة عام على نزول القرآن ولم يأتِ أحدٌ بسورة واحدة مثل القرآن. فيتبيّن إذن أن القرآن غير مفترىً ولا هو من صُنع غير الله وأنه لا يُمكن لبشر أي يأتي بمثله.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٠-٤٣].

الفوائد: كلُّ مَن يسعى إلى درء الخطر عن نفسه ويجتنب اللامبالاة، فإنه يؤمن بالله وكتابه. ولكنّ الفاسقين غير المبالين في كل زمن لا يكترثون بالله ولا بالكتب السماوية، وحتى لو أصغوا إليها فإنهم لا يفعلون ذلك لأجل الفهم فلا فائدة من استماعهم آيات الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ٤٤-٤٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ أن الناس عند الحشر ينتبهون إلى أنهم لم يكونوا في البرزخ ولا في الدنيا سوى لحظةً. وظاهر الآية أن أهل البرزخ لا يشعرون بمُضّي الزمن في عالم البرزخ.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٦-٤٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ...﴾ أن بعض ما وعد الله به الكفار على لسان رسوله ﷺ من ذِلّةٍ وهوانٍ تحقّق في هذه الدنيا زمن رسول الله ﷺ.

والأمر الثاني الـمُستفاد من هذه الآيات أن رسول الله ﷺ لا يملك لنفسه ولا للآخرين أي نفع ولا ضرر ولا يعلم الغيب.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٠-٥٢].

الفوائد: الـمُراد من هذه الآية الردّ على الكفّار الذين كانوا يستعجلون عذاب الله ويقولون: لماذا لا يأتينا هذا العذاب الذي تُخبرنا عنه الآن، ومتى سيأتي؟ فيقول تعالى، إذا جاءهم عذاب الله بغتةً فماذا سيفعل الـمجرمون الذين يستعجلونه؟ والحال أنهم لن يُقبل منهم إيمان ولن يستطيعوا دفع ذلك العذاب حينئذ.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٣-٥٦].

الفوائد: عندما يرى الكفار يوم القيامة عذاب الله يشعرون بالحسرة والندامة، وعندئذ لو أن الشخص الـمستحق لنار جهنم كان يملك كل ما في الأرض وقدّمه ليفدي نفسه من العذاب لما أفاده ذلك شيئًا، وهذا على سبيل الفرض لأنه من الواضح أن لا أحد يملك شيئًا من الأرض يوم القيامة.

ويُمكن أن يكون الـمقصود من ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أخفوها، ويُمكن أن يكون الـمراد:

أظهروها، لأن الكلمة من ناحية اللغة جاءت على الـمعنيين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: ٥٧-٦٠].

الفوائد: القرآن موعظةٌ لكي يمتنع الناس عن الـمعاصي والأخلاق الفاسدة. وهو شفاء من العقائد الـمُهلكة والأخلاق الـمُنحطة. وهو هدايةٌ إلى طريق السعادة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ على حُرمة الإفتاء بِحِلِّيَة شيء أو حُرمته دون سند من الوحي الإلهي، كما كان يفعل أهل الجاهلية أو كما كان الأمر زمن رئاسة علماء بني إسرائيل الذين كانوا يُحللون ويُحرّمون باسم الله من عند أنفسهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: ٦١-٦٤].

الفوائد: جملةُ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، ولكن لا فرق بين الرسول ﷺ والآخرين من هذه الناحية، لأن الله شاهد وناظر لما يفعله جميع البشر في جميع الأحوال، ومُطّلعٌ على كل أعمالهم وما في صدورهم وأذهانهم.

ومعنى ﴿مِّثۡقَالِ﴾: ما يُوزن به، يعني أنه حتى الشيء الذي هو بوزن الذرّة، لا يخفى عن علم الله.

واختلف الـمُفسِّرون في الـمراد من البُشْرَى التي يُبَشَّر بها أولياءُ الله فقال بعضهم: إنها عبارة

عن الرؤيا الصالحة في الدنيا والجنّة في الآخرة. وقال آخرون: إن البشارة في الدنيا هي إيجاد المحبة لأهل الإيمان في قلوب الناس. وقال فريق ثالث: إن البشارة الدنيوية هي نزول ملائكة الرحمة عند احتضار الميت وهي سلام الربّ على العبد يوم القيامة. ولكن ينبغي أن نعلم أن البشارة المُطلقة تشمل كل ذلك وأكثر منه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٥-٦٦].

الفوائد: تدل هذه الآيات أن الإنسان ينبغي عليه أن لا يحزن من قول الناس وأن لا ينتابه الخوف من كثرة رجال الكافرين وأموالهم ، بل عليه أن يُدرك أن كل الخلق وما يملكون في قبضة قدرة الله وأن العِزّة والذلّ بإرادته ومن عنده.

و حرف «ما» في جملة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ...﴾ يُمكن أن يكون «ما» النافية، أو يكون -كما قمنا بترجمة الآية- «ما» الاستفهامية. ويُمكن أن يكون أيضًا «ما» الموصولة، أي أن عُقلاء السماوات والأرض والشركاء الذين يدعوهم العُقلاء ويُشركونهم في العبادة مع الله كلهم ملك لِلَّهِ تعالى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٧-٧٠].

الفوائد: هذه الآيات ردٌّ على من نسب لِلَّهِ الولد وإثباتٌ لبُطلان هذا القول بعدة براهين ذكرتها الآية: **الأول**: أنَّ الله مُنزّه عن صفات البشر. **الثاني**: أن الله غنيٌّ عن الصاحبة والولد. **الثالث**: أنهم لا يملكون على قولهم هذا دليلاً ولا حُجّة.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: ٧١].

الفوائد: لكي لا يملَّ القارئ من المواعظ وبيان الدلائل يقوم الحقّ تعالى أحيانًا بالهداية وبيان القوانين والسنن والمواعظ من خلال القصص كي يقرأ القارئُ القرآنَ بنشاط وشغف، إضافةً إلى ذلك فإن في ذِكر القصص الحقة تسليةً لرسول الله ﷺ وأمته وعِبرةً لهم.

هنا يقول نوحٌ ؈ لقومه بعد أن أمضى فيهم قُرابة ألف عام: إن كان وجودي بينكم وكلامي معكم ثقيلاً عليكم وَمُتْعِبًا فافعلوا أحد الأمور التالية: ١- استعملوا كل ما تستطيعونه من مكر وكيد وأعدّوا ما تقدرون عليه من وسائل الانتصار. ٢- ادْعُوا شركاءكم وأعوانكم لنُصرتكم. ٣- ليكن هدفكم واضحًا أمام أعينكم. ٤- افعلوا فيَّ كل ما شئتم. ٥- لا تُمهلوني إطلاقًا. ولكن اعلموا أن توكلي هو على الله وأنني لن أتراجع عن هدفي.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: ٧٢-٧٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أن الزعيم الدينيّ يجب أن لا يأخذ على عمله أجرًا من الناس. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ أن كل موضع استُخدمت فيه لفظة خليفة في القرآن كانت بمعنى الخلافة عن الماضين لا الخلافة عن الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ أنَّ كلَّ قوم إذا سلكوا طريق الضلال وابْتُلوا بعقيدة منحرفة فإن ذلك الابتلاء سيمنعهم من سلوك طريق الهداية، ولن يعودوا عن انحرافهم السابق حتى لو عرفوا الحق.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ [يونس: ٧٥-٧٨].

الفوائد: تدل هذه الآيات على أن الذي كان يمنع قوم موسى عليه السلام من الإيمان أربعة أمور: **الأول**: التكبُّر. **الثاني**: الشُّبُهات. **الثالث**: الدين التقليدي. **الرابع**: الخوف من نُقصان متاع الدنيا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾ [يونس: ٧٩-٨٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أن معجزة موسى عليه السلام لم تكن من صُنْعِهِ بل كانت من فعل الله، لأن موسى عليه السلام قال: إن الله سيبطله ولم يقل: إنني سأبطله.

كما وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أن إثبات صدق موسى وأحقيّته كان بأمر الله.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [يونس: ٨٣-٨٦].

الفوائد: وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ...﴾ أن شباب قوم موسى عليه السلام آمنوا. وقد أثبتت التجارب أن الشباب أرقّ قلوبًا وأنصع أذهانًا من الشيوخ، ويقبلون الحقّ بنحو أسرع،

ويقبلون الدليل والبرهان بشكل أفضل، ويميلون إلى كل خير وصلاح بنحو أسرع. والفتنة هنا معناها الامتحان والاختبار.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٧-٨٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أن في دين موسى عليه السلام كانت هناك صلاة واجبة وكانت قبلتُهُم بيوتَهُم[١].

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

الفوائد: يمكن للإنسان قبل أن يرى علامات الموت أن يؤمن ويتوب من ذنوبه. أما إذا ظهرت له علامات الموت وعرف أنه ميّتٌ لا محالة فلن تُقْبَلَ توبته، مثل فرعون الذي قال عندما أدركه الغرق: الآن آمنتُ! فقال تعالى له: الآن آمنت بعد أن عاندتَ من قبل! سنجعل الماء يلقي بجثّتك كي يرى الناس بأعينهم بدن ذلك الطاغية الكاذب المحتال. وَيُقَالُ: إن مومياء هذا الفرعون [اُكْتُشِفَت في هذا العصر] وهي الآن موجودةٌ في متحف لندن، لتكون عبرةً لأهل الدنيا.

١- أي أُمِرُوا أن يتخذوا بيوتهم مساجد ويصلوا في بيوتهم.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٣-٩٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أن الاختلاف في الدين لم يكن في بعثة الأنبياء، بل بقي الناسُ أمةً واحدةً حتى تعلَّم علماؤهم وطلبوا الرئاسة عن علم، وحسدوا بعضهم بعضًا وتنافسوا وأراد كل فريق من العلماء التفوُّق على فريق آخر فوقع الاختلاف جرّاء ذلك. فمثلاً لم يكن اليهود يختلفون فيما بينهم بأن رسولاً باسم محمد ﷺ سوف يأتي، وحتى يهود بني قُريظة وبني النضير وبني قينقاع كانوا يُخبرون من حولهم من العرب بمبعث محمد ﷺ. ولكن لمن نزل القرآن -أي العلم- أنكروا بعثته حفاظًا على رئاستهم. ومثلاً لم يكن في زمن النبيّ الخَاتَم ﷺ اختلاف سنيٌّ شيعيٌّ ولا تفرُّقٌ إلى سائر الفرق الإسلامية، ولكن بعد أن كَثُر العلماء، وبدأ كل عالمٍ يفتح لنفسه دكَّانًا يسترزق من خلاله باسم الدين، لم يكن أمام هذا العالـم - كي يتمكن من جمع الـمُريدين حوله - بُدٌّ من ذمِّ الآخرين، وعلى إثر ذمِّ فلان ولعن آخر كَثُر السبّ والشتم وانتشرت العداوة والبغضاء حتى أصبح -بعد ألف سنة- اللعنُ والشتمُ والبُغْضُ والعداوةُ لسائر فرق الإسلام في الـمآتم وقراءة الـمراثي أمرًا يُثابُ فاعلُهُ عليه!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

الفوائد: إن وجوب العذاب على شخص وتحقّق كلمة الله -أي أمره- عليه بالعذاب سببه سوء اختيار العبد، فلمّا كان الله عالـمًا بأن العبد سيختار الكفر والنفاق والعصيان، شمله بالخذلان طبقًا لسنة الله تعالى في خلقه.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

الفوائد: فسّر بعض الـمُفسّرين عبارة «**فلولا**» على معنى «**ما**» الكافية[١]، ولكن الظاهر والـمعنى الحقيقي لها هو «**هلّا**» التي هي من أدوات التحضيض كما ذكرنا في الترجمة.

وقد ذكر الله تعالى قصة يونس ﷺ في سورة الأنبياء، الآية ٨٧، وفي سورة الصافات، الآية ١٤٠، وفي سورة القلم، الآية ٤٨. ويظهر من بعض الروايات أن حضرة يونس ﷺ كان في زمن حضرة سليمان وداود ﵉.

وقد رُوي «عن رسول الله ﷺ أَنَّ جِبْرَئِيلَ ﷺ حَدَّثَهُ: أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى ﷺ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً... وَأَنَّهُ أَقَامَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا رَجُلَانِ اسْمُ أَحَدِهِمَا **رُوبِيلُ** وَاسْمُ الْآخَرِ **تَنُوخَا**. وَكَانَ رُوبِيلُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَكَانَ قَدِيمَ الصُّحْبَةِ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَكَانَ تَنُوخَا رَجُلاً مُسْتَضْعَفًا عَابِدًا زَاهِدًا مُنْهَمِكًا فِي الْعِبَادَةِ وَلَيْسَ لَهُ عِلْمٌ وَلَا حُكْمٌ. وَكَانَ رُوبِيلُ صَاحِبَ غَنَمٍ يَرْعَاهَا وَيَتَقَوَّتُ مِنْهَا وَكَانَ تَنُوخَا رَجُلاً حَطَّابًا يَحْتَطِبُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ. وَكَانَ لِرُوبِيلَ مَنْزِلَةٌ مِنْ يُونُسَ غَيْرُ مَنْزِلَةِ تَنُوخَا لِعِلْمِ رُوبِيلَ وَحِكْمَتِهِ وَقَدِيمِ صُحْبَتِهِ فَلَمَّا رَأَى يُونُسُ ﷺ أَنَّ قَوْمَهُ لَا يُجِيبُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ضَجِرَ وَعَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ قِلَّةَ الصَّبْرِ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَبِّهِ وَكَانَ فِيمَا شَكَا أَنْ قَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي إِلَى قَوْمِي وَلِي ثَلَاثُونَ سَنَةً فَلَبِثْتُ فِيهِمْ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَالتَّصْدِيقِ بِرِسَالَاتِي وَأُخَوِّفُهُمْ عَذَابَكَ وَنَقِمَتَكَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً فَكَذَّبُونِي وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِي وَجَحَدُوا نُبُوَّتِي وَاسْتَخَفُّوا بِرِسَالَاتِي، وَقَدْ تَوَاعَدُونِي وَخِفْتُ أَنْ يَقْتُلُونِي فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ، قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَى يُونُسَ أَنَّ فِيهِمُ الْـحَمْلَ وَالْـجَنِينَ وَالطِّفْلَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَالْـمَرْأَةَ الضَّعِيفَةَ وَالْـمُسْتَضْعَفَ الْـمَهِينَ وَأَنَا الْـحَكَمُ الْعَدْلُ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي لَا أُعَذِّبُ الصِّغَارَ بِذُنُوبِ الْكِبَارِ مِنْ قَوْمِكَ، وَهُمْ يَا يُونُسُ عِبَادِي

---

١ – لعلّه يقصد ما النافية.

وَخَلْقِي وَبَرِيَّتِي فِي بِلَادِي وَفِي عَيْلَتِي أُحِبُّ أَنْ أَتَأَنَّاهُمْ وَأَرْفُقَ بِهِمْ وَأَنْتَظِرُ تَوْبَتَهُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثْتُكَ إِلَى قَوْمِكَ لِتَكُونَ حيطًا عَلَيْهِمْ تَعْطِفَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحِمِ الْمَاسَّةِ مِنْهُمْ وَتَأَنَّاهُمْ بِرَأْفَةِ النُّبُوَّةِ وَتَصْبِرَ مَعَهُمْ بِأَحْلَامِ الرِّسَالَةِ وَتَكُونَ لَهُمْ كَهَيْئَةِ الطَّبِيبِ الْمُدَاوِي الْعَالِمِ بِمُدَاوَاةِ الدَّاءِ، فَخَرَقْتَ بِهِمْ وَلَمْ تَسْتَعْمِلْ قُلُوبَهُمْ بِالرِّفْقِ وَلَمْ تَسُسْهُمْ بِسِيَاسَةِ الْمُرْسَلِينَ، ثُمَّ سَأَلْتَنِي عَنْ سُوءِ نَظَرِكَ الْعَذَابَ لَهُمْ عِنْدَ قِلَّةِ الصَّبْرِ مِنْكَ... .

فَقَالَ يُونُسُ: يَا رَبِّ! إِنَّمَا غَضِبْتُ عَلَيْهِمْ فِيكَ، وَإِنَّمَا دَعَوْتُ عَلَيْهِمْ حِينَ عَصَوْكَ فَوَعِزَّتِكَ لَا أَتَعَطَّفُ عَلَيْهِمْ بِرَأْفَةٍ أَبَدًا، وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِنَصِيحَةِ شَفِيقٍ بَعْدَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ وَجَحْدِهِمْ بِنُبُوَّتِي، فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا. فَقَالَ اللهُ: يَا يُونُسُ! إِنَّهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ مِنْ خَلْقِي يَعْمُرُونَ بِلَادِي وَيَلِدُونَ عِبَادِي وَمَحَبَّتِي أَنْ أَتَأَنَّاهُمْ لِلَّذِي سَبَقَ مِنْ عِلْمِي فِيهِمْ وَفِيكَ وَتَقْدِيرِي وَتَدْبِيرِي غَيْرُ عِلْمِكَ وَتَقْدِيرِكَ، وَأَنْتَ الْمُرْسَلُ وَأَنَا الرَّبُّ الْحَكِيمُ وَعِلْمِي فِيهِمْ يَا يُونُسُ بَاطِنٌ فِي الْغَيْبِ عِنْدِي لَا تَعْلَمُ مَا مُنْتَهَاهُ وَعِلْمُكَ فِيهِمْ ظَاهِرٌ لَا بَاطِنَ لَهُ. يَا يُونُسُ! قَدْ أَجَبْتُكَ إِلَى مَا سَأَلْتَ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَمَا ذَلِكَ يَا يُونُسُ بِأَوْفَرَ لِحَظِّكَ عِنْدِي وَلَا أَجْمَلَ لِشَأْنِكَ، وَسَيَأْتِيهِمْ عَذَابٌ فِي شَوَّالٍ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَسَطَ الشَّهْرِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَأَعْلِمْهُمْ ذَلِكَ.

قَالَ: فَسَرَّ بِذَلِكَ يُونُسُ وَلَمْ يَسُؤْهُ وَلَمْ يَدْرِ مَا عَاقِبَتُهُ، فَانْطَلَقَ يُونُسُ إِلَى تَنُوخَا الْعَابِدِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ حَتَّى أُعْلِمَهُمْ بِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ. فَقَالَ تَنُوخَا: فَدَعْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ حَتَّى يُعَذِّبَهُمُ اللهُ. فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: بَلْ نَلْقَى رُوبِيلَ فَنُشَاوِرُهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ عَالِمٌ حَكِيمٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ فَانْطَلَقَا إِلَى رُوبِيلَ فَأَخْبَرَهُ يُونُسُ عليه السلام بِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمِهِ فِي شَوَّالٍ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَرَى انْطَلِقْ بِنَا حَتَّى أُعْلِمَهُمْ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ رُوبِيلُ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَجْعَةَ نَبِيٍّ حَكِيمٍ وَرَسُولٍ كَرِيمٍ وَسَلْهُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِمْ وَهُوَ يُحِبُّ الرِّفْقَ بِعِبَادِهِ وَمَا ذَلِكَ بِأَضَرَّ لَكَ عِنْدَهُ وَلَا أَسْوَأَ لِمَنْزِلَتِكَ لَدَيْهِ، وَلَعَلَّ قَوْمَكَ بَعْدَ مَا سَمِعْتَ وَرَأَيْتَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ يُؤْمِنُونَ يَوْمًا فَصَابِرْهُمْ وَتَأَنَّهُمْ. فَقَالَ لَهُ تَنُوخَا: وَيْحَكَ يَا رُوبِيلُ! مَا أَشَرْتَ عَلَى يُونُسَ وَأَمَرْتَهُ بَعْدَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَجَحْدِهِمْ لِنَبِيِّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَإِخْرَاجِهِمْ

إِيَّاهُ مِنْ مَسَاكِنِهِ وَمَا هَمُّوا بِهِ مِنْ رَجْمِهِ. فَقَالَ رُوبِيلُ لِتَنُوخَا: اسْكُتْ! فَإِنَّكَ رَجُلٌ عَابِدٌ لا عِلْمَ لَكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى يُونُسَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ يَا يُونُسُ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ الْعَذَابَ عَلَى قَوْمِكَ أَنْزَلَهُ فَيُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا أَوْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَبْقَى بَعْضٌ. فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: بَلْ يُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ سَأَلْتُهُ مَا دَخَلَتْنِي لَهُمْ رَحْمَةُ تَعَطُّفٍ فَأُرَاجِعَ اللهَ فِيهِمْ وَأَسْأَلَهُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ فَقَالَ لَهُ رُوبِيلُ: أَتَدْرِي يَا يُونُسُ لَعَلَّ اللهَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فَأَحَسُّوا بِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُوا فَيَرْحَمَهُمْ فَإِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَيَكْشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرْتَهُمْ عَنِ اللهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ فَتَكُونَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ كَذَّابًا. فَقَالَ لَهُ تَنُوخَا: وَيْحَكَ يَا رُوبِيلُ! لَقَدْ قُلْتَ عَظِيمًا، يُخْبِرُكَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَتَرُدُّ قَوْلَ اللهِ وَتَشُكُّ فِيهِ وَفِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُكَ. فَقَالَ رُوبِيلُ لِتَنُوخَا: لَقَدْ فَشِلَ رَأْيُكَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى يُونُسَ فَقَالَ: إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ وَالْأَمْرُ مِنَ اللهِ فِيهِمْ عَلَى مَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ فِيهِمْ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهَلَكَ قَوْمُكَ كُلُّهُمْ وَخَرِبَتْ قَرْيَتُهُمْ أَلَيْسَ يَمْحُو اللهُ اسْمَكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَتَبْطُلُ رِسَالَتُكَ وَتَكُونُ كَبَعْضِ ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَيَهْلِكُ عَلَى يَدَيْكَ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ؟!.

فَأَبَى يُونُسُ أَنْ يَقْبَلَ وَصِيَّتَهُ فَانْطَلَقَ وَمَعَهُ تَنُوخَا مِنَ الْقَرْيَةِ وَتَنَحَّيَا عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ وَرَجَعَ يُونُسُ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ الْعَذَابَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ فِي شَوَّالٍ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَرَدُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ إِخْرَاجًا عَنِيفًا فَخَرَجَ يُونُسُ عليه السلام وَمَعَهُ تَنُوخَا مِنَ الْقَرْيَةِ وَتَنَحَّيَا عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ وَأَقَامَا يَنْتَظِرَانِ الْعَذَابَ، وَأَقَامَ رُوبِيلُ مَعَ قَوْمِهِ فِي قَرْيَتِهِمْ حَتَّى إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَوَّالٌ صَرَخَ رُوبِيلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى الْقَوْمِ: أَنَا رُوبِيلُ شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ رَحِيمٌ بِكُمْ هَذَا شَوَّالٌ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ يُونُسُ نَبِيُّكُمْ وَرَسُولُ رَبِّكُمْ أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ فِي شَوَّالٍ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ فَانْظُرُوا مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ؛ فَأَفْزَعَهُمْ كَلَامُهُ وَوَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ تَحْقِيقُ نُزُولِ الْعَذَابِ فَأَجْفَلُوا نَحْوَ رُوبِيلَ، وَقَالُوا لَهُ: مَاذَا أَنْتَ تُشِيرُ بِهِ عَلَيْنَا يَا رُوبِيلُ؟ فَإِنَّكَ رَجُلٌ عَالِمٌ حَكِيمٌ لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُكَ بِالرِّقَّةِ عَلَيْنَا وَالرَّحْمَةِ لَنَا وَقَدْ بَلَغَنَا مَا أَشَرْتَ بِهِ عَلَى يُونُسَ فِينَا فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ وَأَشِرْ عَلَيْنَا بِرَأْيِكَ. فَقَالَ لَهُمْ رُوبِيلُ فَإِنِّي أَرَى لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ أَنْ

تَنْظُرُوا وَتَعْمَدُوا إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبعاءِ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ أَنْ تَعْدِلُوا [تَعْزِلُوا] الْأَطْفَالَ عَنِ الْأُمَّهَاتِ فِي أَسْفَلِ الْـجَبَلِ فِي طَرِيقِ الْأَوْدِيَةِ وَتَقِفُوا النِّسَاءَ فِي سَفْحِ الْـجَبَلِ يَكُونُ هَذَا كُلُّهُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ رِيحًا صَفْرَاءَ أَقْبَلَتْ مِنَ الْـمَشْرِقِ فَعِجُّوا الْكَبِيرُ مِنْكُمْ وَالصَّغِيرُ بِالصُّرَاخِ وَالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ وَالاِسْتِغْفَارِ لَهُ وَارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَقُولُوا: «**رَبَّنَا ظَلَمْنَا وَكَذَّبْنَا نَبِيَّكَ وَتُبْنَا إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَإِنْ لَا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْـمُعَذَّبِينَ فَاقْبَلْ تَوْبَتَنَا وَارْحَمْنَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»، ثُمَّ لَا تَمَلُّوا مِنَ الْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ حَتَّى تَتَوَارَى الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ أَوْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ قَبْلَ ذَلِكَ.

فَأَجْمَعَ رَأْيُ الْقَوْمِ جَمِيعًا عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ رُوبِيلُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبعاءِ الَّذِي تَوَقَّعُوا الْعَذَابَ تَنَحَّى رُوبِيلُ مِنَ الْقَرْيَةِ حَيْثُ يَسْمَعُ صُرَاخَهُمْ وَيَرَى الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبعاءِ فَعَلَ قَوْمُ يُونُسَ مَا أَمَرَهُمْ رُوبِيلُ بِهِ، فَلَمَّا بَزَغَتِ الشَّمْسُ أَقْبَلَتْ رِيحٌ صَفْرَاءُ مُظْلِمَةٌ مُسْرِعَةٌ لَهَا صَرِيرٌ وَحَفِيفٌ وَهَدِيرٌ، فَلَمَّا رَأَوْهَا عَجُّوا جَمِيعًا بِالصُّرَاخِ وَالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ وَتَابُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوهُ وَصَرَخَتِ الْأَطْفَالُ بِأَصْوَاتِهَا تَطْلُبُ أُمَّهَاتِهَا وَعَجَّتْ سِخَالُ الْبَهَائِمِ تَطْلُبُ اللَّبَنَ وَعَجَّتِ الْأَنْعَامُ تَطْلُبُ الرَّعْيَ، فَلَمْ يَزَالُوا بِذَلِكَ وَيُونُسُ وَتَنُوخَا يَسْمَعَانِ صَيْحَتَهُمْ وَصُرَاخَهُمْ وَيَدْعُوَانِ اللهَ عَلَيْهِمْ بِتَغْلِيظِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَرُوبِيلُ فِي مَوْضِعِهِ يَسْمَعُ صُرَاخَهُمْ وَعَجِيجَهُمْ وَيَرَى مَا نَزَلَ وَهُوَ يَدْعُو اللهَ بِكَشْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا أَنْ زَالَتِ الشَّمْسُ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَسَكَنَ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى وَرَحِمَهُمُ الرَّحْمَنُ فَاسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَقَالَهُمْ عَثْرَتَهُمْ وَأَوْحَى إِلَى إِسْرَافِيلَ أَنِ اهْبِطْ إِلَى قَوْمِ يُونُسَ فَإِنَّهُمْ قَدْ عَجُّوا إِلَيَّ بِالْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَتَابُوا إِلَيَّ وَاسْتَغْفَرُوا لِي فَرَحِمْتُهُمْ وَتُبْتُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا اللهُ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أَسْرَعُ إِلَى قَبُولِ تَوْبَةِ عَبْدِيَ التَّائِبِ مِنَ الذُّنُوبِ وَقَدْ كَانَ عَبْدِي يُونُسُ وَرَسُولِي سَأَلَنِي نُزُولَ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمِهِ وَقَدْ أَنْزَلْتُهُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا اللهُ أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِعَهْدِهِ وَقَدْ أَنْزَلْتُهُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنِ اشْتَرَطَ يُونُسُ حِينَ سَأَلَنِي أَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ أَنْ أُهْلِكَهُمْ فَاهْبِطْ إِلَيْهِمْ فَاصْرِفْ عَنْهُمْ مَا قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِي. فَقَالَ إِسْرَافِيلُ: يَا رَبِّ! إِنَّ عَذَابَكَ قَدْ بَلَغَ أَكْتَافَهُمْ وَكَادَ أَنْ يُهْلِكَهُمْ وَمَا أَرَاهُ إِلَّا وَقَدْ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَكَيْفَ أَنْزِلُ أَصْرِفُهُ؟ فَقَالَ اللهُ: كَلَّا إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ مَلَائِكَتِي أَنْ يَصْرِفُوهُ وَلَا يُنْزِلُوهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي

فِيهِمْ وَعَزِيمَتِيَ فَاهْبِطْ يَا إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمْ وَاصْرِفْهُ عَنْهُمْ وَاصْرِفْ بِهِ إِلَى الْجِبَالِ بِنَاحِيَةِ مَفَاوِضِ الْعُيُونِ وَمَجَارِي السُّيُولِ فِي الْجِبَالِ الْعَادِيَةِ الْمُسْتَطِيلَةِ عَلَى الْجِبَالِ فَأَذِلَّهَا بِهِ وَلَيِّنْهَا حَتَّى تَصِيرَ مُلَيَّنَةً حَدِيدًا جَامِدًا. فَهَبَطَ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمْ فَنَشَرَ أَجْنِحَتَهُ فَاسْتَاقَ بِهَا ذَلِكَ الْعَذَابَ حَتَّى ضَرَبَ بِهَا تِلْكَ الْجِبَالَ الَّتِي أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَهُ إِلَيْهَا. فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ يُونُسَ أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ صُرِفَ عَنْهُمْ هَبَطُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ وَضَمُّوا إِلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَحَمِدُوا اللهَ عَلَى مَا صَرَفَ عَنْهُمْ»[١].

وسنذكر بقية القصة في مكان آخر عند تعليقنا على الآيات المناسبة المتعلقة بها.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

الفوائد: يُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات أن الدين الإلهيّ يُكَرِّسُ الحرية والاختيار وليس فيه إكراه أو إجبار.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أن الله لو شاء لأمكنه أن يُجبر الناس ويُكرههم على الإيمان [لكنه لم يشأ ذلك].

وتدلُّ جملة: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن كل أمة لا تتبع العقل ولا تتمتع بالاستقلال الفكري وتتبع الآخرين تستحق الانحطاط والنكبات.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠١-١٠٣].

١- هذه القصة بطولها رواها العياشي في **تفسيره**، ج٢/ ص ١٢٩ فما بعد، ونقلها عنه المجلسي في **بحار الأنوار**، ج ١٤/ ص ٣٩٢- ٣٩٧. وليس لها سندٌ موثوقٌ.

الفوائد: دين القرآن دين النظر والتفكير والاستدلال، بدليل جملة ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وجملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، حيث يُمكننا أن نعتبر «**ما**» في الجملة الأخيرة استفهامية، لكن الأفضل أن نعتبرها «**ما**» النافية. وعلى كل حال، فقد قال رسول الله ﷺ: «**تَفَكَّرُوا في الخَلْقِ ولا تَفَكَّرُوا في الخَالِقِ**»[1].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: ١٠٤-١٠٦].

الفوائد: في هذه الآيات يأمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أن يُعرِّف دينه كما يلي:

١- لا أعبد ما يعبده الناس من دون الله. ٢- يجب عبادة الإله الذي يملك وحده موتكم [وحياتكم]. ٣- أنا فردٌ من المؤمنين. ٤- مهمتي أن أتوجه بشكل خالص نحو الدين الحنيف. ٥- لست من المشركين بجميع أنواع وأنماط الشرك. ٦- لا أدعو ما لا يملك الضرر والنفع أي لا أدعو المخلوق ولو فعلت لكنت من الظالمين. ثم يُؤكِّد هذه الأمور ذاتها في الآية التي بعدها. بناءً على ذلك، لا يجوز أن نَدْعُوَ الأنبياء لأنهم مثل المخلوقات الأخرى لا يملكون نفعًا ولا ضررًا لأحد.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: ١٠٧-١٠٩].

١- أخرجه أبو الشيخ في **كتاب العظمة** عن ابن عباس، ١/ ٢١٦، رقم (٥). وأخرج نحوه ابن النجار عن أبي هريرة، وأبو نعيم في **الحلية** عن ابن عباس. انظر السيوطي، **الفتح الكبير** في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، الأحاديث رقم ٥٤٢٧ إلى ٥٤٢٩. وحكم الألباني عليها بالضعف.

الفوائد: لا أحد يكشف الضر ويدفعه أو يُعطي الخير ويمنحه إلا الله، حتى الأنبياء عليهم السلام لا يملكون ذلك، بما في ذلك خاتَم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، فَهُمْ لا يملكون جلب الخير أو دفع الضرر عن أنفسهم إلا بالـمقدار الذي يُمكن لسائر أفراد البشر أن يفعلوه.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا يُريد [بعض] أمة الإسلام من عباد الله الصالحين الذين لا يملكون دفع الضر عن أحد ولا كشف السوء عنه، ولماذا لا يرجعون إلى القرآن؟ وفي هذه الآية أيضًا لم يجعل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكيلاً له على الناس، فضلاً عن أن يملك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمالاً أخرى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يُمكنه أن يتخلف عن دستور الوحي.

سورة هود

مكيّة وهي مئة وثلاث وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

الفوائد: كما ذكرنا سابقًا يُمكن أن نقول في هذه السورة أيضًا: إنها لَمَّا ابتدأت بمدح القرآن وبيان عظمته، تصدَّرت بالحروف الـمُقطعة «الر» إشارةً إلى أن القرآن يتألَّف من هذه الحروف عينها، وهي في متناول البشر [فإن زعموا أن القرآن كلام غير الله] فليأتوا بمثله. ويظهر من هذه الآية أيضًا أن القرآن كله آيات مُحكمة أي آياتُه كُلُّها فصيحة اللفظ صحيحة الـمعنى.

وَيَدُلُّ قَوۡلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على صحة مطالب القرآن وإتقانها.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود: ٢-٥].

الفوائد: جملة ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول لفعل ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي أن جميع تعاليم وفصول هذا القرآن من توحيد وأحكام وقصص هي لأجل أن لا تعبدوا إلا الله.

وَيَدُلُّ قَوۡلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أن شأن رسول الله ﷺ ومهمته هي إنذار كل من يترك

العبودية لِلَّهِ، وبشارة كل من يُطيع الله، وليس هناك أي عمل آخر ملقىً على عاتقه ﷺ [لا سيما الأعمال الكونية].

تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أن للتوبة عن الانحرافات والاستغفار والعودة إلى الله فوائد دنيوية أيضًا [فضلاً عن فوائدها الأخروية].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أن الله يُعطي كل إنسان حسب استعداده وما يستحقه.

والمُراد من جملة: ﴿إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ تنبيه المنافقين الذين كانوا يَرَوْن رسولَ الله ﷺ فيُديرون ظهورهم له ويقولون مستخفين بألبستهم التي يسترون بها وجوههم: ما من أحد مُطّلع علينا، وتوعيتهم بأن الله مُطّلع عليكم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: ٦-٨].

الفوائد: كلمة ﴿دَآبَّةٍ﴾ تشمل جميع الأنعام والسوائم والزواحف والطيور التي لا يعلم عددها إلا خالقها الذي خلقها ويعلم طبيعتها وأعضاءها وجوارحها وأطعمتها ومساكنها، ويعلم احتياجاتها وإرادتها ومقاصدها وحاجاتها ودواءها وهو يكفيها من كل ناحية ويهديها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أن الله خلق الماء قبل خلق السماوات والأرض، والمُراد من العرش الحكم والسلطان والقيام بالأمر في الكون كله.

والمقصود من ﴿أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ زمان الأمة المعدودة. والمقصود من الكتاب هو ما أشرنا إليه في الآية ٥٩ من سورة الأنعام.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ٩-١١].

الفوائد: لما كانت متاعب الدنيا ونِعمها مؤقتةً وزائلةً، عُبِّر عنها بـ «الذوق» لأنه يكون قليلاً وآنيًا، ورغم ذلك فإن الإنسان يضعف عن تحمل أمور الدنيا: فعندما يذوق الألم ييأس وعندما يذوق النعمة يتكبر.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود: ١٢-١٣].

الفوائد: لا شكّ أنه لا يجوز لرسول الله ﷺ ترك شيء من الوحي، لأن ترك الوحي يجر إلى العصيان والشك في صحة الشريعة. إذن المقصود من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ تنبيه رسول الله ﷺ وتحذيره كي يصمد ويُقاوم في مواجهة سُخرية الناس واستهزائهم ولا يُقصّر في إبلاغ رسالته تأثُّرًا بسفاهة الناس. ولا يتأخر في إبلاغ بعض الآيات. وعليه أن يتحمّل أذى الناس وسُخريتهم وتعنّتهم. واعلم أن هذه السورة مكّيّة وقد تحدَّى فيها المُنكرين أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن إن كانوا يزعمون أن القرآن ليس كلام الله. ولكنّ هذا التحدي اشتدَّ في السور المدنية، إذ قال تعالى: إن لم تستطيعوا أن تأتوا بعشر سور فأتوا بسورة واحدة مثل القرآن.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٤-١٦].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أن علماء البشر لا يُمكنهم أن يأتوا بمثل

هذا القرآن. وينبغي أن نعلم أن القرآن ليس من العلم البشري بل هو من العلم الإلهيّ.

والـمقصود من جملة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الأشخاص الذين كلُّ همهم الدنيا ولا يهتمون بأمر الآخرة مطلقًا.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١٧].

الفوائد: بيّنت هذه الآية ثلاثة أدلَّة على صحّة دين الإسلام: **الأول**: العقل والدلائل العقلية. **الثاني**: شهادة القرآن. الثالث: شهادة التوراة. فجملة: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ إشارة إلى الدلائل العقلية. وجملة: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إشارة إلى شهادة القرآن. وجملة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى شهادة التوراة. وقد ذكر الـمُفسّرون في تفسير هذه الآية احتمالات أخرى، لكن الظاهر هو الـمعنى الذي ذكرناه، لأن هذه الآية صدَّقَتْ إيمانَ الـمؤمنين بالقرآن بجملة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالدلائل الثلاثة، وذلك لأن القضايا قسمان: إما بديهية أو نظرية، فالنظرية تحتاج في إثباتها إما إلى الحُجّة والبرهان العقلي أو الوحي والإلهام الإلهي. فإذا اجتمع في إثبات قضية من القضايا هذان القسمان أي الدلائل العقلية والدلائل النقلية الشرعية، أي شهد العقل والوحي كلاهما على صدق القضيَّة، فلا شك أن أحقية هذا الـمطلب تكون قد أُحْرِزَت وأصبحت قطعيَّة. وهذه الآية تقول: إن الذين أسلموا وآمنوا بأن القرآن حقّ يمتلكون الدلائل الثلاث الـمذكورة أعلاه على إيمانهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أن الكتاب أيضًا إمام، ويُمكن أن نُسمِّي الكتابَ إمامًا، ولذلك يقولُ عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام في الصحيفة العلوية: «**أشهد أنَّ الكتاب الذي أُنْزِلَ على النبيِّ إمامي**».

ولذلك اعتبر الحقُّ تعالى في الآية ١٢ من سورة يس صحيفة الأعمال إمامًا أيضًا، فإمام كل مسلم القرآن.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود: ١٨-٢٢].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾: المجتهدون والعلماء الذين يعتبرون رأيهم وفتواهم حكمَ الله وينسبونها لِلَّهِ. وكذلك المُرشدون وسائر أئمة أهل البِدعة الذين يعتبرون بِدعهم دين الله، فهؤلاء سوف يُستدعون إلى محكمة العدل الإلهية، وسوف يشهد الشهودُ على فتاواهم وبِدعهم وانحرافاتهم. وهؤلاء هم الذين يصدُّون الناسَ عن طريق الله الحقيقي، ويخدعونهم ويحرفون الطريق المستقيم ويجعلونه عِوَجًا. وشهداء يوم القيامة هم الملائكة وأهل كل عصر وزمان. وكذلك المقصود من الآية الذين يخترعون للناس وليًا أو أولياء ويُروِّجون لولايتهم ويركبون على رقاب الناس باسم أولئك الأولياء في حين أن الله سبحانه وتعالى يقول بصراحة في هذه الآيات: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. فالذين خرّبوا طريق الله هم أكثر الناس خسارةً وأسوأ أهل الدنيا وأشدهم ظلمًا، ولكن للأسف، أتباعهم ومقلّدوهم لا يُدركون ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٣-٢٤].

الفوائد: لما ذكر الحق تعالى أصناف الكفار والمنافقين والمُبتدعين انتقل في هذه الآيات إلى ذِكر أهل الإيمان والعمل والمتواضعين، ليُقابل بينهم وبين أولئك. وعلى الإنسان أن يسعى أن يجعل نفسه من ضمن فريق المؤمنين.

وبعد أن ذكر الحقّ تعالى هذه الآيات وبيّن حقائق الكفر والإيمان، شرع بذِكر قصة نوح عليه السلام كي لا يُتْعِبَ القارئَ ولا يمل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

الفوائد: كان نوح عليه السلام من الأنبياء العظام أولي العزم الذين بُعثوا إلى البشرية جمعاء. والـمقصود من عبارة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أمته لأنه في ذلك الزمن كل من كان على الأرض كانوا يعتبرون قومًا لبعضهم بعضًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن هدف البِعثة كان دعوة الناس إلى التوحيد، لاسيما توحيد العبادة، لأن ما يتبيّن من سائر الآيات التي تتحدث عن أحوال نوح عليه السلام هو أن قوم نوح كانوا يعبدون عددًا من الرجال الصالحين الذين ماتوا وينذرون لهم النُّذُور وَيَتَّجِهُون إليهم في طلب حوائجهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أن الـمؤمنين بنوح عليه السلام كانوا أناسًا فقراء لا يكسبون شيئًا يُذكر من الـمال ولا يكترث الناس بهم حسب الظاهر.

والـمقصود من عبارة ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أنهم آمنوا بك دون فكر أو تأمل وأن رأيَهم رأيٌ ابتدائيٌّ، أو آمنوا حسب الظاهر فقط لا ببواطنهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٢٨-٣٠].

الفوائد: بعد أن أتى قوم نوح بأربعة أدلة لردّ دعوة نوح وهي: **الأول**: أنك بشرٌ مثلُنا. **الثاني**:

أن أتباعَك هم من الأراذل عديمو التفكير. **الثالث**: أنك لا تمتاز علينا بشيء. **الرابع**: أننا نظنك من الكاذبين.

فقال نوح عليه السلام ردًا على استدلالاتهم تلك: استخدموا بصيرتكم وتأملوا أنني لو كان عندي حُجة أو بيّنة من الله فإن كلامكم لا قيمة له أمام البيّنة الإلهية. لأنني لا أدعي أنني كائن غير بشري أو بشر مختلف عنكم، فلو تَرَكْتُم التكبُّرَ جانبًا وقبلتم كلام بشر مثلكم كان ذلك حسنًا، وأمَّا قولكم إنَّ أتباعي هم كيت وكيت، فما علاقة ذلك بدعوتي، يعني أنكم إن قلتم: إنهم فقراء، فأنا لا أريد أجرًا من أحد سواءً كانوا فقراء أم أغنياء. وإن قلتم: إنهم منافقون، فجوابكم أنهم سيلقون ربهم وهو أعلم ببواطنهم. وأمَّا قولكم: إنني لا أمتاز عليكم وليس لي عليكم من فضل، فلست مُدَّعيًا التفوُّقَ عليكم. وأما قولكم إنكم تظنون أنني من الكاذبين، فالظنُّ ليس دليلاً. إذن فكِّروا جيِّدًا واسألوني الدليل واحتملوا أن أكون ممن شملتهم رحمة الله وخفيت تلك الرحمة عنكم. إضافةً إلى ذلك أنني لم أجْبُرْكم على اِتِّباعي.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ أنه لا ينبغي على من يقوم بالدعوة إلى التوحيد ونشره أن يأخذ أجرًا من أحد، فسهم الإمام والخُمس لم يكونا في دين الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: ٣١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أن الأنبياء ليسوا مأمورين بتولي أمر رزق العباد وحياتهم ومقدَّراتهم وشفائهم، وهذه الجمل ردٌّ على ما يُطالب به القوم، لأن القوم تخيلوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه يجب أن يملكوا خزائن الله لا أن يكونوا فقراء من الطبقة الدنيا من الناس. وجملة ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ دليلٌ على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب، وهذه الجملة ردٌّ على القوم الذين كانوا يقولون: إن أتباعك منافقون أراذل. فيقول نوح عليه السلام: ليس لي علم ببواطنهم لأني لست مُطّلعًا على الغيب.

وجملة: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ دليل على أن الأنبياء لا يمتلكون قدرات الـملائكة، وهذا أيضًا ردٌّ على القوم الذين كانوا يقولون: إن أتباعك سيِّئو العمل، فنوحٌ ﵇ يقول لهم: لست مَلاكًا حتى أُسجِّل - بأمر الله - أعمالهم السيئة.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٢-٣٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ أن الأنبياء ﵈ أهل بحث وحوار وأن دينهم دين تحقيق واستدلال وبحث.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أن حضرة نوح ﵇ حاور قومه وجادلهم زمانًا طويلاً.

ومرادهم من جملة: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أن الإتيان بالعذاب وبالأمر الـمُعجِز بيد الله وحده وليس بيد الأنبياء.

والـمقصود مِنْ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أنكم بسبب كثرة طغيانكم وعنادكم وإعراضكم قد تتعرَّضون إلى خذلان الله، أي أن يَكِلَكُمُ اللهُ إلى ضلالكم ويُخلّي بينكم وبين الضلال عندئذ لن ينفعكم نُصحي شيئًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود:٣٥-٣٧].

الفوائد: لما كان نوح ﵇ حزينًا لكفر قومه وعدم إيمانهم وَلِمَا كانوا يقومون به من أعمالٍ سيِّئةٍ،

وكان لا يزال يأمل بإيمانهم، أوحى الحقّ تعالى أنَّ قومَكَ لن يؤمنوا فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ولا تحزن على عذابهم، وقم ببناء سفينةٍ لنجاة نفسك وأتباعك.

والمُراد من عبارة ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ أنك تحت نظرنا وتحت مراقبة ملائكتنا وفي حفظهم وأنك تصنع الفلك أي السفينة بأمرنا ورعايتنا.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ۝٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾ [هود: ٣٨-٤٠].

الفوائد: كانت سفينة نوح كبيرةً جدًا واستغرق بناؤها زمنًا طويلاً، وكان نوحٌ يبنيها في وسط البادية، وكان الناس يمرّون عليه فيقول أحدهم: إنه يبني بيتًا، ويقول آخر مستهزئًا: إنه يبني سفينة في وسط البادية! ويقول ثالث ساخرًا: إنه يبني مستودعًا، ويقول آخر: إنه يبني هذا البناء خوفًا من البرد. إلى أن جاء الأمر الإلهي ونبع الماء من الأرض. وأوحى الحقّ تعالى لنوح ﷺ أن احمل في السفينة من كل حيوان زوجين أي ذكرًا وأنثى، واحمِل عليها أسرتَك والمؤمنين.

والمُراد من ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ زوجة نوح وابنه كنعان. ولكنه حمل في السفينة أبناءه الثلاثة الآخرين: سام وحام ويافث وزوجاتهم.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: ٤١-٤٣].

الفوائد: كلمتا ﴿مَجۡرٜىٰ﴾ و﴿مُرۡسَىٰ﴾ مصدران مثل كلمة مُنْزَل في جملة: ﴿مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾. بناءً على ذلك يُمكن أن تكون جملةُ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خبرًا مقدَّمًا، وأن تكون كلمتا ﴿مَجۡرٜىٰ﴾وَ ﴿مُرۡسَىٰ﴾ مبتدأ. واعتبر بعضهم كلمتَيْ ﴿مَجۡرٜىٰ﴾ و﴿مُرۡسَىٰ﴾ على وزن اسم الفاعل [أي

قرؤوهما مُجْرِي ومُرسِي] فاعتبروا الكلمتين اسمَ فاعلٍ وصفةٍ لِلَّهِ. ولكن لما كان هذا القول مُخالفًا في إعرابه لما هو في المصحف فهو قولٌ غير صحيح. ومن الممكن أن تكون جملة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ كلامًا واحدًا. ومن الممكن أن تكون جملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ كلامًا مستقلاً، والمقصود من هذه الجملة: أن يعلم رُكَّاب السفينة أن السفينة ليست هي المُنقِذ لهم بل الله الذي يُجري السفينة ويُرسيها هو المُنقِذ، فلا ينبغي الاعتماد على السفينة بل على فضل الله. واعلم أن الإنسان إذا جلس في سفينة الفِكر متأملاً في مطالب التوحيد ومعرفة الله فإن أمواج التخيُّلات والضلالات تُحيط به من كل جانب، فعندما تَرِدُ الأفكارُ على ذهن شخص فعليه أن يتوكل على الله ويعتمد على هدايته كي لا تغرق سفينة فِكره!

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٤-٤٧].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنه لا إيمان له بدليل جملة ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم:٣٦] وآية ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ للتأكيد، كقولنا: زيدٌ عدلٌ، أو بتقدير مضاف يعني: ذو عمل غير صالح.

ولما صدرت مطالبةُ نوح بشأن ابنه عن غير علم، والقول بلا علم إثم لذا عاتبه الله تعالى، ثم استغفر نوح ربه واعتذر إليه ولجأ إلى الله ووعده أن لا يرجع إلى مثل هذا القول، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ....﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ

أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٨-٤٩].

الفوائد: عندما رَسَتْ سفينةُ نوح على جبل الجودي الذي كان في أطراف الموصل خاف نوح عليه السلام ولم يكن يعلم هل يترجَّل عن السفينة أم لا؟ فجاءه الوحي: اهبط من السفينة بسلام. فعلم نوح عليه السلام أنه لن يكون هناك أذىً أو ضرر في الأرض وأن الله وعده وأتباعه بتيسير أمور المعيشة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أن هناك أممًا قد نشأت من نوح وأتباعه، والبشر الحاليون هم ذرية تلك الأمم ذاتها، ولما كان متاع الدنيا حقيرًا، لم يقل الحقّ تعالى عن المؤمنين: ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، بل قال عن الكفار: ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعلم هذه الأمور الغيبية والقصص القرآنية قبل أن تُوحى إليه، فلا هو ولا قومه كانوا يعلمون تلك الأخبار، وهذا يُثبت بُطلان روايات الغُلاة الذين يقولون إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفاءه [الأئمَّة عليهم السلام] يعلمون كل شيء أو أن ابن عمه عليًّا عليه السلام الذي ولد قبل بعثة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ جميع الكتب السماوية (!). فكل هذه الأقاويل كفرٌ، وكلُّها مناقضة للقرآن.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٠-٥٢].

الفوائد: ذُكِرَتْ قِصَّةُ حضرة هود عليه السلام في سورة الأحقاف، الآية ٢١ فما بعد، وفي سورة الفجر، الآيات ٦ إلى ٨، وفي سورة الأعراف الآيات ٦٥ حتى ٧٢، وفي سورة الشعراء الآيات ١٢٣ فما بعدها، وفي سورة الحاقَّة، الآيات ٦ إلى ٨.

وكانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودًا، فيما بين عُمان إلى حضرموت، فاليمن كلّه. وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله، فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام: أحدها يُقَالُ:

«**صُداء**»، وصَنَمٌ يُقَالُ له «**صَمُود**»، وصَنَمٌ يُقَالُ له «**الهباء**». وكانوا يعتبرون هذه الأصنام شفعاء لهم عند الله، وكانوا يدعونها ويستغيثون بها لقضاء حوائجهم الدنيوية، فنهاهم حضرة هود ﷺ عن ذلك، وبيَّن لهم أن شفاعتها كذبٌ باطلٌ وأنها لا تستحق هذا الإجلال والتعظيم لها وعبادتها، لكنهم حقَّروا هودًا ونسبوه إلى السفاهة والكذب، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر من السَّماء ثلاث سنين. وقد أبدى هود ﷺ ثباتًا واستقامةً في دعوته، وكان يقول لقومه: إن رجعتم إلى الهدى أنزل الله عليكم المطر من السماء متواليًا مدرارًا، وزادكم قوةً ونعمةً.

وكان حضرة هود ﷺ من أحفاد نوح ﷺ وبُعِثَ في سن الأربعين بعد فترة من وفاة نوح ﷺ، وقيل: إنه دعا قومه سبعمئة وستين عامًا فلم يؤمنوا. وكان عمل هود ﷺ الزراعة والتجارة.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود: ٥٣-٥٧].

الفوائد: أصرّ قوم هود على شركهم وعبادتهم أصنامهم، ومقصودهم من جملة ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ أن بعض أصنامنا ابتلاك بالجنون.

والـمُراد من جملة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أن جميع ما يدب على الأرض مقهور لقدرة الله، لأن مَنْ أَخَذَ بناصيةِ إنسانٍ (والناصية: منبت الشعر في مُقَدَّم الرأس) فقد تمكَّنَ منه وسيطر عليه.

والـمُراد من قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي يُهْلِكُكُم بكفركم ويستبدل بكم قومًا غيركم كما أهلك من كان قبلكُم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾ [هود: ٥٨-٦٠].

الفوائد: في نهاية المطاف لم يؤمن قوم عاد تعصُّبًا لدين آبائهم وأجدادهم، وتقليدًا لكبرائهم، ولم يتخلَّوْا عن الشفعاء وأبواب الحوائج التي أسْمَوْها من عند أنفسهم، حتى جاء أمرُ الله وسلَّط الله عليهم ريحًا صرصرًا لمدة سبع ليال وثمانية أيام، فقُطِّعوا قِطعًا، وحفظ الله هودًا والمؤمنين من ذلك العذاب والريح. لقد عصا قومُ هود اللهَ مدَّةً قليلةً فابْتُلُوا باللعن والطرد إلى يوم القيامة.

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ۝٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٦٢﴾ [هود: ٦١-٦٢].

الفوائد: كان قوم ثمود من سكان الجبال، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ويأوون إليها، وقد مرَّ رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع. وكان لهم عددٌ من الأصنام كانت تماثيل لعدد من الصالحين كانوا بينهم فلمّا رحلوا قام قوم ثمود بنحت تماثيل على صورهم لتَذَكُّرِهِمْ ثم أخذوا يتوسَّلون إلى هذه التماثيل لقضاء حوائجهم باسم الشفاعة لهم عند الله، وكانت أصنامهم: «**وُدّ**» و«**جَدّ**» و«**شَمْس**» و«**مناة**» و«**مناف**» و«**اللات**». وقد ذكر الله قصة حضرة صالح عليه السلام في القرآن في سورة الشعراء، الآيات من ١٤١ إلى ١٥٨، وفي سورة الأعراف، الآيات ٧٣ إلى ٧٩، وفي سورة النمل، الآيات ٤٥ حتى ٥٣، وفي سورٍ أخرى أيضًا. وقيل: إن صالح بُعِثَ وله من العمر ١٦ عامًا، ودعا قومه حتى بلغ من العمر مئةً وعشرين عامًا، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعًا في قومه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ۝٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا

تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: ٦٣-٦٥].

الفوائد: إنَّ التعصُّب الدينيَّ منعَ قومَ صالح من التفكير الصحيح، ورغم أنهم طلبوا من صالح عليه السلام معجزةً وأنَّ الله أخرج لهم، بدعاء حضرة صالح عليه السلام، ناقةً من الصخرة، واصلوا عداوتهم له.

والـمُراد من جملة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أن تلك الناقة لا تحتاج إلى النفقة عليها فدعوها ترعى في أرض الله. واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه: ١- أنه تعالى خلقها من الصخرة. ٢- أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل. ٣- أنه تعالى خلقها حاملاً من غير اتِّصالٍ بذكر. ٤- أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة. ٥- ما روي أنه كان لها شرب يوم واحد [وَلِكُلِّ القوم شرب يوم آخر] وأنه كان يحصل منها لبنٌ كثير يكفي القوم كلَّهم. وقد أمهلهم الله ثلاثة أيام لعلهم يتوبون، لكن أكابرهم وسوسوا إليهم وحالوا بينهم وبين التوبة. [قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغَّبهم في الإيمان، وذلك لأنهم] لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب، فقالوا: وما علامة ذلك؟ فقال: تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرَّةً، وفي الثاني محمرَّةً، وفي الثالث مسودَّةً، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع، فلمّا رأوا وجوههم قد اسودَّت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدُّوا للعذاب فصبَّحهم اليوم الرابع وهي الصيحة والصاعقة والعذاب[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود: ٦٦-٦٨].

الفوائد: الـمقصود من ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الصوت العظيم والصاعقة السماوية، والزلزال الذي ضرب الأرض على إثرِهما، فتمزَّقت الآذان من شدَّة الصيحة، وخفقت القلوب، وخرجت

١- استفاده الـمؤلف من تفسير: **مفاتيح الغيب** لفخر الدين الرازي، ج ١٨/ ص ٢٠.

الأرواح من الأبدان، ووقع القوم صرعى في الأرض.

والـمقصود من ﴿بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي بُعْدًا لهم عن رحمة الله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

الفوائد: بعد أن ذكر الحق تعالى قصص حضرة نوح وهود وصالح عليهم السلام أخذ ببيان قصة حضرة إبراهيم ولوط عليهما السلام، فذكر كيف جاء الـمأمورون الإلـهيُّونَ أي الملائكة إلى إبراهيم ليبشِّروه بالولد وليخبروه بإهلاك قوم لوط. كان حضرة إبراهيم عليه السلام كثير الإكرام للضيف، فلما جاءه أولئك الضيوف سارع فورًا إلى ذبح عجلٍ وَشَوْيِهِ لهم، وأحضره بين أيديهم ولكنه رأى أن أيديهم لم تمتدّ إلى هذا الطعام. ولما كانت العادة أنه عندما يدخل عدوٌّ إلى بيت شخصٍ فإنه لا يأكل من طعامه، ظن إبراهيم أن هؤلاء الضيوف الذين لم يأكلوا من طعامه إنما جاؤوا بقصد العداوة ولم يعرف أنهم من الـملائكة، فخاف منهم، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على أنَّ الأنبياء عليهم السلام لا اطلاع لهم على الأمور الغيبية والتكوينية.

جاء الخطاب بضمير الـمذكَّر (كُمْ) في جملة: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ رغم أن الـمخاطب هو سارة زوجة إبراهيم، من باب التغليب، لأنهم يخاطبون في العربية أهل البيت أي العائلة بضمير الـمذكَّر باعتبار أن القيِّمَ على العائلة ومديرَها رجلٌ. وبناء على ذلك فلو قلنا: إن الـمخاطب بالآية ٣٣ من سورة الأحزاب، أي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣] هم نساء النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فلا إشكال في ذلك.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

الفوائد: بما أن إبراهيم عليه السلام تجادل مع المأمورين مِنْ قِبَلِ الله، جعل اللهُ هذه المجادلة كأنها معه فقال: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾، ولم تكن تلك المجادلة بسبب عدم الرضا بأمر الله، ولذلك مدح الله إبراهيم عليها ووصفه بأنه كان حليمًا ورؤوفًا شفيقًا ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾. ومن هذا يَتَبَيَّنُ أن مجادلة الملائكة كانت لشفقته على قوم لوط وأمله أن يرحمهم الله، ولا يعذِّبهم، لذلك لما قالت الملائكة ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال إبراهيم عليه السلام: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا لا. حتى بلغ العشرة قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك قال: إن فيها لوطًا[1]. فقالت الملائكة عندئذٍ: نحن أعلم بمن فيها وسوف ننجي لوطًا.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٧٧-٨٢].

الفوائد: بما أن الملائكة عندما تتمثل بصورة بشر تكون في غاية الحُسْن، لذلك ساء حال

١- مضمون هذه المجادلة مستفاد من تفسير **مفاتيح الغيب** للفخر الرازي، ج ١٨/ ص ٢٩.

لوط ﷺ لما رآهم، لأن عدم قيامه بضيافتهم مخالفٌ للإنسانية، ولو أضاف أولئك الـملائكة - الذين بصورة رجال في غاية الحُسْن - في بيته، فإنه من الـممكن أن يتعرض لهم قومه بالسوء لذلك قال: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾. وهجم قومه فعلاً بكل قلّة حياء على باب منزله، قال لهم لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾، ومُرادُهُ من كلمة «بَنَاتِي»: نساء أمته، لأنه كان نبيًا لهم فكان كالأب لهم. أي اقنعوا بالزواج منهن ولا تفضحوني في ضيفي. ولكن لما مارس القوم قلة الحياء أصيبوا بالعمى بقدرة الله وبإشارة الـملائكة، وكان لوطٌ ﷺ يتمنى أن لو كانت لديه القوَّة على دفعهم، فقالت له الـملائكة: نحن مأمورو الله أي نحن أفضل قوَّة لدفع الظالـمين عنك.

﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

الفوائد: الـمُراد من جملة: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ أهل مدين، وهي مدينة تقع بين الشام والحجاز. وكان كلُّ نَبِيٍّ بعد أن يدعو قومه إلى التوحيد، يدعوهم إلى ترك أكثر معاصيهم شيوعًا، ولما كان التطفيف في الكيل والـميزان، وبخس الناس أشياءَهم، أي التقليل من قيمة أشياء الناس، قد شاع كثيرًا في أهل مدين، كان ذلك أول ما نهاهم عنه شعيب ﷺ - بعد دعوتهم إلى التوحيد -.

والـميزان كلُّ ما يُقَاسُ به سواء كان الـميزانَ الـمعروف أم القبَّان أم الـمتر أم أيَّ شيءٍ آخر، فعلى أهل التجارة أن ينتبهوا جيدًا أن لا ينقصوا الوزن بل يعطوه وافيًا تامًّا طبقًا لقوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

وليس الـمُراد مِنْ جُملةِ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ تكرار عبارة ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾، بل الأشياء عامّة والـمكيال والـميزان خاصَّان، أي يجب مراعاة حقوق الناس في كل شيء وعدم

الإنقاص منها.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُملةِ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: بقية الكسب الحلال والفائدة التي تبقى والتي يجب أن يكتفي بها الكاسب ويقنع بها ويترك الحرص. وقال بعض مِمَّن يفسِّر القرآن برأيه وحسب هواه: إن الـمقصود من عبارة: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية!! وليت شعري ألم يقل أحد لهؤلاء الـمفسِّرين: كيف كلَّمَ اللهُ تعالى إذن قومَ شعيب بكلام لا معنى له وقال لهم: إن الإمام الثاني عشر أفضل لكم [من التطفيف في الكيل والوزن]! مع أنه زمن شعيب عليه السلام لم يكن هناك إمامٌ ولا مأموم، ولم يكن هناك سوى الأنبياء وأتباعهم.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٧-٩٠].

الفوائد: كان لدى حضرة شُعَيْب عليه السلام ثروةٌ وقطعانٌ من الـمواشي وزروعٌ، وكان كثير الصلاة، لذلك قال له قومه: أصلاتك تدعوك إلى أن تأمرَنا بالتوحيد وترك عبادة آلهتنا وترك التطفيف والبخس؟ وقد قالوا له هذا الكلام على سبيل السخرية والاستهزاء. وكذلك قولهم له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إنما قالوه على سبيل الهُزْءِ والسخريةِ. أجل، هكذا يفعل دائمًا الـمغرورون الجاهلون. لكن حضرة شُعَيْب عليه السلام قال لهم في الـمقابل: إنني لا أريد إلا الإصلاح فلا تدعوكم عداوتُكُم لي أن تُبْتَلَوا بعذاب الله وأن يقع عليكم ما وقع على الأقوام الـماضين.

ويُفْهَم من جملة: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أن بلاد قوم لوط لم تكن بعيدة عن مدين، ومن الـممكن أن نقول: إن زمن هلاك قوم لوط كان قريبًا من زمن حضرة شُعَيْب عليه السلام. وجملة

﴿أَرَءَيْتُم....﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، أي انظروا وتأمَّلوا.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: ٩١-٩٥].

الفوائد: كان الناس، وسيبقون دائمًا، يُعيرون شأنًا للقبيلة ولعباد الله أكثر مما يُعيرون شأنًا لِلَّهِ تعالى، مثلما نجد قوم شُعيب الذين قالوا له: لولا أسرتك لرجمناك.

و ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ هي ذلك الصوت السماوي العظيم الذي مات منه قوم شُعيب جميعهم وسقطوا على الأرض صرعى.

وجملة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد.

وجملة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ للعِبرة، أي على الآتين من بعدهم أن يعتبروا وينظروا ما حلّ بالأمم الماضية حتى أصبحت كأنها لم تكن في هذه الدنيا، وأن مصيركم -أيها السامعون- سيكون مثل مصيرهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ٩٩ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ١٠٠﴾ [هود: ٩٦-١٠٠].

الفوائد: كل من اتَّبع شخصًا اِتِّباعًا أعمى حُشِرَ معه وكان ذلك الشخصُ المُتَّبَعُ إمامَه ومُقتداه يوم القيامة. وقد بيّن القرآن مرارًا أن شعب فِرعون الذي كان معه سيُحْشَر معه يوم

القيامة وسيكون فِرعون إمامَه يوم القيامة. كما بيّن الله تعالى قصة تلك القرى بعد بيانه للدلائل العقلية كي يكون ذلك أكثر وقعًا في قلوب عامة الناس.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠١-١٠٤].

الفوائد: غايةُ الحقِّ تعالى من بيان هذه القَصص ذِكر التوحيد وردُّ الشرك، ومعبودات المشركين علاوةً على عدم نفعها عابديها بشيء، وأنها ستكون سببًا لخسارتهم وضررهم، كما تُوضح ذلك جملة: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

وسمَّى الله يوم القيامة بـ: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ لأن جميع الخلق سيجتمعون فيه وسيطّلع جميعهم على أعمال بعضهم بعضًا. نعوذ بالله.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

الفوائد: تدلُّ كلمتا ﴿شَقُواْ﴾ و﴿سُعِدُواْ﴾ أن السعادة والشقاء عارضان لا ذاتيّان. وقد استشكل بعضهم الخلود في النار وفي الجنّة، وقال: لماذا يبقى المذنب والعاصي، الذي عصى ربه سبعين عامًا مثلاً، في النار أبد الآبدين؟ وقد أُجيب عن هذا الإشكال بأجوبة لا تخلو من إشكال. ويُمكننا أن نقول: **أولاً**: طبقًا لهذه الآية التي قال تعالى فيها: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، استثنى الله تعالى خلود أهل النار فيها بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ بمعنى أنه تعالى يمتلك حقّ النقض (الفيتو) - إن صحَّ التعبير - لأنه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، فيُمكنه أن يعفو عن أهل

النار، وإذا كان خُلف الوعد قبيحًا فإن خُلف الوعيد عند العفو ليس بقبيح. وأما أهل الجنّة فإن بقوا فيها على الدوام فذلك من فضل الله ولا إشكال عقلي في ذلك. ويُمكن القول: إنه لهذا السبب، بعد أن قال تعالى بحقّ أهل الجنّة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، قال: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، يعني أنه رغم أن الله تعالى بحاكميّته المطلقة والدائمة، يمتلك هنا أيضًا حقّ النقض (الفيتو) ويستطيع أن يُنهي الجنّة ويُفني أهلها إن أراد، إلا أنّه بفضله وعطائه لن يقطع نعيم الجنّة وسيبقى أهل الجنّة فيها على الدوام. ويُمكن القول: إن أهل التوحيد لا يُعذّبون عذابًا أبديًا دائمًا لأن رسول الله ﷺ قال: «**التوحيد ثمنه الجنّة**»[1]. فالمُوّحد سيذهب في نهاية المطاف إلى الجنّة، أي ليس كلُّ كُفرٍ سببًا للخلود في النار، أما الشرك فهو موجب للخلود في النار لأن المشرك أنكر الحقّ اللانهائي الذي هو حقّ الخالق فيجب أن يُعذَّب بلا نهاية، ومثل المشرك: الكافر الذي يُنكر وجود الله أيضًا. ولذلك قال تعالى في سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: ٦٢].

طبقًا لهذه الآية سيكون جميع الكفار الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر [ويعملون الصالحات] مأجورين عند ربّهم يوم القيامة ولن يكون عليهم خوف وحزن كبيران وإن عُذِّبوا فإن عذابهم سيكون مؤقتًا، هذا بالطبع بشرط أن يكون الإسلام الحقيقي لم يصل إليهم لأن من يؤمن بالله إيمانًا حقيقيًّا لا يُعاند أمر الله فإذا وصل إليه الإسلام الحقيقي وفهمه لم يُنكره. (لمزيد من

١- لم أجده بهذا اللفظ، ولكن معناه صحيح وفي معناه أحاديث عديدة صحيحة السند مثل: «مَن مَاتَ لا يشرك باللهِ شَيئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» (متفق عليه)، و«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ». (أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وغيرهم). وفي المصادر الشيعية الإمامية: أخرج ابن بابويه القُمّي (المُسَمَّى بالشيخ الصدوق) في كتابَيْه «**التوحيد**» و«**عيون أخبار الرضا**» بسنده عن علي بن أبي طالب قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي، وَمَنْ جَاءَ مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِالْإِخْلَاصِ دَخَلَ فِي حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ فِي حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي». **بحار الأنوار**، ج٣/ ص٦.

التوضيح يُراجع التعليق على الآية الـمذكورة من سورة البقرة).

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١٠٩-١١٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أن دين الـمشركين ليس دين بحثٍ وتحقيقٍ بل مبنيٌّ على تقليد للآباء والأجداد فحسب، وَمِنْ ثَمَّ لا يجوز الاهتمام بعقائد دين كهذا ولا الاعتماد عليها، ولا ينبغي أن تكون سببًا لتردُّد أي إنسان في قبول الحقّ خاصةً بالنسبة إليك أيها الرسول الـمأمور مِنْ قِبَل الله.

وجملة ﴿فَٱسْتَقِمْ...﴾ خطاب للرسول ﷺ ولكل مؤمن بأن عليهم أن يستقيموا ويثبتوا على طريق الله وأن لا تَزِلَّ أقدامُهُم عنه.

وكما يصعب على الإنسان أن يجد الخط الدقيق الذي يفصل بين النور والظل فضلاً عن أن يمشي على هذا الخط، كذلك الشأن في الخط الفاصل بين التشبيه والتعطيل في التوحيد، والخط الفاصل بين الإفراط والتفريط، والخط الفاصل بين القوة العاقلة والقوة الغضبية، وبين القوة الغضبية والشهوانية وهكذا. فالبقاء على الحدّ الوسط والعمل به أمر صعب، كما قال ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي سُورَةُ هُود وأخواتُها**»[1]. ورُوِيَ أن بعضهم رأى رسول الله ﷺ في الـمنام فقال: قد

١- روى ابن بابويه القمي (الـمعروف بالشيخ الصدوق) في كتابيه «**الخصال**» و«**الأمالي**» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ؟ قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودُ وَالْوَاقِعَةُ وَالْـمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. انظر الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ١٦/ ص ١٩٢. وفي مصادر أهل السنَّة: أخرج هذا الحديث ذاته عن ابن عباس كل من: الترمذيّ في **السنن**، ٥/ ٤٠٢، رقم (٣٢٩٧) وقال: حسن غريب، والحاكم في **الـمستدرك**،

قلتَ يا رسول الله شيبتني هود؟ قال: قلتُ ذلك. فقال له: فلم؟! فقال ﷺ: لقوله تعالى ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[1].

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٣-١١٦].

الفوائد: الركون إلى الظالم والاعتماد عليه سبب لدخول النار، أما الرجوع إلى الظالم لأجل رفع ظلم واستيفاء حقّ فلا إشكال فيه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ على وجوب صلاة الصبح والعصر اللذَيْن هما طرفا النهار، وهذا كالآية التي قال تعالى فيها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

والمُراد من جملة: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ...﴾ تسليةُ رسولِ اللهِ ﷺ وتقويةُ قلبِهِ لبيان أن أهل الخير ومُتَّبعي العقل في الأمم السابقة كانوا أيضًا قلَّةً وأن أغلب الذين ركضوا خَلْفَ الرفاهية ونِعَم الدنيا كانوا ظالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٧-١١٩].

٢/ ٣٧٤، رقم (٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخاريّ. وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة في **المصنَّف**، ٦/ ١٥٢، رقم (٣٠٢٦٨)، وغيرهم.

١- الرواية بهذه الصورة موجودة في **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، بلا سند، وهي على كل حال ليست بحديث بل رواية لرؤيا فحسب.

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ﴾ إلى آخر الآية، أن الله تعالى لا يُهلك القوم الذين كفروا وأشركوا وظلموا إذا أصلحوا حالهم.

والمقصود من المشيئة في جملة ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ المشيئة المُجبرة، ولو للمنع، يعني أن الله تعالى لم يشأ أن يجبر الناس على الهداية.

والمُراد من جملة: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ الأشخاص الذين تشملهم رحمة الله بفضل بحثهم عن الحقّ وطلبهم له وسعيهم إليه، فكأنهم خُلقوا لأجل الرحمة. وهذا هو المراد من جملة ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾.

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: ١٢٠-١٢٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أن الحقّ تعالى بيّن لنبيّه محمد ﷺ قصص الأنبياء الماضين كي يُسكِّن فؤاده ولكي يعلم أن الرسل الإلهيين جميعًا ابْتُلوا بالمصاعب والمشقات وبعناد قومهم وصبروا جميعًا على أذى قومهم، كي يثبت النبيّ ﷺ ويصبر ولا يعتريه التعب. ولا شك أن هذه القصص مفيدة للمؤمنين أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

والمقصود من جملة: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ العتاب المشوب بالعقاب والتهديد، أي اعملوا ما شئتم فمهما عملتم فإن الله لكم بالمرصاد، وهذا ما تُوضِّحُه الآية التالية لها أي قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: ١٢٣].

الفوائد: الغيب على ثلاثة أقسام: غيبٌ ماضٍ وغيبٌ حاضرٌ وغيبٌ مستقبلٌ. والإنسان يحتاج

إلى معرفة هذه الغيوب الثلاثة:

الأول: ما كان قبل وجوده.

الثاني: الغيب الحاضر وهو معرفة ما هو مفيد له وسببٌ لكماله زَمَنَ حياته.

الثالث: الغيب المستقبل وهو العلم بمستقبل الإنسان ومستقبل البشرية في عالم الآخرة.

والعلم الواقعي والحقيقي بأقسام الغيب الثلاثة هذه خاصٌّ بالله تعالى، وعلى البشر أن يتلقَّوْا هذا العلم عن الله من خلال ما أوحاه لأنبيائه عليهم السلام.

سورة يوسف

مكيّة وهي مئة وإحدى عشر آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: ١-٢].

الفوائد: ﴿تِلۡكَ﴾ اسم إشارة ومبتدأ، وقد جاءت مؤنثة بسبب خبرها الذي هو جمع. و«**آيَاتُ**» خبرها وأُضيفت إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وألف ولام الكتاب هما ألف ولام العهد أي هذا الكتاب. و﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ اسم فاعل أجوف من باب الإفعال وهو صفة للكتاب.

وَ «**إِنَّ**» من الحروف الـمُشبَّهة بالفعل، والضمير «**نا**» اسمها، وجملة: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به وكلها في محل خبر ﴿إِنَّ﴾.

وكلمة ﴿قُرۡءَٰنًا﴾ حال منصوب متعلق بضمير الـمفعول به لفعل ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾.

وكلمة ﴿عَرَبِيّٗا﴾ صفة للقرآن. و«لَّعَلَّ» من الحروف الـمُشبَّهة أيضًا، وضمير «كُمۡ» اسمها. وجملة: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ التي هي جمع مُخاطَب من فعل مستقبل، خبر ﴿لَعَلَّ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ أن آيات القرآن جميعها بيّنة واضحة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أن القرآن نزل من مقام أعلى، والـمقام الأعلى هو مقام العظمة الربانيّة. ومن الـممكن أن نقول: بما أن الـملائكة يسكنون في السماء ومقامهم في العُلوِّ فلمَّا نزلوا بالقرآن عُبِّر عن الوحي بالقرآن بالإنزال.

وتدلُّ كلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ أن المعاني المُرادة من القرآن واضحة لأن العرب والإعراب مُشْتَقَّان من مادّة واحدة، والإعراب معناه إظهار المعنى، والمقصود من كون القرآن عربيًّا أن معانيه واضحة، وكل من اقترب من القرآن، خاصةً إذا كان مُلِمًّا بلغة العرب، استطاع أن يستفيد منه ويفهم معانيه، لأن مطالب القرآن مطابقة للفِطرة وَمِنْ ثَمَّ فإن المشاعر النقيّة الصادقة والعقل المُشرق يُدرك معانيه بسرعة.

وحكمة نزول القرآن باللغة العربية هو أن لغة العرب من ناحية الفصاحة والسلاسة وإفهام المُراد بواسطة إعراب الكلمات ومن ناحية اللطائف الأدبية وكثرة التصريف والاشتقاق تمتاز على سائر لغات الدنيا امتيازًا واضحًا، كما تمتاز على لغات الدنيا الحية جميعها من ناحية تركيب الجمل وتركيب المفردات ومن ناحية التقديم والتأخير والحذف والذكر والوصل والفصل والمجاز والكناية والاستعارة وضرب الأمثال، فلغة العرب لغة أدبية كاملة لا نظير لها. ولم تجتمع هذه الميّزات في أي لغة في العالم. والقرآن بلغ حد الإعجاز من ناحية جمال الألفاظ وحلاوتها ولطفها ومن ناحية روعة البيان وجمال البلاغة وفنونها، والمظهر الكامل لتلك الأمور يتمثل في اللغة العربية لا في غيرها من اللغات، وقد أثبتت التجربة أن ما يُمكن التعبير عنه باللغة العربية من لطائف المعاني ودقائقها لا يُمكن التعبير عنه باللغات الأخرى، ومهما كانت ترجمة القرآن سلسةً فإنها لن تكون أبدًا مثل الأصل العربيّ، ولا يُمكنها أن تُعطي مفاهيم القرآن ذاتها بشكل تام. وبالطبع المهم أكثر من جمال الألفاظ جمال القرآن المعنوي أي كونه كتاب هداية وعلوم، وكون أُسس تشريعاته مُحكمة قوية، وقد جاءت هذه الهداية والعلوم والتشريعات باللغة العربية لأنها أكثر قابلية للفهم من سائر اللغات، ولذلك قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

الفوائد: عرّف الله تعالى في هذه السورة قصَّةَ يوسف عليه السلام بوصفها قصةً جميلةً، وبتعبير

القرآن: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، رغم أن قصص القرآن جميعها بشكل عام أفضل من قصص سائر الكتب السماوية من عدة جهات:

الأول: من ناحية بيانها لقصص الأنبياء عليهم السلام وهم رجال الله وأصحاب الأعمال الصالحة الصحيحة، وليست بيانًا لقصص السلاطين أو الأبطال أو الأشخاص المتحررين من كل قيد أو الأغنياء الذين لا أهمية لهم، ولا بيانًا لقصص العشق الشهواني وهوى الفُسّاق والفُجّار وهوسهم.

الثاني: أن المُراد من قصص القرآن التعليم والتعلُّم والموعظة والإرشاد، لا مجرد التسلية وتمضية الوقت وتعلُّم أمور لا فائدة منها.

الثالث: أن ما قاله القرآن كان مطابقًا للواقع ولأن قائل القرآن هو الله الخبير البصير خلافًا لقصص مؤلفي الروايات المبنيّة على الظنون والتخيلات.

وهذه المزايا -إضافةً إلى المزايا الأخرى- التي جاءت في قصص القرآن لم تجتمع في أي كتاب آخر، ولذلك فإن «الفِردوسيّ» الذي نظم ستين ألف بيت في مدح ملوك الفُرس، قال في بداية كتابه الموسوم بـ «يوسف وزُليخا»:

لن أحكي بعد الآن قصص الملوك	لقد ملّ قلبي قصص الملوك
تلك القصص كذب محض	مئتان منها لا تُساوي قيمتها حفنة تراب
لقد سئم قلبي وأخذني الملل	من كِيف وطوس ومن بور زال أيضًا
لقد نظمت قصصًا كثيرة	من الأساطير والتاريخ القديم
وزيّنت قصائدي بكل نوع من النظم	وقلت فيها كل ما أردت قوله
والآن إذا بقي من حياتي بضعة أيام	فلن أُمضيها إلا في الطريق المستقيم
يجب التكلم عن الأنبياء	ليس هناك شيء سوى صدقهم واستقامتهم
تعال اقرأ القصة من قول الله	من يقبلها هو الرجل العالم
اقرؤوا ألف لام تلك الآيات	كي تعلموا تلك الحكايات

حكايات هذه القصة في غاية الجمال ... إنها كلمات محيية للروح جاذبة للقلب

لقد سمّى الحقّ تعالى هذه القصة بأحسن القصص لأن العقائد والأخلاق والتقديرات الإلهية تمثلت فيها على نحو عجيب، وهي مفيدة جدًا لشباب اليوم الغارقين في الشهوات والماديّات.

في هذه القصة نجد ذِكْرَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأولاد الأنبياء وَذِكْرَ الملائكة والبشر، وذِكْرَ الأنعام والطير، وَذِكْرَ سِيَرَ الملوك وآداب العباد وأحوال المسجونين وفضل العلماء وعيوب الجهلاء ومكر النساء وحسد الحاسدين وشغف العاشقين وعِفَّة أصحاب النخوة والشهامة وشكوى المُبتلين بالمصائب وعلم التوحيد والفقه وتعبير الرؤيا، وعلم الفراسة والسياسة والكياسة وعلم المعاشرة وتدبير المعيشة، إنها قصة الخير والصلاح في الخُلُق والوجه الحسن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝٣﴾ أن نبيَّ الإسلام ﷺ لم يكن يعلم هذه القصص قبل نزول الوحي عليه، وهذا دليلٌ واضحٌ في الردِّ على الخرافيين الذين يقولون: إن النبيّ والإمام يعلمون كل شيء! كما أنها دليلٌ واضحٌ في الردّ على المُعترضين المسيحيين وغيرهم من المُعارضين للإسلام الذين يقولون: إن نبيَّ الإسلام ﷺ تعلَّم مضامين القرآن من أهل الكتاب ومن معاصريه من العلماء، أو أنه نظَّم أفكاره وأظهرها على صورة القرآن. فطبق هذه الآية لم يكن رسول الله ﷺ مُطّلعًا أصلاً على هذه القصص ولم يكن لديه أي صلة بأهل الكتاب، وما جاء في القرآن هو وحي الله، وكان رسول الله ﷺ ملتزمًا بهذا الوحي من جميع الجهات. أضف إلى ذلك أن ما ذُكر في التوراة يختلف كثيرًا عما جاء في القرآن، فقصص التوراة مخلوطة بالأوهام، ولو كان نبيّ الإسلام ﷺ قد استقى القصص منها لوجب أن تكون قصص القرآن متطابقة مع قصص التوراة والحال أن الأمر ليس كذلك فليس في قصص القرآن أي خرافات أو أوهام.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

الفوائد: في السواحل الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط أرضٌ ذات طقس جميل تُدعى فلسطين مهيأةٌ جدًّا للزراعة وتربية الحيوانات والدواجن. في هذه الأرض هضاب قليلة الارتفاع وأودية قليلة العمق، ويستفيد أهلها جدًا من الرياح اللطيفة للبحر المتوسط. كان الكنعانيون هم سكان تلك الأرض ولذلك سُمِّيَت بأرض كنعان.

لما قام حضرة إبراهيم عليه السلام في بلد الكلدانيين بدعوة التوحيد وأبطل الآلهة الكاذبة حكمت عليه محكمة بابل بالإعدام وألقوه في النار، فلما أنقذه الله منها حكموا عليه بالنفي. وعلى إثر محاكمة أخرى استرجع أمواله التي صادرتها حكومة بابل وهاجر مع زوجته سارة وخدمه وحشمه من أرض بين النهرين إلى حرَّان الشام وبعد مدة من الزمن أدرك خلالها أهالي تلك المنطقة عظمة شأنه، هاجر إلى فلسطين وعهد ملك تلك المنطقة إليه بأرض فلسطين. وفي تلك الأرض المليئة بالنعم والبركات كثر خدمه وحشمه. قيل: إنه كان يملك أربعة آلاف كلب قطيع، ويملك رعاةً وخدمًا ومواشي بهذا المقدار. ولم يهبه الله تعالى الولد حتى بلغ السادسة والثمانين من عُمُره عندئذٍ وهبه الله إسماعيل عليه السلام من هاجر -وهي جارية وَهَبَتْهَا سارة له - ، ومن إسماعيل نشأ شعبٌ عربيٌّ كبيرٌ هم أجداد نبيّ الإسلام صلى الله عليه وسلم.

لقد كان لِـخَبَرِ حَمْلِ تلك الجارية وقْعٌ شديدٌ على سارة لأنها أدركت أن علة عدم الإنجاب كانت فيها لا في زوجها. ورأت من الناحية الأخرى أن ابن إبراهيم من هذه الجارية سيرث أسرة إبراهيم، وستؤول إليه ملكية أموال إبراهيم وخدمه وحشمه وتنتقل كل تلك الحياة الجليلة إلى ابن ضرتها. دفعتها هذه التصورات إلى إظهار النكد والملاحاة مع إبراهيم عليه السلام حتى اضطر إبراهيم إلى أخذ هاجر وابنها إلى صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا علف هي أرض مكة. واحتمل بعضهم أن تكون هاجر من قبيلة بني جُرهم العربية التي تقطن حول مكة فأعاد إبراهيمُ هاجرَ عليها السلام إلى أرض مكة أي إلى موطنها الأصلي وعهد بها إلى قبيلتها كي يعتنوا بها. ولكن لم يرتح بال سارة عليها السلام بهذا الحل إلى أن وهبها الله في سن الثمانين، إسحاق وكان إبراهيم قد

بلغ حينئذٍ الـمئة عام وعندها قرَّت عينها واطْمَأَنَّتْ.

ومع وجود إسحاق بن إبراهيم من زوجته، حُرِم إسماعيل تمامًا من أملاك أبيه وأمواله وبقي في الحجاز، وأصبح «إسحاق» الخليفة الشرعي لإبراهيم.

لما بلغ إسحاق الأربعين من عمره أراد أبوه إبراهيم أن يزوِّجه فأرسل خادمه إلى وطنه الأصلي (حرَّان) ليخطب له ابنة أخيه «رفقة» فزوّجه إياها فولدت لإسحاق توأمين: يعقوب وعيسو.

أصبح يعقوب خليفة أبيه في النبوّة والـمشيخة، وأصبح عيسو بطلاً ورحَّالةً في الصحراء ورجلاً سياسيًّا.

ولما كان الله قد وعد سارة أن يمنحها ابنًا مباركًا يكونُ أبًا لشعب كبير، فإن هذا الوعد تحقق في يعقوب عليه السلام. تزوج يعقوب عدَّة نساء وأنجب من كل امرأة ولدين وسرعان ما تحولت أسرته إلى أسرة كبيرة.

كان من بين أولاد يعقوب ابنٌ جميلٌ وحلوٌ وذو روح عالية ومستعدَّة للنبوّة، اسمه يوسف عليه السلام، وكان أصغر من جميع إخوته لأبيه. كان إخوته الكبار منصرفين إلى أعمالهم ورعاية قطعان الـماشية والصيد والبيع والشراء. وكان يعقوب عليه السلام قد أصبح مُسِنًّا جالسًا في بيته وأخذ أبناؤه الراشدون زمام أمور الأسرة بأيديهم وكانت لذة يعقوب الكبرى أُنسه بهذا الطفل الجميل الـمُحبَّب إلى القلب. إضافةً إلى ذلك كان يعقوب يشعر بتجليات روح النُبوة العظيمة في يوسف فكانت محبته له تزداد قوةً يومًا بعد يوم.

كان يوسف عليه السلام يتكامل يومًا بعد يوم ويفتِنُ قلبَ أبيه ويجذبه نحوه، ورغم أنه لم يكن قد تجاوز العاشرة بعد، إلا أنه كانت تبدو عليه علامات الأدب والجمال والروحانية لشابٍّ ذي استعدادٍ وملكات. وكان ليوسف أخٌ من أمِّه راحيل يُدعى «بنيامين» وعشرة إخوة آخرين من أبيه ومن ضرائر أمه.

كان يوسف عليه السلام لا يزال طفلاً يافعًا وكان ملتصقًا بحضن أبيه يعقوب عليه السلام على الدوام. وكان مستعدًا للاستفادة من مقام أبيه بما أُوتيه من فطرة نبوية وتربية نقية وعصمة وذكاء بالغ.

لقد انعكست أفكار الأب السامية ومحبته البالغة لهذا الطفل في وجوده الصافي وبدأت تترسخ في ذهنه الأفكار السامية والعالية وتُهَيِّئُهُ لمرتبة النبوَّة الرفيعة وإمامة شعبه. كان شعاع نور نبوَّة الأب يُثير على الدوام شعوره الباطني ويُطوِّره ويرتقي به، ولذلك رأى في إحدى الليالي رؤيا:

الرؤيا الـملكوتية:

بدأ القرآنُ قصةَ يوسف بذِكر هذا الإشراق الـمعنوي والرؤيا الـملكوتية ليوسف.

قيل كلامٌ كثيرٌ عن حقيقة الرؤيا التي حيَّرت العلماء جميعهم: الرؤيا عبارة عن إلقاءات الـملائكة أو إلقاءات الشياطين. الرؤى الصادقة التي تتطابق مع الواقع ويكون لها تعبير صحيح هي من إلقاءات الـملائكة التي تصل إلى مسامع الإنسان أثناء نومه، وما لم تشُبْها الأوهام والخيالات تكون أحلامًا واقعية، أما إذا اختلطت بالأوهام فإنها تتَّخذ صورةً مختلفة.

والـمنامات الـمضطربة هي من إلقاء الشيطان ولا واقعية لها. وقال بعضهم: إن الأحلام ليست سوى خيالات الإنسان وأفكاره الذاتية التي تعمل عليها القوة التخيُّلِيَّة لذهن الإنسان وتجعله يتنبَّأ ببعض الأمور التي يصدق بعضها أحيانًا ولا يصدق أحيانًا.

كل من اشتغل بعملٍ انصرف فكره إلى هذا العمل ورأى رؤيا تتناسب معه: فالعالِمِ يرى في منامه الكتب والـمكتبة، والحلاج يرى دكان حلج القطن، وزيد يرى أباه في الرؤيا وعمرو يرى أباه وهكذا. ولكن لما كان الأنبياء والأولياء، لاسيما طفل معصوم مثل يوسف عليه السلام، يتمتَّعون بروح نقية صافية، وكانت قوتهم العقلية مسيطرة على قوة التوهُّم لديهم، فإن أحلامهم صافية غير مضطربة بل هي إدراكٌ للواقع عينه، كما جاء في الخبر: «**الرؤيا [الصالحة] جُزْءٌ من النُّبُوَّة**»[١].

لقد رأت روح يوسف النورانية الشفَّافة في ذلك العالـم النقي والعالـم الـملكوتي الواسع: أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يتواضعون أمامه احترامًا وإجلالاً. لقد أسعدته هذه الرؤيا

١- لم أجده بهذا اللفظ ورُوي بلفظ: «الرُّؤيا الصَّالِحَةُ جُزءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ». رواه مسلم في صحيحه. وفي روايات أخرى بلفظ: «جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ، وفي رواية: جُزءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ». وعند الطبراني في الأوسط بلفظ: «الرُّؤْيا الصَّالِحَةَ حَظٌّ مِنَ النُّبُوَّةِ».

الـمفرحة وحيرته تلك اللوحة السماوية.

تعجب الطفل ذو القلب النيِّر والذوق الجميل الذي تربَّى في بيت النبوَّة ولم يكن في قلبه حقد ولا غلٌّ لأحد، وتساءل ما عسى أن يكون تعبير هذه الرؤيا؟ ما معنى خضوع الكواكب لي؟ هل هذا يبشرني بمستقبل مشرق ونجاح كبير في الحياة؟

في النهاية بيّن لأبيه رؤياه تلك، ذلك الأب الذي كان يُريد له كل الخير والذي ورث الطهارة والنقاء عن آبائه. بشَّره الأب الذي كان على صلة بعالـم الوحي وكان من رجال السماء وأدرك أن هذه الرؤيا تكشف عن مستقبل عظيم وأنها رؤيا إلهية وملكوتية عرضت لطفل معصوم، تُبشِّر بمستقبل مشرق. وأوصى ابنه اليافع الجميل ذا اللسان الحلو بما يلي:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف: ٥].

الفوائد: رغم أن الأسرة الواحدة تنشأ من شجرة وجذور واحدة إلا أن التنافر والتزاحم والخصومات بين أبنائها تكون عادةً أكثر مما يقع بين الأجانب، ولهذا عدة أسباب:

١- أبناء الأسرة الواحدة يتزاحمون على الـمنافع لأنهم يجلسون على سفرة واحدة كلهم يطمع فيها.

٢- كثرة الـمعاشرة بينهم تجعلهم يملّون بعضهم بعضًا ويستاؤون من بعضهم الآخر.

ويبدو أن هذا التنافر والتزاحم موجودٌ أيضًا بين أغصان الشجرة الواحدة أو النبتة الواحدة. فأغصان الشجرة وفروع النبتة ينتمون لجذع واحد فكلّما امتدّ الجذع ابتعدت الفروع عن بعضها أكثر.

يقع بين الإخوة والأخوات الذين يولدون لأبوين ثريَّيْن عظيمين التزاحمُ على الـمنافع أكثر، أما أولاد الرجل الفقير الـمغمور فليسوا كذلك. فأبناء الثري أو الحاكم غالبًا ما يتنازعون مع بعضهم البعض، وأحيانًا تقع بينهم حروبٌ دمويَّةٌ في صراعهم على رئاسة الأب وثروته. وكان حضرة يعقوب عليه السلام نبيًا كبيرًا صاحب رئاسة روحية وشيخ عشيرة ووارث حضرة إبراهيم عليه السلام، وكان لديه أموالٌ كثيرةٌ وخدمٌ كُثُرٌ، وكان أبناؤه كلُّهم يأملون بخلافته وكانوا يعتبرون سعادتهم

ووضعهم الحياتيّ مرهونًا باهتمام الأب بكلٍّ منهم. فلما رأوا أن أباهم منح قلبه لابنه الصغير الجميل يوسف، فهو يأنس به ليل نهار، خشوا أن تنتقل إليه الرئاسة الروحية والإرث الإبراهيميّ وخافوا أن يُصبح خليفة أبيهم في رئاسة القبيلة. كل أسبوع كانت تزداد آثار نبوغ يوسف وعظمته وجماله ويزداد معها احتمال الخطر بالنسبة إلى إخوته. أضف إلى ذلك أن يوسف ﷺ لم يكن ابن أمهم بل كان ابن ضرتها، والغيرة والحسد بين الضرائر معروف وهو ينتقل عنهنّ إلى أبنائهنّ.

لم يكن هؤلاء الإخوة قادرين على تحمُّل ألفةِ أبيهم مع أخيهم الذي ليس من أمهم، إضافةً إلى أن متاعب العمل في الصحراء ورعاية قطعان الماشية والخدم والبيع والشراء كانت كلّها على عاتقهم. أما أخوهم الذي ليس من أمهم فكان يعيش في حفظ أبيه في الدلال والنعمة. لا شك أنهم بدؤوا يحسدونه ويطعنون به. كان يعقوب ﷺ رجلاً عالـمًا ونبيًّا مُجَرِّبًا، وقد أحسّ بسوء نيّتهم تجاه يوسف. ورغم أنه كان على الأب الجليل أن يبسط محبته على جميع أبنائه بشكلٍ متساوٍ، وكان يفعل ذلك بالتأكيد، إلا أنه كان يميل بالطبع إلى الطفل بشكل أكبر.

وعلى كل حال، كان لمنح البركة ولقانون الوصيّة ولتعيين الخليفة الروحي أهمية كبرى وكان كلُّ واحدٍ من إخوة يوسف يطمع أن يكون ذلك من نصيبه. فماذا سيكون حالهم لو أعطى يعقوب بركته ووصيته إلى يوسف وحرم أولئك الرجال الراشدين الكادحين؟ كان على الأب أن يقوم بعمل ما كي لا يُثير مشاعر إخوة يوسف، وكان أكثر شيء يُثير إخوة يوسف تلك الرؤيا التي رآها لو انتشرت وعرفوا بها، فمن شأن ذلك أن يحرِّك عداوتهم ليوسف، ولذلك قال يعقوب ﷺ ليوسف على الفور: ابني العزيز! احذر أن تُخبر إخوتك عن رؤياك هذه فيكيدوا لك كيدًا ويبتلوك بمصيبة، خاصةً أن الشيطان يُوسوس وينفخ في نار الفتنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: ٦].

الفوائد: يجب على من يقوم بتربية الطفل وتنشئته أن يُوجهه نحو الأفكار السامية ويُقوّي

الأفكار العالية التي تظهر في ذهنه، فتقوية الأفكار والـمقاصد السامية أفضل وسيلة للرقي الروحي.

[بيت بالفارسية]:

(لتكن همتك عالية، فإن رجال الزمان وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل همتهم العالية).

إن الذي يتمتع بفكر سام وهدف أعلى يصل إلى الـمقامات العالية. وسبب التخلُّف وعدم التوفيق الذي يُعاني منه معظم الناس قِصَرُ نظرهم وضِيقُ فكرهم.

لما سمع حضرة يعقوب عليه السلام برؤيا ابنه، أدرك أن ابنه يتمتَّع بفكر سام وبروحانية عظيمة وأن عليه أن يُقوِّي فيه هذه الروحانية وأن يزرع في نفسه الأمل. فذَّكره بعدة نقاط هي التالية:

١- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ وجَّهَ يعقوبُ عليه السلام فكرَ الطفل البريء نحو ربِّه لأن أساس التقدم والرُّقيّ في كل خطوة في الحياة هو التوكل والاعتماد على عناية الله. إذا أدرك الطفل أن لا خير إلا من عند الله، فُتحت أمامه أكبر أبواب السعادة، وحُفظ من الانحراف في جميع تحركاته، وسَهُلَتْ عليه جميع الـمصاعب، ودخل إلى قلبه نبعٌ طافحٌ بالروحانيات والأخلاق والأعمال الصالحة التي تجعل سلوكه يتحسَّنُ يومًا بعد يوم. لذلك أَمَّلَ يعقوبُ عليه السلام ابنَه بفضل ربِّه وقال له: إن الله اختارك واجتباك أي منحك مقام النبوَّة.

٢- ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ نبهه إلى أهمية العلم والـمعرفة. أي أنني أفهم من هذه الرؤيا أن مشكلات وأزمات سياسية وغير سياسية سوف تُـحَلُّ على يديك وبفضل تفكيرك. ستكتشف بعلمك علاج القحط وتكتشف بعلمك الحل الـمناسب لشعب جائع، وستعرف كيف تُعيد ماء الوجه لأسرتك، وقضايا عجيبة أخرى. يتبيَّنُ من هذا أنه بعد التوحيد ومعرفة الله اللذَيْنِ يجب تربيتهما وتقويتهما في فكر الطفل، يجب تربية الطفل على العلم والـمعرفة.

فَسَّرَ بعضُهُم ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ بتعبير الـمنامات وتفسيرها، وحصروا معنى الجملة في هذا الأمر. وهذ خطأ، لأن الأحاديث جمع أُحدوثة بمعنى الأمر العجيب والصعب والـمُلغز،

والتأويل معناه أيضًا كشف الوقائع وهو من مادة أَوْل أي العودة من ظاهر الكلام إلى الحقيقة وكيفيتها. وإذا كانت الأحاديث جمع حديث أصبح المعنى كالتالي: إن الله يُعلمك مآل الأخبار وحقيقتها الواقعية.

٣- ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يُنبِّه يعقوبُ ابنَه العزيزَ يوسفَ إلى أن الله لن يمنع عنك أي شيء بل سيمنحك النعمة الكاملة ويفيض عليك الكمال والجمال والمُلك والمال والمقام. ورغم أن النعمة الكاملة هي الدين الحقّ والعلم والمعرفة إلا أن المقصود هنا بهذه الآية هو النبوَّة.

٤- ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ هذه الجملة ذات أهمية بالغة. ففيها تنبيه للطفل إلى عظمة آبائه وأجداده، وهذا ضروريٌّ عندما يكون آباء الطفل من الصالحين والأتقياء والمُصلحين والمجاهدين. هنا يُنَبِّه حضرة يعقوب عليه السلام ابنَهُ العزيز يوسف إلى أن آباءه كانوا أصحاب مقامٍ روحانيٍّ رفيع القدر، وكانوا يملكون عظمة النبوَّة وعليك أنت أيضًا أن تسعى لتكون مصباح هذه الأسرة وسببًا لرفعة شأن آبائك الكرام. من الأمور المهمة في برنامج تربية الشباب تنبيههم إلى عظمة أجدادهم إن كانوا صالحين، لأن هذا سيخلق، لا شعوريًا، نشاطًا وهمَّةً في نفس الطفل ويحثه على إحراز مقام أسرته.

في هذه الآية رغم أن الأب الجليل لم يُفسِّر لابنه العزيز يوسف رؤياه إلا أنه أفهمه أن لرؤياه آثارًا كثيرةً.

ورُوي أن حضرة يوسف عليه السلام رأى في سن السابعة رؤيا أنه أُعطي عصا من زبرجد وأنه غرس تلك العصا في الأرض وأن كل واحد من إخوته غرس عصاه في التراب حول عصا يوسف. ولكن عصا يوسف أخرجت شجرة عظيمة ذات أغصان وأوراق كثيرة، أما عِصِيّ إخوته فبقيت على حالها كما هي في ظل عصا يوسف. وصل خبر هذه الرؤيا إلى مسامع إخوته ومنذ ذلك الوقت بدؤوا يحسدونه ويقولون في أنفسهم: إن هذا الطفل بدأ من الآن يُفكر بالرئاسة علينا. وبدؤوا يُؤذونه. ولكن حضرة يعقوب عليه السلام الذي كان يُحِبُّ ذلك الطفل

الجميل حُبًّا جمًّا كان يسعى في حفظه ويجعله إلى جانبه على الدوام ويُبعده عن إخوته ويُمضي أوقاته معه، إذْ كان يرى على وجهه ملامح النُّبُوَّة.

ولمّا بلغ يوسفُ التاسعة من عمره، وقيل: الثانية عشرة، رأى رؤيا سجود الكواكب والشمس والقمر، فأوصاه أبوه وصيةً مؤكَّدةً أن لا يُخبر إخوته عن رؤياه تلك كي لا يحسدوه ويُؤذوه. وبالطبع سعى يعقوب عليه السلام في إخفاء تلك الرؤيا. ولكن خلافًا للمتوقع انتشر هذا السر ووصل إلى مسامع الإخوة. هل يعقوب عليه السلام نفسه الذي كان يأمل بمستقبل باهر لهذا الطفل البريء، وأراد، لفرط السعادة التي كانت تموج في قلبه، أن يُخفِّف عن نفسه ويُريح خاطره فأخبر زوجته التي كانت بئر أسراره عن تلك الرؤيا وأوصاها بكتمانها؟ ثم قامت زوجته بإفشاء السر؟ ولا عجب في ذلك! لأنه إذا لم يستطع يعقوب نفسه الحفاظ على ذلك السر حتى أفشاه لزوجته، فلا عجب أن تقوم زوجته بنشر السر أيضًا!

وعلى كل حال، لما علم إخوة يوسف برؤياه الثانية هذه اشتعلت نار الحسد في صدورهم من جديد، ولم يعودوا قادرين على كبح الرغبة في إيذائه خاصةً مع ذلك الحسد وسوء النيّة تجاهه التي كانت تعتمل في صدورهم من قبل، وفسّروا المنام وقالوا: الكواكبُ الأحدَ عَشَرَ هم نحن، ومن الممكن أن يسود علينا يوسف في المستقبل ويُصبح رئيسًا علينا ويصل الأمر إلى أن يتواضع له أبوه وأمه أيضًا. لم يكونوا قادرين على تحمل هذا الأمر لذلك صمَّموا على علاج الأمر قبل وقوعه وتخليص أنفسهم من تبعاته.

﴿۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧].

الفوائد: أصبح إخوةُ يوسفَ جميعُهُم كبارًا ومستقلّين في حياتهم كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، ولكنهم نسوا كم كان أبوهم لطيفًا ورحيمًا بهم أثناء طفولتهم، وكم تمتَّعوا بعطفه وحنانه. وهم الآن لا ينتبهون إلى أيِّ حدٍّ يُراعي فيه أبوهم الجليل العدل بين أبنائه، وما كانوا يرون إلا يوسف الصغير الذي يتمتَّع بألطاف أبيه واهتمامه البالغ به.

كان يوسف عليه السلام طفلاً ظهرت فيه منذ الطفولة آثار النبوغ والعظمة من كل جهة: جمال

الوجه، حُسن السيرة، القامة الرشيقة، وكان جمال وجهه يُثير عجب كل شيخ وشاب. لقد أبرز اللهُ قدرتَهُ فيما خلقه في يوسف من حُسن وجمال لا يُمكن تصوُّر أجمل منه. وأساسًا إن الحُسن والجمال من الموضوعات التي لا يملك أحد القدرة على قياسها، بل يُمكن فهمها فحسب، ولكن لا يُمكن وصفها، فالجمال: **يُدرَكُ ولا يُوصَفُ.**

رُوي أن رسول الله ﷺ رأى يوسف في ليلة المعراج في جَمْعٍ من الأنبياء ليلة الرابع عشر من الشهر القمري وكتبوا في وصفه أنه كان طويل القامة، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، وكان لطف وجمال جسده على درجة تُثير العَجَب. كما جاء في الخبر أن الله أعطى شطر الحُسن ليوسف وقسّم الشطر الآخر بين أفراد البشر. فكان جمال يوسف لا نظير له وكان مضرب المثل في الحُسن، وسبب حُسنه –حسب الظاهر – عدة وجوه:

١ – من ناحية الوراثة، لأن جدَّه إسحاق كان يتمتع بجمال فائق خارق للعادة. وجدته سارة أم إسحاق كان لها مكانة تاريخية ذكرت التوراة في وصف جمالها حكايات، إلى درجة أن إبراهيم عليه السلام كان يسعى – حتى الإمكان– في إخفائها عن أنظار الناس عندما كان يأخذها معه في هجرته وأسفاره، كي لا يقع نظر أحد عليها فيطمع بها.

٢– من جهة التوالد لأنه ثبت بالتجربة أن أولاد الأب المسِنّ يكونون أكثر جمالاً. خاصةً إذا كانت أمُّهُم أيضًا جميلةً وحسناء. وبالطبع كانت أم يوسف راحيل كذلك.

٣– الطقس المعتدل واللطيف لفلسطين الواقعة على ساحل البحر يُساعد على الحُسن والجمال بنسائمه المُحيية للروح وهِضابه المُعطَّرة بالورود والرياحين في أرض مشهورة بأنها تفيض لبنًا وعسلاً.

٤– يد القدرة الإلهية ليست بخيلة، فاللهُ يهب الحُسْن والجمال لكل شخص. كل ما في الأمر أن آثار ذلك تظهر عندما تكون وسائل الحياة والتربية وحفظ الصحة متوفرة. يُمكن للأبوين أن يُحافظوا على الحُسن الذي وهبه الله لابنهما بقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ويُمكن لأبوين آخرين أن لا يُحافظا على ذلك الحُسن لفقرهما وجهلهما. لقد ولد يوسف عليه السلام في

حضن أب نبيٍّ عليم بأمور التربية ومحاسن الطبيعة. وكانت في يديه ثروة إبراهيم وإسحاق عليهما السلام الكبيرة. فكان يملك من الناحية المادية والمعنوية وسائل تنشئة ابنه الجميل من ناحية الطعام واللباس والنظافة.

كل هذه العِلل تضافرت مع بعضها لتُوجد أجمل الأفراد بين البشر، شخصٌ كان موضع حيرة الناس وإحدى آيات قدرة الله. لكن للأسف كانت هذه النعمة سببًا في توالي المصائب على يوسف وفي حسد إخوته له لذلك: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾. ولا يوجد في الدنيا سعادةٌ دون غُصَّةٍ ولا نعمةٌ ليست مقرونةً بنقمةٍ.

وقع إخوة يوسف في عذاب الحسد لأخيهم لِـمَا رأوه فيه من نعم الجمال والكمال وآثار النبوغ والعظمة والقريحة واهتمام الأب به. وصار هذا الحسد سببًا لغمّهم وحزنهم. ولم يكن لهذا الداء دواء، فالحسد مرض عجيب يُهلك الحاسد ويَضُرُّ به [قبل أي أحد آخر] وأحيانًا يدفع الحاسد إلى القضاء على المحسود. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحَسَدُ يَأكُلُ الإيمانَ كما تَأكُلُ النارُ الحَطَبَ**»[1].

ازداد حسد إخوة يوسف له يومًا بعد يوم، وتصاعدت شعلة نار الحسد في صدورهم. كان الحسد في البداية نارًا تحت الرماد، مختفيًا في صدر كلِّ واحدٍ منهم يخجل من البوح به أمام بقية الإخوة، وكان يكبر عليهم أن يُنافسوا طفلاً صغيرًا مع كل ما أوتوه من قوة. ولكن لما انتشر خبر الرؤيا، وأشعَّت تجليات جمال يوسف عندما استكمل قواه الجسمية، اضطرمت نار الحسد في صدور الإخوة أكثر فأكثر وخرجت من الصدور إلى الألسن فاجتمعوا إلى بعضهم وأباح بعضهم لبعض بالألم الذي يعتمل في صدورهم وأعربوا عن استيائهم من جمال يوسف وكماله وشدّة محبّة الأب له، وكانت النتيجة أن اتّحدوا ضدّ هذا الطفل الصغير وذاك الأب المُسِنّ.

١- أخرجه أبو داود في **السنن** بلفظ: «إِيَّاكُمْ والحَسَدَ فإنّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَناتِ كما تَأكُلُ النارُ الحَطَبَ». انظر سنن أبي داود، ٤/ ٢٧٦، رقم (٤٩٠٣). وأخرج نحوه ابن ماجه في **السنن** أيضًا. وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد، ص ٤١٨، رقم (١٤٣٠)، والبيهقي في **شعب الإيمان**، ٥/ ٢٦٦، رقم (٦٦٠٨)، وغيرهم. وضعَّفه الشيخ الألباني في تعليقه على سنن أبي داود. وذكره البخاري في **التاريخ الكبير** (١/ ٢٧٢) وقال: لا يصحّ.

في الواقع لقد هيأت أسرة يعقوب الكُبرى أسباب معركة دموية: في أحد طرفيها الإخوة الأقوياء والـمقتدرون وفي الطرف الآخر الأب الـمُسِن والطفل الجميل، وتضافرت الأمور بعضُها إلى بعض حتى تمكَّن الإخوة من استغفال الأخ الصغير والأب الشيخ، وتوجيه ضربة قاضية إليهما. لقد فكروا بإهلاك يوسف الصغير وإيلام الأب بفقده. لم يكن للطفل ذنب سوى جماله الإلهي وأهليته الكبيرة. وكانت تلك من الآيات العجيبة لأسرة يعقوب. وتطاير شرر الحسد إلى درجة أوصلت أصحابه إلى العزم على إهلاك يوسف البريء وإعدامه.

ومن الفوائد الأخرى في الآية أن قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يدلُّ على أن في قصة يوسف عليه السلام وظلم إخوته له آيات وعِبَرٌ للسائلين أي الباحثين عن الحقيقة، وحتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت له في قصة يوسف تسلية وعِبرة.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبيلة قريش التي تقطن مكة، وكان في مكة حرم الله الذي يُـجِلُّه العرب جميعُهم، وفي كل سنة تتوقّف القبائل العربية والبدو الرُّحَّل عن الحروب وسفك الدماء وتأتي إلى حرم الله الآمن في مكة لتُسقط عن كاهلها ثِقَل الذنوب، وكانوا ينظرون إلى هذا البيت وأهله نظرة تقديس وإجلال. كان العرب يتوقعون من أهل مكة العدل والإنصاف والأخلاق، فبعث الله لهم نبيًّا صادقًا أمينًا مريدًا لخيرهم، فلما قام بإرشادهم، ونهاهم عن عبادة الأصنام وعن الفواحش والـمُنكرات، اتّحدوا ضدّه وشمّروا عن ساعد الجدِّ والعزم على مُحاربته والإغارة عليه وعلى أصحابه وقتلهم. كان كثير منهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صادق ومُريد للخير وأن فيما يقترحه عليهم خير البشرية ونفعها، لكن حُبَّ الجاه وطلب الرئاسة والأنانية والحسد حالَ دون اِتِّباعِهِ لأنهم كانوا يعتبرون اِتِّباعَه نوعًا من التبعية والذل، وكان كل واحد منهم يُريد أن يُصبح رئيسًا وصاحب كتاب؛ حسدًا. ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾ [الـمدثر: ٥٢]، وكانت نار الحسد قوية إلى درجة تجرُّ صاحبها إلى استعداده للموت: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]. أي أنهم مستعدُّون لتحمل العذاب الأبدي وغير مستعدين لاتِّباع

شخص فقير يتيم.

كان رسول الله ﷺ يأسف لحالهم ويحترق قلبه عليهم من الأسى حتى يكاد يُهلك نفسه، حتى قال له ربُّه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] وَقال: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

أراد الله تعالى أن لا يَهْلِكَ رسولُهُ ﷺ، وأن يبقى مصباح الهداية مضيئًا في أرض الجزيرة العربية، فكان يُسلِّيه ويُواسيه بهذه القصص ويُخفّف من حسرته. وأنزل عليه قصة يوسف ويعقوب المليئة بالعِبر ليُفهمه أن أمر ظُلم ذوي القُربى وغدرهم بقريبهم في مقابل نصحه الرحيم لهم ليس أمرًا جديدًا. وليقول له: كما انتصر يوسف في عاقبة الأمر كذلك أنت أيها الرسول ستنتصر في نهاية المطاف.

وكذلك حال كاتب هذه السطور عندما رأيتُ بعض المسلمين وأقربائي غارقين في الخرافات والشرك والأوهام الدينية رأيت أن من واجبي أن أقوم بإيقاظهم وتوعيتهم وإنقاذهم مما هم فيه، وبدأتُ ببيان الحقائق باللسان والقلم، ولم أُقصّر في الحقيقة في أداء واجبي الإسلاميّ والسعي في الخير. لكن في مقابل ذلك كان أول من نهض للقضاء عليَّ وسبِّي وشتمي وتكفيري وأظهر حسده عددٌ من علماء السوء وعددٌ من أقربائي من زملائي في العمل (علماء الدين). هذا رغم أنهم كانوا يُدركون الحقيقة ويعرفون أنِّي مُريد للخير وللإصلاح ولست من أهل المكر ولا أبحث عن التكسُّب باسم الدين، وأن ما كتبتُهُ عين الحقيقة وليس بيني وبين أحد اتفاقات سرية أو مكر واحتيال. ورغم ذلك كالوا لي ما أمكنهم من التُّهَم والافتراءات، بل بلغ بهم الحسد أن أصبحوا مستعدِّين لقتلي وأفتوا بذلك، وأرسلوا لقتلي في وسط مسجدي حفنة من القَتلة الأشقياء. ورغم أن هذه الأعمال والحوادث زادت من توكلي على الله وعرَّفتني على نحو أفضل على زملائي في العمل، وتبيّن لي أن زملائي من المشايخ غارقون في التعصب والحسد وأن دينهم غير منطقيّ ومذهبهم يفتقر إلى السند والدليل، وأنهم اخترعوا حوانيت مذهبيّة ليسترزقوا بها ويكونوا كلاً وعالةً على الآخرين.

فائدة أخرى: قال بعضهم: لقد اعتبر الله تعالى هذه القصة: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ لما فيها من تسلية ومواساة وعِبَر وكيف أن أولاد يعقوب أقدموا على إشقاء أبيهم الجليل وإهانته وعلى إهلاك أخيهم الجميل البريء، وكيف أن الحسد أسكرهم وأوقعهم في الغفلة. وقد أفهمَ اللهُ رسولَه ﷺ من خلال هذه القصة أن عليه الاقتداء بيعقوب عليه السلام في صبره الجميل، وبيوسف عليه السلام في تحمله ما لا يُحصى من المصائب والمصاعب حتى أتمّا رسالتيهما. ويُمكن أن نعتبر كلمة «**السائلين**» - جمع السائل - بمعنى طالب المال لأنه جاء في التفسير أن سبب ابتلاء يعقوب بفراق عزيزه غفلته في ليلةٍ من الليالي عن إعطاء الصدقة لمُستحقها.

أحد الأمور المؤثِّرة جدًا في حياة الإنسان وراحته: إعطاؤه الصدقات ابتغاء مرضاة الله. والصدقة عبارة عن بذل المال والجاه والعلم لوجه الله وطلبًا لمرضاته، وهي إحدى التشريعات المالية الإسلامية. يجب أن تصل الصدقات المالية إلى مُستحقيها، أما العلم والمعرفة فيجب أن يصلا إلى الباحثين والطلاب، ويُمكن أن نقول بشكل عام: إن كل عملِ خيرٍ صدقة، كما قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**»[1].

قال الشاعر (بيت من الشعر بالفارسية):

(أعطِ المحتاجين حاجاتهم في الدنيا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً *** سواءً من نفسك أو من مالك أو من مسيرك أو قلمك).

إن على الذين يملكون القدرة العلمية أو المالية أن يُعطوا منها للمحتاجين والفقراء دون تباخل، كي يُصبح مستوى الحياة لدى الجميع واحدًا. وللصدقة تأثيرات معنوية كثيرة. فالإنسان عرضةٌ في كل لحظة لآلاف المخاطر المهلكة في نفسه وماله وأولاده، ولا يُمكن لأحد بما في ذلك رسل الله، الإحاطة بجميع الأضرار والخسائر وبالأعداء الذين يكمنون لهم.

والوسيلة الوحيدة لدفع البلايا والمصائب الفُجائية التي لا علم للإنسان بها هي الله

١- جزء من حديث مشهور متفق عليه رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما، وأبو دواد والترمذي والنسائي في سننهم وأحمد في مسنده وغيرهم.

المُحيط بكل شيء والعالم بأنواع البلايا والآفات التي تنتظر كل إنسان. فالله يُمكنه الدفاع عن الإنسان وحفظه.

كتب بعضهم: إن من العادات والسُّنن التي كان يُمارسها يعقوب عليه السلام أنه كان يذبح كل يومٍ شاةً ويبسط مائدةً للقادمين، وكان ذلك سنّةَ جدِّه إبراهيم عليه السلام الذي كان لديه نُزُلٌ عامٌّ مُخصَّصٌ للضيوف والقادمين والمحتاجين، فلم يكن يجلس إلى المائدة ولا يأكل الطعام إلا إذا ظهر ضيفٌ ليأكل معه. وأحيانًا يبقى جائعًا مدةً من الزمن لعدم مجيء الضيوف. وكانت أسرة إبراهيم تتَّبع هذه السُّنة. هذا ولا يزال بعض عشائر العرب من أحفاد إسماعيل عليه السلام اليوم يتَّبعون هذه السُّنة ويُعِدُّون في كل مكان ينزلون فيه خيمةً أو منزلاً خاصًا للضيوف.

وقدَّر الله أن مرَّ بمضافة يعقوب في إحدى اللَّيالي سائلٌ جائعٌ ومحتاجٌ، وطلب العون. ولكن لم يُجبه أحد بسبب مشاغل أهل البيت، وبقي محرومًا، فكان ذلك سببًا لما ابْتُلِيَتْ به الأسرة من بلايا لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] ويقول: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، فالسائل الذي يُريق ماء وجهه ويمدُّ إليك يد الحاجة إذا رَدَدْت يده خائبةً أو لم تكترث به تكون قد أرقت ماء وجهه وكسرت من نفسه وهذا أمرٌ قد يُعاقبك الله عليه بأن يبتليك بآفات ومصائب عديدة.

وذكر بعضهم سببًا آخر لابتلاء يعقوب عليه السلام وهو ما ذكره ابن الأثير في «الكامل في التاريخ»: «**وقيل: كان سبب ابتلائه أنه كان له بقرةٌ لها عُجُولٌ، فذبح عجولها بين يديها وهي تخور، فلم يرحمها يعقوب، فابتُلي بفقد أعزّ ولده عنده . وقيل: ذَبَحَ شاةً فقام ببابه مسكين فلم يطعمه**».

وذكر آخرون أن سبب ابتلاء يعقوب أنه باع ابنَ أَمَتِه ففصله عن أمه فدعت عليه أمه، وسيأتي ذِكْر ذلك في أواخر القصة عند ذِكر الإتيان بقميص يوسف عليه السلام من مصر[1].

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

١- لا بد من التذكير بأن المؤلف ذكر كثيرًا من التفاصيل في تعليقاته على قصة يوسف عليه السلام وهي كلها مما لم يرد فيها نصٌّ في كتاب الله ولا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تلك التفاصيل من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من تلك الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات حتى ولو كان لبعضها إسنادٌ إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: ٨-٩].

الفوائد: بدأ إخوة يوسف يبحثون عن طريقةٍ للتخلُّص منه، وعقدوا اجتماعًا بينهم للتشاور في الأمر وإظهار المهم من الموضوع، وكان الإخوة هم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبولون، وآشر، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشير. أما بنيامين الذي كان أخ يوسف لأمه وأبيه فكان أصغر منه ولا شكَّ أنه لم يحضر ذلك الاجتماع. لقد أدَّى بهم فكرهم الساذج وتخيلاتهم الخاطئة وخشيتهم أن يُصبح يوسف رئيسًا عليهم جميعًا وتنتقل إليه النُّبُوَّة ويأخذ بركة الأب، إلى ارتكاب أخطاء أخرى وحوادث أليمة.

أحس يعقوب ؈ بسوء نيّة إخوة يوسف تجاهه لذا كان دائمًا يجعله إلى جانبه وأمام عينيه. كانت هناك منافسة طبيعية بين الإخوة لا سيما الإخوة الذين ينتمون إلى أمهات مختلفات خاصةً إذا كانت الأمهات قد أصبحن مُسنات أو تُوُفِّينَ وزالت الروابط بين الإخوة؛ لأن تعلُّقَ الأب أصبح منحصرًا بزوجته الشابَّة. ولهذا السبب كان حسد إخوة يوسف له وإضمارهم الشرَّ له يزداد يومًا بعد يوم إلى أن لم يعودوا قادرين على كتمان ذلك فاجتمعوا إلى بعضهم وأخذوا يبوحون بما يعتمل في صدورهم وقالوا: إن يوسفَ وأخاه اللذَيْن لا يقومان بأي عمل محبوبان من أبينا أكثر منا. وأبونا يُهيِّئُ لهما وسائل الراحة مما نجنيه بعمل أيدينا، فنحن الرجال الأقوياء الذين نعمل ونكدح، ويأتي أبونا فيصرف هذا المال على بسط ولديه الصغيرين وأمهما راحيل وتمتعهم، ولا يُقدّر تعبنا حقّ قدره ويعتبر قوَّتنا وقدرتنا كأنَّها ليست بشيء. لقد ضلَّ أبونا أي أصبح مفتونًا براحيل.

لم يكن إخوة يوسف ينتبهون إلى مقامات يوسف الروحية ونبوغه، أما يعقوب ؈ فكان يُشاهد في يوسف روح النُّبُوَّة والاستعداد الإلهي وربما كان مأمورًا مِنْ قِبَل الله أن يُحافظ على يوسف ؈ محافظةً تامَّةً ويُربِّيه كي لا تنقطع النُّبُوَّة من بيته. ولكن ظهور أي موهبة وعظمة روحية لا يكون في عين الحسود إلا سببًا للمزيد من الحقد والعداوة.

إن حسدَ العدو حقيقةٌ واقعةٌ، وهو أمرٌ مضاد للعدل والإنصاف. فالحسود ليس مستعدًا

للاعتراف بأهلية المحسود وحقوقه. كان إخوة يوسف الحاسدون له يطعنون حتى بأبيهم وينتقدونه ويعتبرونه في ضلالٍ مُبين. ولا بدّ أن مقصودهم ليس ضلاله في الدين وإلا لكفروا بذلك مع العلم أن أحدهم كان «لاوي» جدّ موسى بن عمران عليه السلام [ولا يمكن القول بكفره]، بل قصدوا من ضلاله الضلال العُرفي يعني أنه لا يعمل طبقًا للمنطق والعقل بل قد غلب عليه حُبُّ يوسف وأمه.

وعلى كل حال، اجتمع هؤلاء الإخوة كي يُريحوا بالهم ويتشاوروا فيما ينبغي عليهم فعله واقترحوا ثلاثة أمور:

الأول: قتل الطفل البريء.

الثاني: تغريبه إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه.

الثالث: أن يُلقوا به في جُبٍّ يقع على طريق القوافل فتلتقطه قافلة وتأسره ويُصبح عبدًا وأسيرًا طول حياته.

والنتيجة الجامعة لتلك الآراء كلها هي إيجاد فراق أبدي بين الأب وابنه الصغير. ولكن الرأي الأول القاضي بقتل يوسف كان أسوأ الآراء وكان أصحابه قساة القلوب شدادًا، وكان رأي الأكثرية. أما الرأي الثاني والثالث فكانا أسهل لكنه يسلب من يوسف عليه السلام حقّ الحياة الهانئة والحرَّة. هذه الآراء تمثل أسوأ العقوبات التي يرتكبها مجرمو العالـم، هذا في حين أن الابن البريء لم يكن له ذنب ولم يُسئ إليهم أي إساءة. كان الحسد فقط هو الذي دفع الإخوة إلى ارتكاب هذا الظلم والقسوة كما أن معظم الحروب وسفك الدماء والمعارك الضروس المُفعَمة بالقسوة هي نتيجة لهذا الحسد.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: ١٠].

الفوائد: في ذلك الاجتماع المليء بنار الحسد صادَقَ الأكثريةُ على الحكم على يوسف بالقتل، ولو نُفِّذ هذا الرأي لكان وصمة عار في جبين أسرة يعقوب. لكن واحدًا من الإخوة ولعله لاوي

ابن خالة يوسف، كان أكثر رحمة بيوسف من إخوته فقام ونقد ذلك الرأي وطرح نظريةً قَبِلَها الجميع تضمن ليوسف البقاء على الحياة ولكن دون حرية. قال: ألقوه في جُبٍّ يقع على طريق القوافل حتى يقع في أيدي إحداها وبما أنه طفل جميل فسيأخذونه على أنه عبد، وبعد ذلك سيكون جمال يوسف وكماله عونًا له حيثما حلَّ.

تَقرَّر العمل بهذا الرأي لكن بقيت مشكلة: كيف سيتمكنون من أخذ يوسف من حضن أبيه؟ يوسف الذي كان مؤنس أبيه العجوز في الليل والنهار ولم يكن أبوه قادرًا على مفارقته ساعة من الزمن! ومن الجهة الأخرى كان أبوهم سيء الظن بهم، فبأي وسيلة سيتمكنون من أخذه إلى مسافة ثلاثة فراسخ ووضعه في الجُبّ؟ لم يكن ذلك الطفل قد ذهب إلى البرية من قبل ولم يكن قد مارس الرعي، فليس لديهم حُجّةٌ لأخذه معهم إلى البادية. هنا أشار بعضهم برأي جديد بيّنته الآية التالية:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: ١١-١٢].

الفوائد: إحدى الأسلحة التي يستخدمها العدو تظاهره بالصداقة. اتخذ إخوة يوسف الحاسدون له سلاحَ التظاهر بإرادة الخير ليوسف ومحبته وسيلةً لإقناع أبيهم وقالوا له: يا أبانا العزيز! إنه فصل الربيع، والطبيعة جددت الحياة. المروج خضراء نضرة مليئة بالورود والزنابق والطيور والسوائم، وكلها تُغرِّد وتُصدر أصواتها الآسرة للقلوب، والقطعان مشغولة في وسط الوديان بالتنزه والرعي. كل شخص اليوم يخرج إلى البرِّيَّة ليتنسم الهواء العليل وينشط روحه. وأنت حبست يوسف في البيت. لا ينبغي للشيخ المُسِنّ الذي لم يعد يكترث بالمناظر الطبيعية بعد أن رآها مرات عديدة، أن يبقى مع ابنه الصغير ويحرمه من لذة النزهة.

كان الأب الجليل يُريد أن يُعلِّم طفله العزيز أسرار النُّبُوَّة والعلوم الربانية من الصباح إلى المساء، أما الشباب فلم يكن لديهم الصبر على البقاء في البيت فكانوا يذهبون بأقواسهم ونِبالهم للصيد ويعيشون مع رُعاتهم. كان الشباب ينظرون نظرة تعجب إلى هذا الشيخ المُسن وإلى

الطفل متسائلين: لماذا يحرمان أنفسهما من مناظر البرِّيَّة الجميلة. إذن جعل الإخوة هذا الأمر حُجّتهم وجاؤوا مجتمعين إلى أبيهم قائلين: لقد حفظت هذا الطفل في زاوية المنزل حتى ساءت صحَّتُه من الجلوس في البيت وتحوَّلَت حيويَّته إلى كسل. فالآن وقد أصبحت المروج مزيّنةً بالخضرة وبأنواع المناظر المُنعشة للروح أرسل معنا يوسف كي يتنزَّه معنا في البرِّيَّة ويلعب إلى جانب الينابيع الجارية وعلى سفوح الهضاب. يجب أن يُصبح هذا الطفل رجلاً اجتماعيًا مرتادًا للبادية في المستقبل: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾، ابعثه معنا بأسرع وقت ممكن.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ [يوسف: ١٣-١٤].

الفوائد: لم يرتح يعقوب عليه السلام لاقتراح أخذ يوسف عليه السلام ولم يكن مطمئنًا لأبنائه. لكن ما العمل؟ إنه كان مضطرًا لإخفاء سوء ظنه بهم وأن يُكلِّم أولئك الشباب المعجبين بأنفسهم والأقوياء على نحو لا يجرحهم ويحملهم على اللجاج والجهر بالعداوة. وقد قدَّم لهم عذرين:

أحدهما: أنكم تعلمون أنني رجل مقعد لا أنيس لي في هذا المنزل سوى هذا الطفل، فهذا الطفل سبب نشاطي ولو ذهبتم به سأغدو وحيدًا وأُصبح حزينًا مغمومًا.

الثاني: يوسف طفل يافع وَالبرِّيَّةُ مأوى السباع؛ ويوسف غير قادر على الدفاع عن نفسه، فأخاف أن تغفلوا عنه فيفترسه الذئب. فالأفضل أن تذهبوا أنتم وتتركوه معي.

لم يقبل أبناء يعقوب عذر أبيهم ولم يخشَوا وقوعه في الغم والحزن. وقالوا: كيف يُمكن أن يأكله الذئب ونحن جماعة من الشباب الأقوياء إلى جانب يوسف؟

لقد رأى يعقوب عليه السلام في منامه يوسف واقعًا في مخالب ذئاب البادية. جاء في تاريخ الكامل: «**إنه قال لهم: أخاف أن يأكله الذئب لأنه كان رأى في منامه كأنَّ يوسف على رأس جبل وكأنَّ عشرةً من الذئاب قد شدُّوا عليه ليقتلوه، وإذا ذئبٌ منها يَحْمي عنه، وكأنَّ الأرض انشقَّت فذهب فيها فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام**».

لذلك كان يرى الخطر في ذهاب يوسف عليه السلام. وربما كان مقصوده من الذئاب إخوته الحُسّاد،

وربما كانت برِّيَّة فلسطين مليئة بالذئاب، رغم أن أسوأ الذئاب الـمُفترسة هي في الوقع الأشخاص الحسودون الذين لا يتورَّعون عن ارتكاب أي جرم.

وعلى كل حال، لم يقبل الإخوة عذر أبيهم وقالوا: ما أخسرنا إن أكله الذئب ونحن موجودون! أي فضيحة وخسارة أسوأ من ذلك!

وفي النهاية، تمكَّنوا من إقناع أبيهم. والـمُراد من عبارة ﴿لَّخَـٰسِرُونَ﴾ لهالكون أو لعاجزون أو إننا غير فائزين.

وقال بعضهم: لما رأى إخوة يوسف عجزهم عن إقناع الأب وأحسوا بسوء ظنه بهم، قالوا ليوسف عليه السلام: اطلب أنت من أبيك أن تخرج يومًا معنا للنزهة. ولم يدر يوسف بقلبه الطيب وذهنه الصافي أن إخوته يُضمرون له الشرّ؛ فطلب من أبيه السماح له بالخروج مع إخوته ليستمتع بمناظر البرِّيَّة.

وأيًا كان الأمر، فقد وقع القضاء والقدر وحصل الإخوة على الإذن من أبيهم بأخذ يوسف وتهيَّؤُوا للغدر.

لم يكن أمام يعقوب عليه السلام من حلٍّ سوى الصبر لأنه لو منع يوسف عليه السلام من الذهاب ربما حمل ذلك الإخوة على الجهر بعداوتهم ولوقع الاشتباك والاقتتال داخل البيت ولقام هؤلاء الشباب الـمغرورون في البيت نفسه بسفك الدم وجلب الفضيحة على نحو أسوأ ولذهبوا بماء وجه أهل بيت النُّبُوَّة الذي عُرفوا به منذ سنين طويلة. كما أنهم لو أخذوا يوسف عليه السلام وألقوه في الجُبّ لم يكن قادرًا على أن يُحقّق أكثر في الـمسألة أو أن يطلب منهم بقية بدن يوسف الذي افترسه الذئب لأنه من الـممكن أن يلجُّوا عندئذ ويذهبوا إلى الجُبّ ويقتلوا يوسف فيه.

بعد أن حصل إخوة يوسف من أبيهم على الإذن باصطحابه معهم، وضعوا في تلك الليلة خطَّة إلقائه في الجُبّ وهم مطمئنون، وواسوا بعضهم بعضًا ولقنوا بعضهم بعضًا الجرأة على ارتكاب هذه الجناية قائلين: سنقتل يوسف أو نُبعده عن أبينا فتُصبح محبّة أبينا خالصة لنا، ثم نتوب بعد ذلك، وهذا يُماثل ما يُفكّر به الـمجرمون جميعًا وهو من أكبر أفخاخ الشيطان،

فالشيطان يدفع الإنسان إلى ارتكاب الذنب على أمل التوبة التي قد لا يُوفَّق للقيام بها أبدًا.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: ١٥].

الفوائد: لما أصبح الصباح نهضوا من نومهم وحان وقت تنفيذ الخطة. بعد أن هيَّؤُوا الوسائل أخذوا يوسف (عليه السلام) بكل لطف من حضن أبيه وأمه وشيَّع الأبُ والأمُّ الرحيمان ابنَهما يوسفَ حتى مسافة من الطريق، وكانا قد دللاه وألبساه لباسًا جديدًا وأوصوا به كل واحد من إخوته. وقد وعد الإخوةُ أبوي يوسفَ بأن الليل قريب والسفر قصير وبعد عدة ساعات سيجدان يوسف بين ذراعيهما.

عندما كان الإخوةُ لا يزالون واقِعِين تحت نظر يعقوب وراحيل كانوا يُدَلِّلون يوسف بكلِّ لطف ويتخاطفونه من حضن وأكتاف أحدهم الآخر ولا يتركونه يسير على قدميه كي لا يتعب. ولكنهم بمُجرد أن ابتعدوا عن نظر أبويه وعن هضاب برِّيَّة فلسطين بدؤوا بإساءة معاملة هذا الطفل البريء ورموه على الأرض من فوق أكتافهم وصفعوه وأجبروه على الركض في البادية، وحيث ما أخذوه كانوا يصفعونه ويركلونه حتى أخذوه إلى ذلك الجُبّ الذي يقع على طريق القوافل أي على بعد ثلاثة فراسخ، وكانوا يُركِّضون الطفل الذي لم يتعوَّد على المشي بسرعة أو يسحبونه. ويُسْتَفَادُ مِنْ فحوى هذه الآية أنهم اختلفوا من جديد عند الجُبِّ. أراد بعضهم قتله وإهلاكه أو رميه في وسط الجُبّ. جاء في الروايات أنهم رموه في الجُبِّ رميًا، لكن ظاهر الآية أن أكثرهم أو جميعهم قرَّروا وضعه في قاع الجُبّ بواسطة الحبل أو بأي وسيلة أخرى.

كان ذلك الجُبّ يقع على طريق قوافِل مصر وكان جُبًّا عميقًا ومُوحِشًا وأطرافه غير ممهَّدة، وليس فيها بناء، وفيه ظلمات عبَّرت الآيةُ عنها بجملة: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾. ربما كان في جوانب الجُبّ فجوات مظلمة.

الآن أصبح الطفلُ الذي كان قبل عدَّة ساعات يعيش في حضن زعيم بني إسرائيل ورئيس أسرتهم وبين ذراعَيْ أبيه وأمه وفي عنايتهما؛ على وشك أن يُوضَع في بئر عميقة بعد لطمه وركله

وسبِّه وضربه. كانت تلك البئر أشدّ رطوبةً ووحشةً من سجنٍ مظلم. فالسجن الـمُظلم مكانٌ ضيِّقٌ مُعتمٌ محرومٌ من نور الشمس ولكنه محلٌّ آمنٌ يقع تحت نظر الـمأمورين والحُرَّاس. أما هذه البئر فأسفلها مملوء بالـماء، ويخاف من فيها من السقوط في الـماء كلَّ لحظة، فضلاً عن الثعابين والحشرات وغيرها من الدواب الـمؤذية في البيداء.

أيُّ حُزْنٍ وضغْطٍ نفسِيٍّ عانى منه ذلك الطفل الصغير في أوّل منزلٍ من منازل إبعاده وأوّل مرحلةٍ من مراحل بلائه؟ لا أحد يعلم ذلك إلا الله.

قبل أن يُنزلوه داخلَ البئر نزعوا عنه لباسه وخلعوا عنه قميصه كي يُلطِّخوه بالدم ويدَّعوا أن الذئب خطفه ويأتوا بالقميص شاهدًا على قولهم أمام الأب الحنون. ماذا طلب منهم يوسف عليه السلام بعينيه الباكيتين؟ هل قال لهم: ارحموا طفولتي أو ارحموا شيخوخة أبي ولا تحرقوا قلبه بفراقي له! أو قال لهم: لا تُعَرُّوني من لباسي؟ أيًا كان الأمر فقد وضعوه في بئر لم يكن هناك أمل في الخروج منها. كانت بئرًا بلا مقبض ولا أماكن خاصة لوضع الأقدام على جدرانها، ولا سور من الأحجار حولها ولا تصل قدم الطفل الصغير إلى هذا الطرف أو ذاك منها.

قيل: كانت هناك صخرة في جوار الـماء فبعد أن سقط يوسف عليه السلام في الـماء صعد إلى تلك الصخرة ووقف عليها. ونادوه فأجابهم ففهموا أنه حيٌّ فأرادوا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك.

ساد صمت عميق في محيط البئر، لم يكن يقطع ذلك الصمت إلا صوت الأنين. كانت أمواج الحزن والغُصص تموج في قلب يوسف. قَبُحَ منظر الحياة في عينيه وبدت له صورة العالـم صورةً شيطانيةً. هل سأبقى حيًّا في هذه البئر؟ كم من الأيام سأبقى هنا وهل سأموت من العطش والجوع أم أنني سأموت بلسع الحيوانات الـمؤذية بعيدًا عن حضن أبي؟ لقد كانت وسيلة النجاة وبارقة الأمل أمامه مسدودة ويئس من كل شيء.

العناية الإلهية والبشرى الغيبية:

ما لم يتعرّض الإنسان إلى جفاء الناس وأذاهم، خاصةً إذا كانوا من أقربائه وأصدقائه، لن يشعر برحمة الله ورأفته، ولن يُقدِّر ألطاف الله الـمنَّان حقّ قدرها.

شعر يوسف الصغير وهو في بئر البلاء بأنه قد يهلك فيه أو يُصاب بالسكتة من الغُصة والحزن، وأخذت حلقات البلاء والـمُصيبة تحكم قبضتها على قلبه الرقيق وكاد يموت من الوحشة في قعر البئر، هنا ظهر استعداده الراسخ في نفسه فقال: **يا شاهدًا غير غائب، ويا قريبًا غير بعيد، ويا غالبًا غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا.**

لقد أمدَّه هذا التوجُّه نحو الله، فنظر اللهُ تعالى، الرؤوفُ الرحيمُ العليمُ بحال عباده والحافظُ لهم، إلى يوسف نظرةَ عنايةٍ ورحمةٍ، ومنذ تلك اللحظة بدأت نُبُوَّة يوسف وانفتح نور الحياة فَجْأَةً على قلبه فآنسه الوحي الإلهي في مكان الغُربة هذا، وحفظه في تلك الهاوية الخطيرة بلطفه وسكينته: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ...﴾ يا يوسف لا تحزن!

(بيت شعر ومضرب مثل بالفارسية:

پايان شبِ سِيَه، سپيد است   و در ناميدى بسى اميد است

الترجمة:

نهاية الليل الـمُظلم بياض الفجر   وكم من يأسٍ يحمل بين ثناياه الأمل

ما لم ينقطع الإنسان عن الوسائل الـمادية ويقطع تعلقه وتوجهه عما سوى الله، لن يتيَسَّر له الاتّصال بالله. الخطوة التي خطوتها في طريق الآمال والأمنيات تُقربك من مبدأ جميع الأماني والآمال. عندما فُصل طفل في الثانية عشرة من عمره أو في التاسعة من عمره عن أسرته وحياته وسقط في قاع بئر مُوحشة في البيداء، فإنه -إضافةً إلى حلول لطف الله عليه- أُوحي إليه فتبدل حزنه فرحًا، وجاءه جبريل يقول: لا تحزن فإن لك مستقبلاً باهرًا وسعيدًا وستنتقل من قعر البئر إلى أوج العلياء وستُخبر إخوتك عن جريمتهم النكراء الوحشية هذه في حين سيغلبهم الخجل ولن يتعرفوا عليك، فقد فقدوا شعورهم الآن وسيأتي زمن يركعون فيه أمامك ويطلبون منك العفو والصفح. ما الذي سيحدث في ذلك اليوم لهؤلاء الإخوة؟ الآن حجاب الجهل والحسد يحول بينهم وبين الفهم: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾. والشعور هو ضمير الإنسان الحيّ ومعرفته بواجباته. طالـما أشعّ نور العقل والإيمان في قلب الإنسان ولم ينطفئ مصباح الهداية الباطنية فيه

لا يُمكن أن يرتكب جرمًا أو إثمًا، كما أن الإنسان طالما كان مستيقظًا كانت سيطرةُ رُوحِهِ على أعضاء جسمه وجوارحه كلها، فالأذن تسمع والعين ترى وكل عضو يعرف وظائفه، فكذلك طالما كان حس العقل والإيمان مستيقظًا فإن شعور الإنسان وضميره يعملان بشكل جيد ولا يُمكن للإنسان العاقل الـمُتديِّن أن يعمل ما يُخالف واجباته. عندما يُقْدِمُ الإنسان على ارتكاب جريمة، ويتجه نحو العصيان يكون في حالة موت لشعوره العقلي ولإيمانه، أي أنه يكون في حالة فقدان للعقل والإيمان أو للشعور والضمير، كما قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَشْرَبُ الشَّارِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَزْنِي الزَّانِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1]. إذا استيقظ الإنسان من نوم غفلته وتنبه شعوره الباطني فإذا ارتكب مع ذلك إثمًا فإنه سُرعان ما يندم عليه، وإن لم يندم فإن معنى ذلك أنه فاقد للإيمان وعليه أن يُعالج نفسه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٦-١٨].

الفوائد: إحدى التصرفات الرائجة بين البشر: ممارستهم للمكر والخداع. بعد أن وضع إخوة يوسف، يوسفَ في البئر أخّروا عودتهم إلى الليل كي يحتمل الأب حدوث واقعة هامة وكي لا تراهم عينا أبيهم عندما يروون له الخبر الكاذب، لأن وجوههم الخجلة الخائنة ستشهد على كذبهم، أما ظُلمة الليل فهي لباس ساتر. لو كان الوقت نهارًا ووقعت عين أبيهم على أعينهم لربما لم يكن في استطاعتهم أن يتصنّعوا ذلك التصنع الجريء أمامه ولا أن يتظاهروا بتلك الكذبة الكبرى ويقولوا: بأننا تسابقنا فجاء الذئب وأكل يوسف، مع أنهم هم أنفسهم كانوا قد قالوا: إننا عصبة قوية.

لقد أتوا بهذا الخبر في الليل كي يَسُدُّوا أمام يعقوب سبيل التفتيش والتحقيق في القضية، لأنه

١- متفق عليه. وهو حديث مستفيض رواه عن رسول الله ﷺ عددٌ من الصحابة.

من الـممكن أثناء النهار أن يذهب الأب إلى محلّ وقوع الحادثة الـمُفترضة ويُلاحظه، أما في الليل فإنه لا يستطيع فعل ذلك، وقد كانوا هم أنفسهم يعلمون أن مثل هذا الكذب لا يُمكن تصديقه بسهولة، لذلك أتوا بقميص يوسف الـمُلطَّخ بالدم وقالوا رغم ذلك: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾. وعلى أي حال فقد خذلهم الله فنسوا أن يُمزِّقوا القميص بل لطَّخوه بالدم فقط وأتوا به. لذلك بمُجرَّد أن شاهد يعقوب القميص عرف أنهم يكذبون عليه، فقال: «إن هذا الذئب كان رحيمًا! كيف أكله ولم يخرق قميصه؟!». (هذا رغم أنه من الـممكن أن نقول: إن حضرة يعقوب عليه السلام عرف من الوحي أنَّ ابنَه يوسُفَ حيٌّ)، ولذلك قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾. قال الفخر الرازي: «كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان؛ فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا رب! خطيئةٌ أخطأتُها فاغفرها لي».

لم يكن أمام الرجل الـمُسِنّ حبيس المنزل من مخرج في مواجهة إجماع أبنائه سوى الرضا والصبر لأنه لا يستطيع التحرُّك للكشف عن حقيقة الأمر أو توبيخ أبنائه توبيخًا شديدًا، لأنه لو فعل ذلك لانتفضوا ضدّه وعادوه، ولزال احترامهم له، ولـمَّا لم يكن لذلك من نتيجة سوى خراب الحياة وذهاب ماء الوجه والاعتبار الاجتماعي، لذلك أنهى تلك الفتنة هنا. ولكن هل قام هذا الأب الجليل فيما بعد بالتحقيق في الأمر، وهل سأل الرعاة والـمارين في تلك الـمنطقة عن ابنه الضائع؟ أم أنه أوكل الأمر لقدر الله وانتظار ما ستأتيه به الأيام في الـمستقبل؟ التاريخ ساكت عن هذا الأمر.

ومقصود الأبناء من كلمة ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ التسابق في الرماية وركوب الخيل الذي يُعْتَبَرُ أمرًا جيِّدًا في دين الأنبياء عليهم السلام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبۡكُونَ﴾ أنه لو بكى الـمُدَّعي أمام الحاكم فلا ينبغي على الحاكم أن يُعير أهمية لهذا البكاء لأنه من الـممكن أن يكون مثل بكاء إخوة يوسف.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: ١٩].

الفوائد: رغم أن يوسف ﷺ استطاع بفضل الوحي السماوي الذي نزل عليه أن يتحمل الليالي الـمُرَّة والوحدة في ظُلمات الجُبِّ إلا أن الأمر كان قاسيًا وشديدًا عليه. آه، ما أظلم الـمكان! الصمت مُطبق ولا أسمع حسًّا من أي جهة. هل لهذه الليالي الحزينة نهاية؟ كم ليلةً ونهارًا سأبقى في قاع هذا الجُبّ؟

قيل: إن يوسف بقي في الجُبِّ ثلاثة أيام وقيل: سبعة، ولم يكن له من مُعين سوى فضل الله.

ذَكَرَ بعضُ الرُّواة أن يهوذا كان يُرسل أحد إخوته كل يوم إلى البئر فيُلقي مقدارًا من الطعام فيه وكانوا مُتيَقِّظِين إلى حركة القوافل حتى إذا جاءت قافلة وأخرجت يوسف من البئر عملوا على عدم عودته إلى حضن أبيه ومنعوه من تخليص نفسه.

ومن الجهة الأخرى كانت القوافل التجارية تذهب من كنعان وفلسطين ومَدْيَن إلى مصر وجاءت قافلة يرأسها شخصٌ يُدْعَى «مالك بن دعر» كان يمرُّ كثيرًا من هذا الطريق، وكان قد رأى في حُلْمِهِ أنه سينال متاعًا من أرض كنعان تكون له فيه فائدة كبيرة. في هذه الأثناء جاءت قافلة «مالك بن دعر» وأرسلوا دلوهم في البئر ليحصلوا على الـماء فلما وصل الدلو إلى قاع البئر رمى يوسف ﷺ نفسه فيه وتعلق بالحبل وخرج من البئر كالبدر الـمُنير عند شروقه.

عندما وقعت عينا الرجل الذي رمى بالدلو على جمال الطفل ورشاقته صاح: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾.

منذ تلك اللحظة خطَّطوا في ذهنهم لاستعباد يوسف الذي كان حرًا من عائلة حرَّة شريفة، وأدركوا أنه متاعٌ جيّدٌ للمتاجرة به في سوق مصر. فخبؤوه عن أنظار الآخرين كي لا يطمعوا به ولا يأتي من يدعي أنه صاحبه.

يتبيّنُ من هذه الآيات أن الاسترقاق وبيع العبيد كان تجارةً رائجةً في ذلك الزمن وكان أفراد البشر يُسخَّرون كالحيوانات لخدمة الجبارين الذين يستعبدونهم.

وهذا هو السبب في أن الأمر الوحيد الذي جاء لذهن هذه القافلة هو استرقاق يوسف، ولم يُفكروا بأنه ابنُ عزيزٍ فُصِل عن أبيه وأمه وضاع، ويجب إعادته إلى والديه. ولو أرادوا معرفة

حقيقة الأمر لوجب عليهم اِتِّباع حكم العقل والإنصاف والتحقيق لمعرفة عائلة هذا الطفل وكان بإمكانهم أن يسألوه: من أنت؟ لماذا حُبست في هذا البئر وما هو السبب الأساسي لرميك فيه؟ ومن البديهي أنه كان سيقول لهم: إنه ابن يعقوب ومن أحفاد إبراهيم الخليل عليه السلام وقد أخذني إخوتي بحُجّة النزهة إلى البرية وأصرُّوا على فصلي عن أبي وعرَّوْني من لباسي ظلمًا وعدوانًا وخبؤوني في هذا البئر.

هل طلب يوسف الذي ابْتُلي بتلك الـمُصيبة من القافلة أن يُوصلوه إلى أبيه الـمُسن الذي لا علم له بما حلَّ به وبمكانه مُراعاةً للإنصاف والإنسانية والشهامة؟ التاريخ لا يذكر شيئًا من ذلك. الأمر الـمُسلَّم به أن رجال القافلة الذين كانوا من عُبَّاد الـمنفعة احتفظوا به كرأسمال تجاري جاء إلى أيديهم مجانًا. لكن الله شمل يوسف بعنايته وجعل من عبوديته هذه مُقدمةً للسلطان والسعادة ونجاة بني إسرائل.

وعلى كل حال، جاء يهوذا كعادته اليومية إلى حافة البئر وبحث عن يوسف عليه السلام فلم يجده. ولكنه وجد قافلةً بجانب البئر فأسرع إليها وسألهم عن يوسف، فوجده بين أيديهم، فأخبر إخوته عن الأمر قائلاً: لقد تهيأت أسباب إبعاد يوسف، ولما سمع إخوته بالخبر سارعوا على الفور نحو القافلة وقالوا: إن هذا الطفل عبد آبق سيء الأخلاق وقد هرب منا وقد اختبأ في البئر ونحن مستعدون لبيعه لكم بأي ثمن.

لقد خشي الإخوة أن يُعرِّف يوسفُ نفسَه وأن يقوم «مالك بن دعر» بإعادته إلى أبيه فيُفتضحُ أمرُهُم ويسوَدُّ وجهُهُم. لذلك كانوا مُتنبِّهين للغاية وبمُجرَّد علمهم بوقوع يوسف بيد القافلة هُرعوا إليها وقالوا ما قالوه ولم يحتمل أحد من رجال القافلة كذبهم وخيانتهم لكونهم أبناء يعقوب عليه السلام الـمشهور في تلك الأرض بالصدق والصلاح. وقد سارع الإخوة للحضور إلى القافلة حتى إذا ما أظهر يوسفُ حقيقةَ أمره قام الإخوة جميعًا بتكذيبه وباعوه بأي ثمن كان. وربما يكونون قد هدَّدُوه مِنْ قبل بأنه لو عرَّف نفسه فسيقتلونه.

ما الذي كان بإمكان يوسف الصغير أن يفعله في مواجهة أولئك الرجال الكبار؟ خاصةً أن كلام إخوته كان في صالح القافلة.

لقد رأت القافلة متاعًا جميلاً سيُصبح ملكها وستبيعه بثمن غال، لذلك لما قام أشخاص أجلاء من تلك الـمنطقة، أي إخوة يوسف، بالتعريف بيوسف بوصفه عبدًا، لم يعد أحدٌ يُصغي إلى ما يقوله يوسف نفسُه عن نفسِه.

هل دافع يوسف عن نفسه أم لا؟ وهل كان بإمكانه الدفاع عن نفسه أم لا؟ ليس في الآية ما يُفيد ذلك.

لكن الـمُفسِّرين قالوا: إن إخوته أوصَوْهُ من قبل بضرورة أن يعترف أنه عبد مملوكٌ لهم. كيف كان بإمكان يوسف عليه السلام الذي لا يزال وجهه محمرًا من آثار قبضات الظلم التي صفعه بها إخوته والذي كان يعلم أن إخوته يُريدون قتله، أن يتمرّد على وصيتهم؟ مما لا ريب فيه أنه لو لم يذهب مع القافلة لقتلوه، لذلك لم يكن أمامه بُدٌّ من الاعتراف بأنه عبد رقيق!.

أراد إخوة يوسف بهذه الطريقة أن يُبعدوه عن أرض كنعان حتى لا تصل أخباره إلى أحد فيُخبر أباه عنه. ولذلك سارعوا إلى بيعه بدراهم معدودة (رُوي أنها عشرون درهمًا). وقد حقَّره إخوته قائلين: إن رجال القافلة لم يكترثوا بكلامك. وهكذا تحقَّق هدف إخوة يوسف عمليًا.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف: ٢٠].

الفوائد: معنى ﴿شَرَوْهُ﴾ باعوه، وتأتي أيضًا بمعنى اشتروه. أما ضمير الجمع [أي الفاعل الـمستتر لفعل شروه] فهل يعود على إخوة يوسف فيكون الـمعنى أنهم باعوه؟ أم يعود على رجال القافلة فيكون الـمعنى أنهم اشتروه؟

أحد العلماء الـمعاصرين قال: إن فاعل ﴿شَرَوْهُ﴾ يعود على القافلة ولكنه فسَّر الفعل على معنى باعوه وأن الـمراد أن القافلة باعت يوسف بثمن رخيص في مصر، ولكن هذا القول خطأ لأنه يتعارض مع طمع رجال القافلة، فهل يُمكن أن تقوم القافلة -التي سُرَّت بالحصول على هذا الـمتاع الجيد ورأت فيه فائدة كبيرة وأخفته كي لا يأخذه منها أحد- ببيعه بثمن بخس؟

وقد استدلَّ هذا الفاضل الـمُعاصر على تفسيره بثلاثة أدلَّة هي التالية:

١-قال: قال إخوة يوسف: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ فلا معنى لأن يأتوا ويستخرجوه من

الجُبِّ ويبيعوه. والجواب عن هذا الدليل: أن إخوته لم يستخرجوه بأنفسهم من الجُبّ، لكنهم عندما رأوا أن القافلة أخرجته من الجُبِّ جاؤوا وقالوا ما قالوه خشية أن يتكلم يوسف عليه السلام ويتحرَّر، فباعوه على أنه عبد آبق.

٢- قال: إنهم أخفوه: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ فكيف قام إخوة يوسف بإخفائه ثم بيعه؟ والجواب: أن إخوة يوسف كانوا من أجلّاء أهالي تلك المنطقة وكانوا أصحاب قوة وبأس ويعلمون أن القافلة أخفته لذا جاؤوا وباعوه للقافلة بثمن بخس طبقًا لميل القافلة.

والقافلة التي كانت قد أخفت يوسف عليه السلام خوفًا أو اشترته، نجت بشرائه وجعلت يوسف متاعها وبضاعةً من بضائعها بشكل علني.

٣- قال: إن ضمائر الجمع في أفعال: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ و﴿فَأَرْسَلُواْ﴾ و﴿وَشَرَوْهُ﴾ كلها تعود على القافلة. والجواب عن هذا الدليل: إننا نقبل بأن جميع الضمائر تعود على القافلة، ولكننا نرى أن معنى «**شَرَوْهُ**» اشتروه أي أن القافلة اشترته [من إخوة يوسف] بثمن بخس.

فهذه الدلائل كلها لا تتنافى مع القول بأن إخوة يوسف باعوه، خاصةً إذا كان هذا الأمر متوافقًا مع التوراة لأنها نصت على أن إخوة يوسف باعوه، وليس كل ما في التوراة باطلاً.

فالنتيجة هي أن إخوة يوسف باعوه بثمن بخس حسدًا وتحقيرًا له وإبعادًا له عن وطنه. ولكن القافلة باعته في مصر بثمن غالٍ وبذلك يكون يوسف عليه السلام قد بيع مرتين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

الفوائد: كان يعقوب عليه السلام أبًا مُحِبًّا مولعًا بابنه، يرى لذَّة الحياة كلها في استماع الكلمات الجميلة لابنه العزيز يوسف، وكان يُعوِّض ضعف شيخوخته بمُشاهدته لجمال يوسف، إذْ كان يوسف نَـجْمَ صباحِهِ الطالع كلَّ يوم، وقُرَّة عينه. أما الآن فمضت أيام وهو غارق في الغمِّ والحزن حيث لم تعد أذناه تطرب بسماع كلمات يوسف الجميلة ولم يعد ينعم بدفء جلوس يوسف في حضنه،

وحُرمت نفسه من تلك السعادة والـمسرَّة وبهجة الحياة.

في هذه الأيام انطلقت قافلة مصر حاملةً معها أمل حياته بكل قسوة وجفاء، وُضع الطفل اليافع كبضاعة على ظهر الجمل ولم تعد حبال أمل يعقوب تتحمل الشدَّ أكثر من ذلك.

رُغم أن البيداء كانت تتسع في طريق يوسف إلا أن الحياة كانت تضيق عليه، لأن الإنسان الغريب والـمُبتلى يُصاب بالجزع في وسط الصحراء وترتجف قدماه ورجلاه. وقد قُيِّدت يداه بأمر من إخوته رُغم أنه كان طفلاً لم يسبق له أن رأى البيداء من قبل ولا سار فيها، وَمِنْ ثَمَّ لم يكن بحاجة إلى ربط يديه، لكن القافلة فعلت ذلك لمُجرَّد وصية إخوته لها بهذا الأمر.

كان الطريق من كنعان إلى مصر يستغرق اثني عشر يومًا. ما الذي جرى على الطفل خلال هذه الـمدة؟ أصبح يائسًا من العودة إلى حضن أبيه وأمه، أخذ يُفكر في مستقبله، لديه ذكريات مزعجة، مثل: ما عاقبة هذا السفر الذي أُجبِرتُ عليه؟ هل سأتحمل العبودية لمخلوق؟ هل سأُبتلى بمصير أسوأ من حبسي في البئر؟ هل ثمَّة وسيلة أُخبر فيها أبي عما حلَّ بي؟ هل هناك إمكانية أن أرى وجه أبي، وأذرفَ قطرات من الدموع على قدميه؟

لم يكن في ذهن القافلة بشأن يوسف عليه السلام سوى بيعه، كانت تجارة الرقيق من التجارات الـمشؤومة، وكانت هناك سوق خاصّة لبيع الرقيق والأسرى في كل مدينة، ولما كان يوسف طفلاً جميلاً يجذب الانتباه فقد عرضوه للمزاد في تلك السوق. ومن البديهي أن يوسف لم يكن قادرًا على الدفاع عن نفسه بقوله: إنني لست عبدًا. كان مُجبرًا على الاستسلام.

كان الأعيان والـملأ الأشراف والأسر النبيلة يشترون العبيد ذوي الصورة الحسنة لجعلهم خدمًا لهم في منازلهم، وكانوا يُفضِّلون العبد الطفل لأنهم يُربُّونه عندئذ حسب ذوقهم. جاء مشترون كُثر لشراء يوسف. ما الذي كان يُدريهم عن سبب هالة الحزن تلك التي كانت مرتسمة على وجه ذلك الطفل الجميل خفيف الدم؟ أيُّ مرارة ومشقة تعرَّض لها؟ الطفل الذي كان يتمتع بالحرية الكاملة أصبح اليوم أسيرًا لأُناس من عُبَّاد الـمال يعرضونه للبيع كعبد رقيق.

كان أمين خزينة ملك مصر الذي يُدعى قطفير أو أزفير يُفكر بشراء عبد ذي أهلية. فأُخبر بأن هناك عبدًا جميلاً معروضًا للبيع. لقد جلب ذلك الغلام الكنعاني إليه انتباه أمين الخزينة في مصر

-الـمُلقَّب بالعزيز- رُغم أن ذلك الغلام كان يلبس لباسًا فقيرًا ومُغْبَرًّا وغير مرتب إلا أنه كان شديد الجمال ووجهه كقرص القمر ليلة البدر.

اشتراه أمين الخزينة بأربعين ليرة ذهبية ولباسين مصريين ووزنَهُ فِضّةً وأخذه إلى منزله وَعَهِدَ به إلى زوجته. كان عزيز مصر رجلاً عِنِّينًا عاجزًا عن ممارسة العمل الجنسيّ، وكان متزوجًا من امرأةٍ من أجمل نساء مصر تُدعى «راعيل» وتُلقَّب بـ «زليخا». كان الزوج العاجز عن تلبية حاجة زوجته الجنسية يشعر بالذل والانكسار ويسعى لجلب رضا زوجته بأي وسيلة كانت. خاصةً أنها زوجة مثل زليخا. لذا اشترى ذلك الطفل الذي بدا له جميلاً جدًا ونجيبًا بالثمن الذي عُرض عليه، مهما كان مرتفعًا، كي يؤمِّن لزليخا أسباب الأُنس والأُلفة والتسلية.

بَشَّر أمينُ الخزينة زوجتَه، عندما جاءها بيوسف، بأنه من الـممكن أن يتخذوه ولدًا فتُحقِّق زوجتُه بذلك أُمنيتَها بامتلاك ولد، ولذلك قال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي إذا وجدناه شخصًا لائقًا وأهلاً فستتخذه ابنًا لنا ونجعله من أسرتنا. والـمقصود من جملة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أنه إذا وجد الطفل الجميل لائقًا ومؤهَّلاً فقد يهديه إلى ملك مصر لينال الحظوة عنده.

التغيرات السريعة في أحوال يوسف:

يُمكن أن يعود ضمير ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ في جملة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ على الله. ويُمكن أن يعود على يوسف، لأن الإنسان مهما كان حرًّا مختارًا إلا أن القدر يلعب به، وتُقلِّبه يد الـمقادير حتى لكأنه مجبور، ويعترف بعجزه سواءً أراد أم لم يُرد.

عندما تتأمَّن وسائل العيش للإنسان وينال استقلالاً وغِنىً أكثر تستولي عليه الغفلة ويتوهَّم لنفسه شخصيةً كبيرةً ويقع في هاوية فساد الأخلاق. لذلك يمتحنه الله أحيانًا بابتلاءات تجعله يجثو على ركبتيه مُتضرِّعًا ويعترف بعجزه ويتخلَّى عن كِبره.

عاش يوسف الشريد والأسير في الجُبِّ دون قميص، وفي عاصمة مصر رقيقًا مع سائر العبيد، لكنه الآن دخل إلى أبهى قصور مصر ولبس من أنعم ألبستها ونام على فراش وثير وأكل

أشهى الأطعمة، فلم يكن حاله كحال سائر العبيد الذين يُحرَمون من النوم والطعام. وذلك لأن صاحب القصر أدرك بفراسته آثار النجابة والعظمة في يوسف وانجذب إليه وأكَّد على زوجته قائلاً: ﴿أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾ كي يُصبح ابننا ووارث ثروتنا. الآن أصبح يوسف يتمتَّع بحياة أبناء الوزراء في مصر.

بذل إخوة يوسف كل سعيهم وجهدهم للهبوط بشأنه إلى قاع البئر ووضعوا عليه سلاسل العبودية، وأطاحوا به من علياء العِزّ. لكن هذا السقوط والانحطاط ذاته كان السلم الذي صعد يوسف عليه نحو العِزَّة والـمنزلة. عندما كانت قافلة مدين تحمله بذلك الذلّ على ظهر الجمل كانت في الواقع تسير به نحو منزلة السعادة والعِزَّة، وكان إخوته -دون أن يعلموا- يُرسلونه نحو الرِّفعة والسلطان، وصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

يبدو أن الله تعالى جعل البئر الـمُظلمة مقدّمة لحديقة السرور الـمليئة بالرَّوْح والرَّيْحان وجعل قيد العبودية يتبدَّل إلى تاج الإمارة وعرشها وبذلك أُنقذ بنو إسرائيل من التنقُّل في الفَلَوات والقِفار والسكن في الخيام إلى السكن في الـمدن.

كل مصيبة وبلاء يعقبها خير وسعادة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦].

دخل يوسف الآن إلى عاصمة دولة مصر العريقة في القدم وسكن في بيت أسرة معروفة من أعيان البلد تتعلَّق بأمين خزينة ملك مصر أو رئيس الأفواج الـملكية، وقد تعلَّق قَلْب عزيز مصر الذي كانت تملؤه الرحمة والحنان بيوسف. كان العيش في مصر، والتنعُّم بمحبّة العزيز وزليخا ولطفهما أفضل وسيلة لإظهار ملكات يوسف ومواهبه الكامنة. ولو كان يوسف قد كبر ضمن قبيلته لذهب برد البيداء وحرها بملاحته وجمال وجهه وربما كانت عاقبة أمره رئاسة عدد من البدو الرُّحَّل في البادية الذين لا يتجاوز عددهم مئة نفر. لكنه الآن دخل إلى مدينة ستجعل منه أحد نوابغ البشرية في التاريخ وتجذب نحوه القلوب حتى يُصبح بطل عالـم الجمال والحُسن ويؤدي فِكره السامي إلى توسّده مقام الإمارة والنُّبوَّة.

لم يستولِ ابن يعقوب على قلب العزيز فقط، بل جَذَبَ إليه، بحُسنه وملاحته ونجابته، قلبَ زوجة العزيز أيضًا. عندما وضع يوسف قدميه في منزل العزيز نظرت إليه زليخا نظرة عطف وحنان وأحبته محبَّةً صادقةً نقيَّةً من كل شائبة، كنظرة الأم الحنون وَحُبِّها لابنها، إذْ كانت سِنُّ يوسف حينذاك بين السابعة والاثني عشرة سنة، وأيًّا كان فلا شك أنه لم يكن قد وصل إلى سن البلوغ بعد. وهكذا اجتمعت الطفولة مع الجمال مع الغُربة في يوسف، والنساء بطبعهنَّ يشعُرْنَ بالحنان والرأفة تجاه طفل جميل وغريب. لاسيما بالنسبة إلى امرأة لم يكن لديها ولد، فقد جعل وجود هذا الطفل الجميل يأسَها يتبدَّل إلى أمل وكسَلَها إلى نشاط.

كانت زليخا تنظر إلى يوسف في الأيام الأولى بل في السنوات الأولى نظرةً طاهرةً بريئةً. كانت مناعة الطبع لدى سيدة محترمة مثل زليخا تمنعها من النظر إلى عبدٍ مملوكٍ اشتُري بالمال نظرةَ شَهْوَةٍ.

تدليلُ عزيز مصر ليوسف ولطفه واهتمامه الكامل به أزال عنه هيئة الحزن واليأس، كما ساعد طقس مصر الجميل على إشراق وجه يوسف النوراني وعينيه اللامعتين وجماله الأخاذ ونعومة الشباب فيه، فأصبح يتجلّى مثل ملاك جاء من عالم الملكوت. وينبغي أن نقول: لقد كان يوسف ملك الجمال وأمير الكلام العذب. لكنه بحكم وراثته وأصالته ونقاء روحه وتربية الأب الصحيحة له ومعرفته بالله وضبطه لزمام نفسه لم يخطُ في حياته خطوةً نحو أقذار المعاصي. بل كلما نما جسمه ازدادت قوته الروحية وسُموّ فكره وواصل حياته بذلك الإخلاص وجهاد النفس فكان مثالاً عاليًا للنقاء والطهارة والقُدس والصلاح.

شابٌّ في أوج نشاطه وعِزِّ شبابه لم يخرج عن تعاليم الدين وحدود الشرع، كان مجاهدًا على الدوام لنفسه الأمارة. وهو جهادٌ أصعب من الجهاد في جبهة الحرب الدموية. إنَّ محاربة النفس ومنعها من الشهوات ومتطلبات فترة الشباب أمرٌ في غاية الصعوبة، كما قال رسول الله ﷺ

للشباب المجاهدين معه: «**قد رجعتم من الجهاد الأصغر فعليكم بالجهاد الأكبر**»[١]. كان يوسف يعيش في بيئة يُمكن لكل بطل أن يتلوث فيها إلا أنه حفظ نفسه رُغم ذلك. ولا شك أن يوسف -بحكم العدل الإلهي- سينال أعظم الأجر والثواب، لذلك قال تعالى في وصفه:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: ٢٢].

الفوائد: وهب الله يوسف -ببركة عِفَّته وطهارته- علمًا وحكمةً كان يُدرك بفضلها أدق الأمور ويحلُّ أعقد المشاكل، كما يحلُّ العقد السياسية بتدبيره الحكيم. بلغ يوسف نشاط الشباب وبدأت تتبدّل نظرات زليخا شيئًا فشيئًا نحوه حتى غدت عاشقةً مشغوفةً به مسلوبة الفؤاد كأسير فانٍ في جمال محبوبه. إذا كانت زليخا تتصرف معه في البداية تصرف السيد الآمر أصبحت الآن تنظر إليه نظرةَ عجز ورغبة فيه. نظرةً ملؤها التضرع والالتماس.

لقد ظهرت على يوسف آثار الشباب كالورد المُعطَّر النضر، وكان لمصر التاريخية القديمة نصيبٌ وافرٌ من التمدُّن والحضارة، وخرج جمال يوسف من وراء الستار وتجلّت أهليته التي لا نظير لها والتي وضعها الله فيه.

كان ذلك الشباب والجمال والنعمة والدلال في بيت العزيز وذلك الوجه الحسن لزليخا تتطلب أن ينحرف يوسف عن حدّ الاعتدال والتقوى وحدود الله لأن كل واحدٍ من هذه الأمور يُشكل أكبر فتنة للإنسان واختبار له، كما قال الشاعر:

إن الشَّباب والفراغَ والجِدة ... مفسدةٌ للمرء أيُّ مفسدهْ

١- قال الحافظ العراقي في تخريجه أحاديث **إحياء علوم الدين** (٨/ ١٣٥١): «حديث «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف».اهـ. وقال العجلوني في **كشف الخفاء** (١/ ٤٢٤ - ٤٢٥): «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب» قال الحافظ ابن حجر في **تسديد القوس** هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة، انتهى. .... ورواه الخطيب في **تاريخه** عن جابر بلفظ: قدم النبي ﷺ من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: «قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه». انتهى. قلتُ: وضعَّفه الألباني أيضًا.

ابْتُلي يوسف في حياته بامتحانات كبيرة. امتحانات هددت حياته الـمعنوية والروحية بالسقوط في الهاوية. فمن جهةٍ كان شابًّا في أوج قوته وهُيِّئت له جميع وسائل الراحة واللهو والشهوات. ومن الجهة الأخرى كانت زليخا ملكة جَمَالٍ تدور حوله وتُبدي استعدادها لتفديه بنفسها في كل ساعة، وفي غُدّوها ورواحها كانت تتوقع منه مقابل كل ما تُبديه له من مُلاطفة وخدمات أن ينظر إليها نظرة حبٍّ ويتبسَّم تبسُّمًا منعشًا للروح، لكن عِفَّته الطبيعية وحياءه الذي كان من خصائص طبيعته النقية والنجيبة والصادقة كانت تُشكِّل مناعة له فكان في كل ساعة يقتل عاشقته بما يُبديه من إعراض، ويُقاوم رغبة عاشقته الـمُغرمة به.

كان لهيب نار عشق زليخا مشتعلاً اشتعالاً يحرق كل هذه الـموانع ويُزيح كل هذه الحُجب، ويُحطِّم هذه السدود القوية. هنا وضع الله تعالى سدَّين كبيرين بين العاشق والـمعشوق. الأول: سدُّ الحكمة والاستقامة والفهم الصحيح، والثاني: سدُّ العلم والـمعرفة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾. رُغم أن يوسف كان عبدًا مملوكًا، وكانت زليخا بالنسبة إليه سيِّدةً جليلةً وذات نفوذ كبير عليه، إلا أن نور النُّبُوَّة وهيبة الدِّين جعلاه عظيمًا في نظرها. فكانت زليخا مع كل حشمتها وجاهها واقعةً تحت نفوذ يوسف الـمعنويّ ولم تكن تستطيع أن تُكرهه على أمر مُخالف لرغبته.

أثار عشق زليخا عاصفةً خطيرةً في نفسها. رُغم أنه لم يكن مُعيبًا بالنسبة إلى يوسف عليه السلام أن تُحبَّه امرأةٌ وتعشقه، فكلُّ نساء الأمة يجب أن يُحبِبْنَ نبيَّهُنَّ ويفدينه بأرواحهنَّ. لكن حُبَّ زليخا كان شهوانيًا لا دينيًا. ولما كانت ترى يوسف في قمَّة العِفَّة وأنه لا يُلقي إليها حتى نظرةً واحدةً من عينيه الفاتنتين وجدت نفسها مضطرةً أن تفتنه بأي نحو كان كي تنال منه مُرادها. ولكن مساعي زليخا ومكرها لم يُؤثِّر في يوسف الذي كان قلبه مليئًا بنور الحكمة والعلم وملتزمًا بالتعاليم الدينية. عندما تكون الروح كبيرةً يُمكن للإنسان أن يُنقذ نفسه من خطر الأحاسيس الشهوانية.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

الفوائد: رُغم أن زليخا كانت سيِّدةً محترمةً ذات منزلة واعتبار في مصر إلا أن لهيب العشق

أسرها واستولى على كيانها. لقد أحرقت لوعة الحُبِّ كل الحياء والعِفَّة التي زرعها الحقّ تعالى في فطرة المرأة. في البداية بدأت زليخا بمُحاورة يوسف بلسان العاشق الولهان وكانت تُظهر مقصودها بالكناية والإشارة لعلَّ لهيب العشق يُؤثِّر في يوسف.

أفضل وسيلة للعاشق اليائس وأمضى سلاح هو أن يقدح في ذهن المعشوق شرارةً من الحُبِّ كي تلتقي نيران الحُبِّ بين الطرفين. لكن كلَّ من أدرك أنه أصبح محبوبًا تكبَّر ولم يكترث ببلوى العاشق. فعلى العاشق أن يُخفي حُبَّه كي يتمكن من لفت انتباه محبوبه إليه وجلب اهتمامه به، وهذا أمر في غاية الصعوبة:

[بيت شعر بالفارسية]:

إن نطقتُ احترق فمي وشفتاي   وإن كتمتُ احترقت روحي!

أصبحت زليخا شقيَّةً وتعيسةً جدًا بسبب عشقها ليوسف لأن عِفَّة ومناعة هذا الشاب العِبرانيّ الجميل التي كانت تجعله باردًا غير مهتمٍّ كانت بمثابة الصخور التي ترتطم بها أمواج عشق زليخا الصاخبة وترتدّ إليها مرةً ثانية وتُغرقها تحت تلاطم أمواج اليأس.

لقد دفع ضغط الحُبِّ في قلب زليخا إلى تمزيق كل الحُجب الأخلاقية والمعنوية التي كانت بينها وبين يوسف وهي:

الأول: مناعة طبيعة المرأة.

الثاني: عظمة شأنها حيث كانت سيِّدةً محترمةً جليلة القدر.

الثالث: الجمال.

الرابع: عاطفة الأمومة.

الخامس: الخوف من الزوج.

السادس: الخوف من الفضيحة.

السابع: الخوف من إعراض يوسف وعدم اكتراثه.

لكن زليخا لم تكن تظنُّ أن يوسف سيمتنع عن الاستجابة لطلبها رغم كل جمالها ورغم

شباب يوسف وقوة الشهوة لديه في هذه الـمرحلة من العمر. كانت تتصور أنه رُبَّما كان يوسف ينأى بنفسه عن هذا الأمر خشية الفضيحة. وكانت تُفسِّر ابتعاد يوسف عن الـموضوع على أنه رياء أو تظاهر أو خوف لأن أكثر الشباب هم كذلك. خاصةً أن كلَّ امرأةٍ جميلةٍ لا يمكنها أن تتصور أن لا يُحبّها رجلٌ. لم تكن زليخا لتُصدق أن يوسفَ عفيفٌ قَلْبًا وصدقًا وأن جوابه عن رغبتها سيكون سلبيًّا حتى في الخلوة.

وهكذا ولأجل إزالة أسباب القلق لدى يوسف قامت زليخا ببناء مكان خاصٍّ لتُريح بالها من هذه الناحية، ورسمت في تلك العمارة رسومات مختلفة عن أثر الحُبِّ.

أما يوسف عليه السلام فمنذ أن فهم أن زليخا أحبَّتْه، وأنها تنظر إليه نظرةً ملوّثةً غير عفيفة، أصبح يُطرق رأسه أرضًا عند رؤيتها ولا ينظر إليها كي لا تُلهب نظرته الفاتنة نار العشق لدى زليخا أكثر.

رُبما كانت زليخا تظنُّ أن يوسف لا يكترث بعشقها له بسبب عدم رؤيته لجمالها، ولذلك رسمت في ذلك البناء رسومات عن جمالها وفتنتها ومحاسن جسمها نصف العاري لعلَّها تجذب نحوها انتباه يوسف.

قال بعضهم: وضعت زليخا مرايا في أرضية العمارة وسقفها وجدرانها على نحو تجعل يوسف أينما نظر يراها وينتبه إليها ويستجيب لرغبتها.

وقيل: بَنَتْ زليخا عمارة في إحدى زواياها زجاج وفي الزاوية الأخرى زمرُّد وفي الأخرى فضة وفي الزاوية الرابعة عقيق وجعلت على جميع الجدران الجواهر والـمصوغات الذهبية وتماثيل الطيور وسائر الحيوانات. وصنعت أشجارًا من الذهب والفضة وجعلت ثمارها من الجواهر وفعلت كيت وكيت، وَبَنَتْ داخل تلك العمارة غرفةً زجاجيةً، سقفها وجدرانها وأرضها من الـمرايا، ثم زيَّنت نفسها بأنواع الزينة الـمختلفة ثم دعت يوسف عليه السلام إلى تلك الغرفة. وبمُجرَّد أن وقع نظر يوسف على تلك الأوضاع قال: **اللهم احفظني وثبِّتني على العِفَّة.**

نجوى العشق بين زليخا ويوسف:

لا يُمكن لقلم مهما أُوتي براعةً في البيان أن يصف أسرار محفل العشق ذاك كما هو حقه. في

مثل محفل زليخا الـمليء بالزينة والـمُقدمات التمهيدية ماذا يُمكن للعاشق الولهان أن يقوله في مقابل معشوق رزين متزن سوى التضرع والصوت الـمُرتجف؟ إن الناطق في هذا الـمحفل الـمضطرب هو العين إن كان لها قدرة على النظر وهو القلب إن لم يكن في حالة هيجان. لقد بيَّن اللهُ تعالى حال زليخا بعبارة بليغة فقال: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾. ونحن هنا نُميط اللثام عن الحوار الذي دار بينهما كما كتبه الرُّواة:

زليخا: أيها الحبيب العزيز! يا نور عيني! يا راحة قلبي! بنيت لأجلك هذه العمارة الفخمة الأنيقة.

يوسف: لقد بنى الله تعالى في الجنّة لعباده الصالحين عمارةً أكثر فخامةً وأناقةً وعظمةً. وعمارتك ستنهدم أما عمارة الله فلا يتطرّق إليها الهدم.

زليخا: عزيزي يوسف، أرجوك استجب لطلبي واجعل نفسك لحظةً ملكًا لي.

يوسف: أخشى أن يخسف الله بي الأرض ويجعلها تبتلعني أنا وهذه العمارة.

زليخا: عزيزي يوسف، ما أجمل رائحتك! عطِّر روحي.

يوسف: ليتكِ تأتين على فراشي بعد ثلاثة أيام من موتي عندئذ لوليت فرارًا من رائحتي الكريهة.

زليخا: عزيزي يوسف، ما أجمل عينيك!.

يوسف: عيناي هاتان بعد ثلاثة أيام من وضع جسمي في القبر ستتحولان إلى ماء نتن يسيل على خدودي التي ذَبُلت وشحُبت وذهب نورها.

زليخا: عزيزي يوسف، ما أجمل شعرك الأسود والبراق.

يوسف: أول ما أفقده في القبر ويتساقط على التراب شعري هذا ذاته.

زليخا: عزيزي يوسف، ما أجمل صورتك البهية.

يوسف: الله الذي وهبني هذه الصورة أفضل وأجمل.

زليخا: عزيزي يوسف، ما أجمل قامتك الرشيقة.

يوسف: الله الكبير هو الذي أعطاني هذه القامة.

زليخا: يا عزيز قلبي، لمَ أنت بارد القلب قسيّ الفؤاد إلى هذه الدرجة، لماذا أنت غير مكترث في مقابل حُرقتي وملاطفتي لك.

يوسف: لأني أطلب رضا الله.

زليخا: يوسف أيها العزيز، إني مستعدةٌ أن أُنفق جميع إمائي وكنوزي في سبيل الله كي ترضى عني.

يوسف: ربِّي لا يقبل الرشوة.

زليخا: سمعت أن الله يقبل القليل ويُثيب عليه الثواب الجزيل.

يوسف: إنما يتقبل الله من المتقين ومن عباده الصالحين لا من غيرهم.

زليخا: إن كنت تُريد أنا مستعدة أن أُسلم وأن أتخلى عن ديني.

يوسف: هذا الموضوع بإرادة الله ومشيئته ولك حرية الخيار.

اختصر القرآن الكريم كلمات الحُبّ التي نطقت بها زليخا بعبارة مختصرة تتضمن دفترًا من المعاني وهي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، لكن يوسف عليه السلام أجاب على عبارة العشق هذه بثلاث جمل تُشكِّل إجابةً كاملة وعُذرًا موجهًا:

١- جملة ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: في هذه الجملة وزن يوسف عمل زليخا بميزان الله ولجأ إلى الله وأراد أن يقول: إن هذا العمل مُخالف لرضا الله. الرجل والمرأة الأجنبيان ليسا حرين في اللذات الجنسية. خاصةً المرأة التي لديها زوج. ثانيًا: أنا وأنتِ لسنا على دين واحد. ثالثًا: أنت يا زليخا مستغرقة في أحاسيسك الشهوانية وأنا غارق في محبَّة الله وطاعته. أنت في أسفل درجة الشهوة وأنا في أعلى درجات العبودية وهذا العمل الذي تُريدينه لا يُمكن أن يقع.

٢- جملة ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ لما كانت زليخا غير مؤمنة بالتوحيد وعقائد الدين قال يوسف لها: عليك أن تحفظي حقّ زوجك وأنا عليّ أن أحفظ حقّ إكرامه لي وإحسانه إليَّ وأن لا أكون ناكرًا لجميله. إني ربيب نعمته وعليَّ أن أكون شاكرًا له لا خائنًا. حتى الحيوان يكون وفيًا

لمن أنعم عليه.

٣- جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومعناها واضح.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤].

الفوائد: معنى جملة ﴿هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أن زليخا قصدت أمرًا من يوسف عليه السلام، لكن مُتعلق هذا القصد لم يُذكر، وكذلك جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي قصد يوسف أن يفعل شيئًا تجاهها، لكن الآية لم تُبيِّن بأي شيء همَّ؟ لكن سياق العبارة يُبيّن أن قصد يوسف لم يكن تحقيق الشهوة لأن الآية ذكرت صراحةً ردَّ يوسف لاقتراح زليخا، وزليخا أيضًا كانت قد استخدمت كل ما لديها من الخطط لأجل وصال يوسف والنجاح في مسعاها من بناء العمارة وما وضعته فيها من رسومات فاتنة ووسائل لإراحة بال يوسف وإزالة أسباب قلقه لكنها لم ترَ في مقابل كل هذه المساعي سوى البرودة والإعراض مِنْ قِبَل يوسف عليه السلام.

لقد أنقذ يوسف عليه السلام نفسه من تلك الهاوية الخطرة بفضل تفكيره السامي وقدرته الاستثنائية وبدلاً من أن يفقد نفسه وقلبه ويستسلم للهوى أظهر أعذارًا موجهةً. لقد كان يوسف مَظْهَرًا مُعجزًا في تاريخ العِفَّة والرجولة والشهامة. لقد أبدى من نفسه شجاعةً تفوق شجاعة أبطال العالم في الحروب الدموية إلى الحدِّ الذي أخذ ينصح زليخا. وكما أن تغنُّج ودلال وفتنة زليخا لم تؤثر في يوسف كذلك نُصح يوسف لم يؤثر في زليخا.

في ميدان الصراع هذا وقعت حرب مهيبة رهيبة رُغم الخلوة. في تلك العمارة التي بُنيت بقوة العشق والتي كان الجمال يفيض من بابها وجدرانها قطع صوتُ زليخا الحزين الفاجع من جهة وصوتُ منطق يوسف عليه السلام وبرهانه من الجهة الأخرى، الصمتَ المُخيِّمَ على تلك العمارة.

في ذلك الجو الهادئ كان هناك جيشان يتصارعان: في إحدى الجبهتين: وقفت أمواج العشق الصاخبة، وفي الجبهة المُقابلة: اصطفَّت جنود العِفَّة والعصمة وقوة الرجولة والشهامة والعبودية لِلَّهِ.

لقد ضاق الـميدان على زليخا فخصمها لن يستسلم لها طواعيةً وهذا معناه أنها قد تحترق بنار العشق على الدوام دون أن تصل يدها إلى يوسف، وفي الواقع لقد هُزِمَت في تلك الـمعركة. فأرادت أن تنتقم وتُعوِّض هزيمتها وتقضي على معشوقها قاسي القلب وتُخلِّص روحها منه. وباختصار كان أمامها إما أن تقتل يوسف عليه السلام أو تقوم بعمل فيه فضيحته أو تتوسل بالضرب أو بمكر آخر.

ولما رأى يوسف الطاهر أن خصمه هُزم أحسَّ باحتمال هجومه وخطر انقلابه ضده. فكَّر أن مُقاومة هذا الهجوم قد تؤدِّي إلى فضيحة وخطر آخر، وأدركَ، بفضل ما ألهمه الله من برهان، أن عليه أن يفرَّ من ميدان الـمعركة. برهان الله كان الإرشاد الإلهي الذي أنقذه من الخطر.

كتب بعضهم: إن يوسف همَّ بارتكاب ما يُلوِّث عِفَّته فرأى زليخا قد وضعت ثوبًا على صنمها فقال لها: ما هذا؟ قالت: أستحي أن يرانا. فقال لها يوسف: أتستحين ممن لا يسمع ولا يُبصر ولا يفقه، ولا أستحي أنا من الله الحاضر الناظر؟ ولكن في رأينا لا يصح هذا الأمر لأن عبارة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ في لغة العرب معناها القصد السيء وهو الضرب ومقاومة الهجوم. وكذلك عبارة ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾. فإذن لم يكن سعي يوسف في تلبية الشهوة لأن زليخا سعت إلى إشباع شهوتها ولم تصل إلى نتيجة فلم يبقَ لكلمة ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ من معنى سوى الانتقام لهزيمتها والهجوم على يوسف لقتله أو ضربه. وقد كتبوا في التفاسير أمورًا تُخالف تقوى يوسف ولا تتماشى مع ثناء الله عليه كما أنها تُخالف ظاهر القرآن.

بناءً على ما تقدم فالـمراد من عبارة ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ هو أن زليخا بعد أن يئست من وصاله تبدل عشقها إلى حقد وعداوة شديدة وأرادت أن تقتل يوسف كي تُخلِّص نفسها من عذاب عشقه. ولذلك فلم يكن هذا الهَمُّ همًّا بالفجور والعمل الـمُخالف للعِفَّة، ولذا جاءت عبارة ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فالـمقصود من السوء القتل والضرب والـمقصود من الفحشاء الفجور والتهتك.

ولو لم يكن الـمقصود من ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ إرادتها القتل والعناد لكان معنى السوء والفحشاء

واحدًا وهذا يُخالف العطف لأن ظاهر العطف يدل على التغاير [لأن الشيء لا يُعطف على نفسه]. ولذلك يجب أن نقول: إن يوسف عليه السلام لم يهمَّ أبدًا بالزنا، كل ما في الأمر أنه هَمَّ فقط بالقيام بهجوم مضاد والدفاع عن نفسه، لكنه سُرعان ما انصرف عن هذا العزم واختار الفرار عندما رأى برهان الربِّ.

ولهذا السبب قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ولو كان قد هَمَّ بمُضاجعتها لخرج عن كونه من عباد الله الـمُخْلَصِين.

والبُرهان هنا هو الوحي الجديد.

وإذا شهد الله وشهدت زليخا والعزيز ونساء مصر ويوسف بطهارة يوسف وعصمته فلا يحق لأي مُفسِّر أن يُفسِّر جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ على معنى الشهوة:

أما شهادة يوسف عليه السلام فهي قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

أما نساء مصر فشهادتهنَّ قولهنَّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

وأما شهادة عزيز مصر فهي قوله لزليخا: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

وأما شهادة زليخا فهي قولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وأما شهادة الله فهي قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقوله أيضًا: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، إضافةً إلى أن الله اعتبره من الـمُحسنين في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما اعتبره من الـمُتقين في قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وأما الشيطان فقد قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ – ٨٣].

من هذا يتبيّن أن هؤلاء الـمفسِّرين سبقوا الشيطان في الشرّ؛ لأن الشيطان شهد ليوسف

بالبراءة وهم لم يشهدوا له بذلك! ولذا قال الخوارزمي:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يُحسنها بعدي

ولا يخفى أن جملة ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ تدل على أن حضرة يوسف عليه السلام كان صاحب غضب وسائرِ الصفات البشرية وكانت لديه القدرة على الضرب والشتم ولكن وحي الله منعه من ذلك. أضف إلى ذلك أن جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لا معنى لها إلا إذا قُدِّر مُضافٌ محذوفٌ، فقال بعضهم: هَمَّ بزناها! ولكن قولهم هذا لا دليل عليه، أما نحن فلدينا الدليل على أن الـمُضاف الـمحذوف الـمُقدَّر هو هَمَّ بزجرها أو هَمَّ بضربها ومنعها لولا أن رأى بُرهان ربه. أي أن يوسف أراد دفعها وضربها فمنعه بُرهان ربه من ذلك وقال له: ليس هناك مصلحة في هذا الأمر لأنه سيؤدي إلى قتل يوسف عليه السلام أو تمزيق قميصه من الأمام، ولم تكن في ذلك مصلحةٌ، وقد ألهمه الله أن يفرَّ كي يُمزَّقَ قميصُهُ من الخلف ويصير ذلك دليلاً على أنها هي الخائنة، ولو قبلنا على سبيل الفرض أن معنى عبارة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ بجماعها، لكان هذا أيضًا دليلاً على عِفَّة يوسف وطهارته، لأنه من الـمعلوم أن يوسف كان لديه الـميل البشري الطبيعي إلا أن برهان ربه ونهي الله له منعاه من الاستجابة للغريزة والوقوع في الإثم والـمعصية فكبح ميل نفسه اِتِّباعًا لأمر الدين.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٥-٢٩].

الفوائد: مهما حاولت زليخا في ذلك الـمحفل السري الـمُعَدّ للفجور والشهوة أن تصطاد

يوسف، لم تستطع. كانت الأفكار تُراودها وتهجم على ذهنها حتى أصبحت لا تدري ما تفعل. لقد رفض يوسف ﷺ جميع اقتراحاتها، ولما لم يستجب لما أرادته منه اشتعلت نار الحقد عليه في قلبها والرغبة في الانتقام منه وأرادت أن تحطِّمه وتجعله شخصًا مسكينًا أو تُبيده وتقضي عليه.

إذا اقترن العشق باليأس ولَّد في النفس الرغبة في الانتقام والحقد الشديد. العشق ينتج عن شدة هوى النفس، وهو مُخالف للعقل، فأعمال العاشق ليست عقلانية. بعكس العِفَّة التي هي من جنود العقل وعملها مُطابق لما يأمر به. ولذلك لما فشلت زليخا في عشقها ليوسف ولم تُحقق مُرادها قررت الهجوم عليه. ورأى يوسف ﷺ بإلهام من الله وبأمر العقل أن الهجوم المقابل ليس عملاً جيدًا وسيؤدي إلى الفضيحة لذا هرب نحو الباب.

تقول الآية: تسابق كل منهما (زليخا ويوسف) نحو الباب ومن البديهي أن قصد يوسف من الفرار هو الهروب من محفل العشق الجنوني ذاك ووادي الهلاك المهيب. أما زليخا فلماذا ركضت نحو الباب؟ من البديهي أنه لما علم يوسف بنيّة زليخا في إيذائه هرب من أمامها فلحقت زليخا به إما لتمنعه من الهروب، أو لتخرج من الباب قبله وتصرخ مُتَّهِمَةً إيَّاهُ بالتعرّض لها وبذلك تنتقم منه. وهكذا أخذت زليخا ياقة يوسف من الخلف وشدّته كي تسبقه نحو الباب أو تجذبه نحو الداخل وتؤذيه أو تخرج قبله إلى الخارج وتُثير الجلبة والضوضاء ضده.

التهمة الباطلة:

زليخا التي كانت قبل دقائق تُقدّم نفسها أمام قدمي يوسف أصبحت الآن تنظر إليه بعينين ملْؤهما الحقد والبغضاء. وخططت للافتراء عليه واتهامه، أي اتهامه بانعدام الشرف: يوسف شابٌّ في سن هيجان الشهوة وزليخا سيدة جميلة جدًا وهذا الشاب مال إلى سيِّدته! مثل هذه التهمة يُصدّقها الناس عادةً بسرعة. لم يكن عند يوسف - الغريب والعبد المملوك- عشيرةٌ تُدافع عنه ولا استقلالٌ، كل ما في الأمر أنه أصبح محطّ الاهتمام به لأمانته واستقامته. الآن مثل هذه التهمة ستُحطّمه كليًّا وتقضي عليه لأنها تعني أنه خان وليَّ نعمته في عِرضه وهو إثم لا يقبل العفو ولا يمكن التغاضي عنه على الإطلاق.

عندما وصل يوسف وزليخا بذلك الوضع المُضطرب وغير المُناسب إلى الباب وهما يلهثان

وقعت فَجأةً صدفةٌ عجيبةٌ هي وصول عزيز مصر إلى الباب، فإذا به يرى زليخا ويوسف أمامه. قالت زليخا على الفور: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. لما رأى عزيز مصر هذا المنظر وسمع إقرار زليخا جالت في ذهنه آلاف الأفكار الباطلة، فالزوج له كل الحقّ بأن يُحقق في الموضوع ويُعاقب يوسف أشدّ العقاب [إن ثبتت صحة ما قالته زليخا عنه].

ويُمكن أن نقول: إن زليخا صممت على خطة الاتهام هذه لترويض يوسف. لأن زليخا كانت مُسيطرة بشكل كامل على زوجها عزيز مصر. ومثل هؤلاء الرؤساء غالبًا ما تتسلط عليهم نساؤهم. وكانت زليخا تُريد أن تتوسط ليوسف عندما يُقرر العزيز إيقاع عقوبة بالغة به ويُشاور زليخا في ذلك، بشرط أن يستجيب يوسف لها ويُلبِّي رغبتها خاصةً أن الأمر كان في زمان ومكان لم تكن فيه العلاقة بأجنبيّ على تلك الدرجة من القُبح، كشأن بعض رجال زماننا الذين يُطيعون زوجاتهم الجميلات.

تبرئة يوسف:

صادف يوسف وزليخا عزيز مصر عند الباب وهما شاحبا الوجه يلهثان وقميص يوسف مُمزَّق.

ألم تكن زليخا قد لاحظت جوانب الأمر من قبل؟ ألم تضع حارسًا عند الباب؟ ألم تقع تلك المُغازلة ومُراودة زليخا ليوسف في منزل خاص لم يكن محلاً لتردُّد العزيز؟ كيف حصلت تلك الصدفة العجيبة؟

لقد ساء ظنُّ العزيز بشكل كامل بهذا الوضع الذي رآه وانتابه القلق. سارعت زليخا بكل وقاحة وفقدان للحياء بالمُبادرة إلى اتهام يوسف بالجُرم.

لم يشأ يوسف بما أُوتيه من حياء فطري أن يفضح زليخا فلزم الصمت. لكن زليخا طلبت من زوجها أن يسجن يوسف أو يُعذبه عذابًا شديدًا. هنا اضطر يوسف للدفاع عن نفسه وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ ليس الذنب ذنبي، زليخا هي التي دعتني إلى هذا الأمر.

لم يكن العزيز، الذي خبر يوسف مدةً طويلةً وعرف نقاء فِطرته وسُموَّ نظرته ومقامه وصحة

عمله، ليُسيء الظنَّ بيوسف، لكن كان عليه أن يعمل طبقًا لموازين الـمحاكمة وقواعدها.

هنا كان على العزيز أن يبدأ بتحقيقاته لكن يوسف لم يكن لديه شاهد أثناء وقوع تلك الحادثة التي تمَّت سرًّا، كما لم يكن لديه شاهد الآن أمام العزيز فلم يكن له سوى الله مُعينًا. هنا وصل شاهد من الغيب ليشهد على صدق يوسف عليه السلام. أدلى أحد أقرباء زليخا بكلام مؤثر وحدد آثار الجُرم.

من كان ذلك الشاهد ومن أين جاء؟ قال بعضهم: كان ذلك معجزةً ليوسف حيث شهد له طفل في الـمهد عمره ثلاثة أشهر فقط، هو ابن أخت زليخا. بناءً على ذلك ربما كان الطفل موجودًا في غرفة زليخا السرية.

وقال آخرون: إن هذا الشاهد كان رجلاً جليل القدر حكيمًا جاء من خارج الـمنزل برفقة العزيز، وهذا القول يبدو أكثر صحة لأن شهادة طفل ذي ثلاثة أشهر أمرٌ يحتاج إلى دليل قطعي ولو صحّ ذلك لما كان الطفل بحاجة لذكر أدلة وقرائن حول الـمُذنب الحقيقيّ.

كانت شهادة ذلك الرجل بمثابة قاعدة في كشف الحقيقة أُعطيت للعزيز، إذ إن للعلامات والدلائل أهمية أساسية وبالغة في كشف حقيقة الجُرم في الـمحاكمات. هنا كان الدليل أنه لو كان قميص يوسف قد مُزِّق من الأمام في تلك الغرفة السرية فإن هذا يعني أن يوسف كان مُهاجمًا وزليخا كانت مُدافعةً. أما لو كانت هي الـمُهاجمة ويوسف كان هاربًا منها فإن قميص يوسف سيكون مُمزّقًا من الخلف، وكان ذلك دليلاً مُحكمًا للفصل في هذه الـمحاكمة. هذا على الرُّغم من أن قرائن أخرى كانت موجودة هنا أيضا، ومنها:

١- كان يوسف حسب الظاهر عبدًا مملوكًا، وليس للعبد مثل هذا السلطان.

٢- عَدْوُ يوسف عليه السلام وركْضُهُ السريع للخروج من الـمنزل ولهثه.

٣- زينة زليخا وعدم تزيُّن يوسف.

٤- بناء عمارة الخلوة من قبل زليخا.

٥- كون زوج زليخا عِنّينًا.

٦- جمال يوسف الخارق للعادة.

٧- عدم تصريح زليخا بالجُرم.

وتدل عبارة: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ في جملة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أن الشاهد كان من أقرباء زليخا وفردًا من أفراد أسرتها، ولكنه رُغم ذلك شهد ضدها، وهذا بحدّ ذاته دليلٌ على صدق يوسف عليه السلام.

هنا فهم العزيز حقيقة الأمر وأيقن أن يوسف بريء وأعلن براءته على الفور. واعتبر زليخا مُجرمةً. إلا أنه لم يُكافئ يوسف عليه السلام [على نزاهته وأمانته]، بل اكتفى بتوصيته بالإعراض عن هذا الأمر وتجاهله وتوصية زليخا بالتوبة.

بناءً على ذلك، هُزمت زليخا في تلك المحاكمة وثبتت طهارة يوسف. لم تتمكن زليخا من ترويض يوسف من خلال التهديد والاتهام له. كما لم يشأ العزيز أن تقع داخل بيته مشاجرة ومشاحنة تؤدي إلى إزعاجاتٍ ومراراتٍ وقيلٍ وقال. لذلك أوصى يوسف أن يتجاهل الموضوع.

كيف لم يُفكر العزيز بحلٍّ ناجعٍ لهذا الموضوع، مثلاً أن يُخرج يوسف من المنزل ويأخذه إلى منزل آخر؟ كيف لم يُفكر أن تركه ليوسف وزليخا في مكان واحد وسط نار الشهوة المُحرقة فيه مفاسد كثيرة؟

يبدو أنه في مصر القديمة لم يكن الناس يُولون أهميةً كثيرةً لمسألة الشرف والناموس، وأن النساء كنَّ متسلطات بشكل كامل على الرجال.

كان حضرة يوسف عليه السلام يستطيع بعد تبرئته أن يُفصح عن حقيقة زليخا وينشر الأخبار ضدّ تلك السيدة الفاجرة ويذهب بماء وجهها وينتقم منها، ولا شك أنه في هذه الحالة كانت السيدة ستنتقم منه وتُناصبه العداء. وعندئذ ستسوء الأوضاع في حياة صاحب ذلك القصر. لكن لما قال العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ انصرف يوسف عن الثأر لنفسه وعادت الأوضاع داخل القصر إلى حالتها الطبيعية.

لكن السيِّدة الـمُتحللة الجموحة إلى الشهوة -كما بيّنت الحوادث اللاحقة- نوت التآمر

والتهديد حتى تصل إلى رغبتها. لكنها في نهاية الأمر لم تنجح في ذلك.

﴿۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: ٣٠-٣١].

الفوائد: انتشرت أخبار جمال يوسف وحُبِّ زليخا له بين نساء مصر.

إن للحُبِّ -رُغم كونه أمرًا قلبيًا سرّيًا- نارًا حارقةً تخرُجُ شُعلتها خارج الأستار مهما حاول العاشق التكتّمَ عليه وإخفاءَه. لما كشف زوج زليخا وقريبها من خلال تمزّق قميص يوسف من الخلف حقيقةَ القضية، انتشر هذا السر الداخليّ شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى مسامع نساء مصر. وطبيعة الـمرأة هي البحث والتفتيش في مثل هذه القضايا. خاصةً نساء الرؤساء الذين يملكون أموالاً طائلةً وليس لهم عملٌ سوى الزينة والتسلية والبسط والتمتع وذِكر جمال هذا وعشق ذاك.

كانت نساء الأعيان يحسدن زليخا لأنها كانت ذات جمال وقوَّة، فجاءتهنَّ الفرصة للطعن بها والسخرية منها، فأصبح ذِكرُ هذه القصة الجديدة والـمُثيرة حول الشاب العِبرانيّ الجميل، حديثَ مجالسهنَّ.

هكذا أصبحت زليخا الـمسكينة التي كانت لا تزال تتألم من نار العشق، هدفًا للوم وذمّ نساء مصر: ما أفجرها من امرأة! عشقت عبدها وخادمها. عندها زوج على هذا القدر من الحُسن والأهمية فلماذا عشقت شابًّا غريبًا؟! إذن هي امرأة مهووسة وضالة. وانتشر حولها كثيرٌ من أمثال هذه الأقاويل وتناقلته الأفواه.

في البداية أصبحت هذه الأقوال حديث مجالس عددٍ من خواص النساء مثل امرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة الساقي وامرأة صاحب السجن، ثم شيئًا فشيئًا اطّلع بقية النساء على القصة.

في الردّ على هذه الأحاديث قامت زليخا بدعوة أربعين من نساء مصر.

ردُّ زليخا على نساء مصر:

قرَّرت زليخا أن تُفهم نساء مصر أنها على حقّ في عشقها ليوسف، وأنها لا تخاف في ذلك لومَ اللائمين، ولو كنتنَّ مكاني لفعلتُنَّ أسوأ مما فعلته ولصرتُنَّ أشقى حالاً منِّي:

رُغم أن اللَّوم والتوبيخ مُرَّان ويُؤذيان نفس الإنسان ويُعذِّبانه لكن في مقابل العشق فإن لوم العُذَّال لذيذٌ رُغم مرارته. قال الشاعر:

أجد الملامة في هواكَ لذيذةً ... حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْني اللُّوَمُ

قرَّرت زليخا أن تردَّ على نساء مصر ولومهنَّ لها، ولكن بأي لسان كانت تستطيع أن تُبرز عذرًا مُوَجَّهًا أمامهنَّ لصنيعها؟ لقد أرادت القول: لَكُنَّ الحقّ في لومي، لأنكنَّ لم ترينَ وجه يوسف الجميل بعد. بدا لزليخا أن أفضل ردّ على أولئك النسوة أن تدعو جماعةً منهنَّ إلى منزلها وتأمرَ يوسف بالخروج عليهنَّ فجأةً لتُسْكِتَهُنَّ وتُفحِمَهُنَّ، لذلك قامت -في غياب العزيز- بدعوة أربعين امرأةً من أعيان نساء مصر إلى منزلها، ووضعت أمامهنَّ مائدةً مَلَكيةً رتبت فيها أصنافًا متنوعةً من الفاكهة ووضعت لكل سيِّدة متكئًا.

بعد ذلك حضَرَت النساء وكنَّ يرغبنَ بشدّة برؤية ذلك الشاب الجميل الذي سمعنَ أوصافه، لعلَّهنَّ يُمِلنَ قلبه نحوهنّ! كل واحدة منهن كانت تُفكر في ذهنها لعلّها تتمكن من اصطياد يوسف، لذلك جئنَ بكامل زينتهنّ واستعدينَ لُمشاهدة وجه يوسف.

أعطت زليخا كل واحدة منهنَّ سكينًا ليستخدمنها في تناول الفاكهة. ولما أخذت النسوة السكاكين بأيديهنّ والفاكهة في اليد الأخرى خرج يوسف عليهنَّ وأشرق جماله الأخاذ على ذلك المجلس فما أن وقعت أنظارهنَّ عليه حتى طارت قلوبهنَّ من صدورهنّ ولشدّة انجذابهنّ نحوة غِبنَ عن أنفسهنّ وقطعنّ أيديهنَّ بالسكاكين بدلاً من الفاكهة وأكبرنَ جمال يوسف العجيب وأُصبنَ بحالة من الوجد والشغف، وجاءهن الحيضُ. وقلنَ وأيديهنَّ وحُجورهنَّ داميةٌ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

(بيتان من الشعر بالفارسية):

لو رأيت يوسف واستطعت التمييز بين يدك والكبَّاد حــقَّ لــك أن تلــوم زليخا
أنت بهذا الجمال والحُسن لو خرجت من البــاب لقال أرني من كان قد قال لن تراني

ذكر المُفَسِّرون في تفسير: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أن نساء مصر جاءهنَّ الحيض عندما رأينَ يوسف عليه السلام. نعم! إن مُشاهدة جمال يوسف مُحركة للشهوة وَمِنْ ثَمَّ يُمكن أن يحصل هذا الأمر حيث قد توفر له نشاط جديد. قيل: إن حضرة الإمام الجواد عندما كان في ليلة عرسه وورد إلى حِجْلَة عروسه أم الفضل، جاءها الحيض من كثرة السعادة والنشاط.

وعلى كل حال لما رجعت النسوة المصريات إلى وعيهنَّ، ووجدنَ أيديهنَّ مجروحات وقلوبهنَّ قد سُلبت من صدورهنَّ ورأينَ ألبستهنَّ الجميلة المُذهَّبة قد تلوثت بالدم أقمنَ الدنيا وأقعدنها.

نتيجة مجلس زليخا وخطتها:

كانت مجالس نسوة مصر تتألف جميعها من بنات الأُمراء والطبقة الأولى وزوجات الرؤساء. لذلك لم يكن بالإمكان إسدال الستار على ما حصل لهنَّ. كانت النساء من أقربائهنَّ وصديقاتهنَّ يسألنَ لماذا جرحتُنَّ أيديَكنّ؟ ما هذا الوضع لرؤوسكنَّ وألبستكنّ؟ ثارت ضوضاء وضجة في مدينة مصر. كان هدف زليخا من دعوتها النِّسْوة إلى ذلك المجلس عدة أمور:

١- إزالة التهمة عن نفسها وبيان أنها مظلومة وأن الحقّ معها.

٢- إفساد يوسف وتعليمه التغزُّل والحُبّ وإزالة حاجز الحياء من نفسه، أي أنها تصورت أنها بهذا العمل ستُزيل من نفسه الحياء والعِفَّة.

إن الحياء والعِفَّة غريزة وفِطرة زرعها الله في كل إنسان كي يَحْفَظَ بفضلها نفسَه من الفساد واتِّباع الشهوات. وأعظم وسيلة للقضاء على حياء الأفراد والذهاب بعِفَّتهم جعلهم يعيشون في محيط فاسد ويُعاشرون الفاسدين.

إن ذلك الحدّ الفاصل الطبيعي بين الرجل والمرأة ينهار عند إقامة مجالس الاختلاط

والفساد. إن قلة الحياء والفساد سببٌ للتلوُّث بالفواحش، ومجالس الاختلاط والرقص الـمزدوج تُزيل ذلك السدّ الطبيعي وحاجز الحياء بين الرجل والـمرأة.

إن مثل تلك الـمجالس تُخرج الإنسان من قلعة الأمن ومن هناء العِفَّة والحياء، وتُدخله في ميادين الفُجور والخلاعة والفساد. لا يجوز للإنسان الذي أعطاه الله ستار الحياء والعِفَّة وخلق له أنواعًا من الألبسة يستر فيها جسمه أن يخرج في وسط الشارع عُريانًا مُظهرًا لمفاتنه. لا يجوز للشباب والشابات أن يفقدوا حياءهم وعِفَّتهم على إثر مجالس الاختلاط وبالنتيجة أن يُبتلوا بالفساد والتحلُّل الخُلقي.

لقد تصورت زليخا التي أزالت في محفلها السري كل الـموانع وألقت بنفسها دون حياء في حضن يوسف وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ولكنها لم تجد من يوسف إلا السكوت والنفور والحياء والعِفَّة، تصورت أن يوسف شابٌّ مأخوذٌ بالحياء لأنه لم يُشاهد مجالس الطرب والعشق ولم يذق طعم السُّكر، لذلك كان الحياء والعِفَّة مُستوليَين عليه. فأرادت بمثل هذه الـمجالس النسائية أن تُعوِّد يوسف شيئًا فشيئًا على هذه الأمور وتُوقعه في الفخّ وتدفعه إلى ترك العفاف ومُمارسة الفُجور.

لهذا دعت زليخا أجمل نساء مصر وأقامت لهنَّ محفل البسط والطرب وجعلت يوسف يُشارك فيه.

أرادت زليخا في البداية أن تتمتَّع وحدها بجمال يوسف وكانت تبخل حتى على الشمس والقمر أن يحتضنا جمال يوسف الآسر. لكنها رأت أنه لا يُمكنها أن تستفيد من هذه النعمة وحدها وأن لا قدرة لساعدها على قطف هذه الثمرة من هذه الشجرة وحدها، لذا فكَّرت أن تُشارك جماعةً من النسوة معها في هذا الأمر، ومذهب الاشتراكية إنما نشأ من هذا الـمصدر! الأشخاص الطامعون بمتاع الدُّنْيَا والحريصون عليها ولكنهم لا يملكون القوَّة للوصول إليها بشكل خاص يسعون من خلال التعاون مع عامة الناس إلى الوصول إلى شهواتهم وتحقيق رغباتهم. لكن زليخا لم تستفد من خطتها هذه واستمرّ يوسف على عفافه وطهارته.

٣- يتهديد يوسف بأنها ستُفهم العزيز وسائر الرؤساء أن وجود يوسف سببٌ للفتنة والفساد والشوشرة. وستقوم باتهامه ورميه في السجن. والخلاصة أنها ستسعى إلى وصال يوسف من خلال أذيَّته وتهديده بالإضرار به. كما يُسْتَفَادُ مِنْ الآيَة التالية:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ٣٢-٣٥].

الفوائد: لما غابت نسوة مصر عن أنفسهنَّ أمام جمال يوسف، وأُسِرت قلوبُهُنَّ وقطَّعنَ أيديهنَّ، سارعت زليخا على الفور إلى الردِّ على لومهنَّ السابق بقولها: هذا هو الملاك الجميل الذي لُمْتُنَّني فيه. لذلك سحب جميع النسوة لومَهُنَّ وأعطوها الحقّ إلى حدّ جعلها تُفشي لهم سرَّ قلبها وتقول بكل صراحة ووضوح: لقد دعوتُهُ إلى نفسي لكنّه استعفَّ، ولو لم يفعل ما أدعوه إليه فسأرميه في السجن وهو ذليل. لا شك أنها قالت هذا الكلام للنسوة كي يسمعه يوسف أيضًا فيخاف ويرضخ أمامها.

ما هو تفسير اعتراف زليخا بعملها القبيح أمام كل تلك النسوة المصريات؟ لماذا لم يمنع عزيز مصر زوجته وتركها حرّةً إلى ذلك الحدّ؟ إن هذا يُبيّن أن رؤساء ذلك الزمن لم يكونوا مُهتمين كثيرًا بعفاف نسائهم.

النسوة المصريات يُظهرنَ حُبَّهُنَّ ليوسف:

على إثر تلك الدعوة ازداد عدد المُعجبات بيوسف العاشقات له، وأحدق خطر الانزلاق إلى الرذيلة بيوسف وازدادت شدَّته. وأصبحت جميع النسوة الأعيان راغبات بوصاله.

لما صرَّحت زليخا علنًا بأنها لو لم يستجب يوسف لرغبتها ستُلقي به في السجن، لم تعترض النسوة المصريات على كلام زليخا ولسان حالهنَّ يقول: إن كل من يرى يوسف يفقد طاقته

وصبره ويفقد السيطرة على زمام نفسه.

بدأت النسوة المصريات - إما بالتعاون مع زليخا أو سرًّا من وراء ظهرها- بكتابة رسائل الحُبِّ والغرام ليوسف وبإظهار رغبتهنَّ بلقائه. وكلٌّ منهنَّ كتبت له رسالةً سريةً وأعربت عن أملها بوصاله. طلبت زليخا من ضيوفها أن تلتقي كلُّ واحدةٍ منهنَّ بيوسف على حدة لتطلب منه أن يُلبِّي حاجة زليخا. لكن كلاً من أولئك النسوة لما التقينَ بيوسف تكلَّمنَ عن رغبتهنَّ أنفسهنّ، ودعونه إلى أنفسهنّ! وهكذا وقع يوسف وَسَطَ عاصفة هوجاء من شهوة أولئك النسوة المصريات ورأى أمامه هُوَّةً خطيرةً يُخشى من التردِّي فيها، لذلك لجأ إلى الله من كل قلبه وتضرع إليه وسأله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

هنا ظهرت عظمة مقام حضرة يوسف عليه السلام وقوته العقلية، حيث بقي صامدًا ولم تتزلزل إرادته العقلية ولم يُصب استعفافه بأي وهن.

العشق قوة شهوانية نفسية وكما شرحت في كتابي «**عشق و عاشقى**» [أي العشق والهيام]، العشق: شدة ميل النفس. وقال الحكماء: **العشق من فعل النفس**. وقال أفلاطون: **العشق قوَّةٌ غريزيةٌ مُتوَّلدةٌ من وساوس الطبع وأشباح التخيُّل**.

وقال عليٌّ عليه السلام في الخطبة ١٠٨ من نهج البلاغة: «**مَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعْشَى بَصَرَهُ، وأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، ويَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ**».

من هذه البيانات يتبيّن أن العشق ضدّ العقل ويتنافى معه. ولذلك فإن الشعراء أوقعوا حربًا بين العشق والعقل وجعلوا أحدهما ضدّ الآخر. مثلاً قال [الشاعر الصوفي] جلال الدين الرُّوميّ في ديوانه المعروف بـ «**المثنوي**»:

جـاء العشـق فتشـرّد عقلـه جاء الصبح فصارت الشمعة باهتة

إذا دخل العشق إليه من باب القلب رمى العقلُ برحاله خارجَه

إن تصرفات العاشق غير عقلانية. فالعاشق يُريد أن يفني نفسه ويحرقها وأن يُقدّم كل ما لديه في سبيل المعشوق. لكن العقل لا يُجيز ذلك. وكل قوة من قوى الإنسان إن لم تُطع عقله جرَّته

إلى الفساد والهلاك.

وعلى كل حال، لقد أُعجب جميع العقلاء بعظمة نفس يوسف عليه السلام ورأوا فيه معجزةً ربانيَّةً. حتى أنه يُمكننا أن نعتبر موقفه هذا دليلاً على نُبُوَّتِه. وقال بعضهم: إن الثمرة التي جناها يوسف من عِفَّته وامتناعه عن الحرام كانت إكرام الله له بالعلم بتأويل الأحاديث. لكن هذا الكلام ليس صحيحًا في نظرنا، لأننا نقول: لما اكتمل عقل يوسف أصبح قادرًا على حلّ المشاكل أي الأحاديث وأصبح قادرًا على معرفة ما ستؤول إليه المشكلات في عالم الخارج والتنبُّؤ بكيفيتها.

وليس صحيحًا ما ذكروه من أن تأويل الأحاديث معناه تفسير الأحلام لأن التفسير الصحيح للأحلام دليل على العقل الكامل، وعِفَّة يوسف عليه السلام أيضًا هي نتيجة عقله الكامل ومعرفته. إذن الكل من نتائج العقل [الكامل].

خاف يوسف أن تصيبه شرارة نار شهوة النسوة المصريات والسيدات الأعيان، لأنه عرف أَنَّهُنَّ سيُدَمِّرْنَ أساس سعادته، فاشتكى إلى الله وفضَّل السجن المُظلم على البسط والتمتع بالشهوات [المُحرَّمة]. وأراد الله حفظه، ولذلك نبَّهَ عزيزَ مصر وبعضَ المسؤولين إلى أن نساءهم وبناتهم وقعنَ في حُبِّ يوسف فرأوا أنه لا بُدّ من إخماد نار الفتنة هذه، لذا صمَّموا على اعتقال يوسف ووضعه في السجن مدَّةً من الزمن.

لقد استعفف يوسف ووقع في السجن مؤقَّتًا. ولكنه لو اِتَّبَع شهوته لكان قد أمضى بضعة أيام في الملذَّات والمُتَع والعيْشِ والبَسط كسائر أهل الملذَّات والعيش والعِشرة. ولو فرضنا أنه كان شابًا مُتَّبِعًا لأهوائه وأنه منذ أول يوم دخل فيه منزلَ عزيز مصر نظر إلى سيدته زليخا نظرة شهوة، فإن زليخا كانت ستفهم من أول الأمر أن يوسف يُحبّها، فكانت ستتدلَّلُ وتُظهرُ النفور منه، وتأمر العزيز بطرده. وإذا أبدت زليخا - بعد بقاء يوسف مدَّةً من الزمن في منزلها - حُبَّها ليوسف واستسلم هو لشهوتها، فإنَّ النتيجة ستكون أنه سيُمضي بضعة أيام بالعيش والعِشرة ومُمارسة الملذَّات معها، وطالما كان يتمتع بقوة الشباب، فسيكون مُجرَّد آلةٍ لإطفاء شهوة سيِّدته، لكنها كانت ستشبع منه بعد ذلك. وفي المحصِّلة النهائية سيُصبح يوسف غلامًا مفضوحًا خائنًا ذا سوابق سيئة في منزل سيدة مصرية، وما أسوأها من عاقبة في الدنيا والآخرة.

لكنه استعفف، ونتيجةً لذلك رُمِي مدةً مؤقتةً في السجن، فاستفاد من هذا السجن الـمؤقّت فوائد عدّة:

١- حُسن السمعة، ولذلك عُرف في الدُّنْيَا كلها بوصفه بطل العِفَّة والعِصمة، وكثيرون كتبوا كتبًا عن قصَّة يوسف اعتزازًا باسمه وافتخارًا. والأفضل من كل ذلك أن الله تعالى أنزل على رسوله سورةً باسم يوسف عليه السلام وجعله قدوةً لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم كما قال في سورة الأنعام: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

٢- اعتبر الحقُّ تعالى قصة يوسف ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ واعتبرها أيضًا: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣- وصل يوسف إلى الرئاسة والسلطة في مصر ذلك البلد التاريخي العظيم.

٤- أنقذ يوسف شعب مصر من خطر القحط والفناء.

٥- أنقذ أُسرته وعائلته من التعب والـمشقة والجوع والتجوُّل في الفيافي، وأدخلهم في الحضارة وأسكنهم في الـمدينة.

٦- صار فَخْرًا تاريخيًّا لبني إسرائيل ورفع رأس أُسرة يعقوب في العالـم.

٧- صار مثالاً يُحتذى به وحُجَّةً على الشباب كي لا يتحجَّجوا ويقولوا: لقد كنا في بيئة فاسدة فاضطررنا إلى الانحراف والفساد، لأنه سيُقال لهم: ألم يُبتلَ يوسف ببيئة فاسدة أيضًا فكيف استطاع أن يحفظ نفسه؟ ألم يكن بشرًا وشابًا ومع ذلك طبَّقت شُهْرَةُ عِفَّتِهِ آفاق الدُّنْيَا.

٨- لم يتعرَّض إلى التعذيب والتنكيل على يد عزيز مصر.

٩- حفظ نفسه من سخط الله ومن نار جهنم ونال درجات الصدِّيقين والأنبياء الـمُرسلين.

١٠- رزقه الله علم حلِّ الـمشكلات وتفسير الأحلام وتحقيق الوقائع.

رُغم أن ذلك الـمقدار العالي من الاستعفاف قد لا يكون في ميسور الناس العاديين ولكن من الـمؤكد أن للاستعفاف والطهارة والنقاء آثارًا عظيمةً، بعكس التحلُّل من حدود الأخلاق

واتِّباع الشهوات التي لها أسوأ النتائج.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ
ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾
[يوسف: ٣٦-٣٨].

الفوائد: لما انتشر خبر مجلس غزل وعشق النسوة المصريات إلى الخارج وفي العاصمة، عن طريق من شارك فيه ومن خلال خُدَّام القصر، ووصل إلى أسماعِ بعض رجال الدولة، بدأ الخبرُ يُناقَشُ في الأوساط السياسية وغير السياسية بوصفه أحد الأخبار المهمة في البلد. ولابد أن معارضي العزيز بل مخالفي الدولة قد استفادوا من هذا الخبر للطعن برجال الحكم وانتقادهم، وربما يكونون قد ضخّموا القصّة ونثروا عليها كثيرًا من التوابل. وخلق هذا مشكلةً عجيبةً للعزيز، وأصبحت زوجته زليخا خجلةً مفضوحةً منكوسة الرأس ولم تبقِ لنفسها وللعزيز ماء وجه واعتبارًا في المجتمع.

اضطرَّ العزيز حفاظًا على سمعته واعتباره الاجتماعي للتشاور مع عدد من المسؤولين فيما ينبغي عمله للحفاظ على سمعة الدولة ومكانتها، ولمنع تكرار مثل هذه القضايا، وبدا له ضرورة القيام بأحد الأمور الثلاثة التالية للحيلولة دون الفضيحة:

١- معاقبة زوجته المتهتّكة المسترسلة خلف شهواتها التي تسببت في إحداث كل تلك الضجة.

٢- مراقبة المجالس والأوساط الاجتماعية ومنع تداول هذا الحديث بشدَّة، لكن هذا الأمر قد يأتي بنتيجة عكسية.

٣- سجن الغلام الكنعاني.

كانت العدالة تقتضي اختيار الطريق الأول، لكن هذا الأمر لم يتم بسبب تسلط نساء رجال الدولة عليهم. لذلك بدا الطريق الثالث أسهل، ولطالما كان الظلم رائجًا في الدنيا. ولما كان لا بد من الاستجابة إلى دعاء يوسف، فقد تحقق سجنه.

ماذا كان ذنب يوسف سوى الطهارة والعفة؟!

[بيت شعر بالفارسية]:

(ليست البراءةُ ذنبًا صغيرًا في ديوان العشق

لقد ذهبَ يوسفُ إلى السجن بسبب طهارته ونقاء ثوبه)

كانت ذنوب يوسف هي التالية:

١- غريبٌ بلا معين.

٢- أنجز الأعمال الداخلية لعزيز مصر بكل استقامة ونجابة لسنوات عديدة.

٣- لم ينظر إلى سيدة القصر بعين الخيانة.

٤- لم يلبِّ أهواء ورغبات سيدة القصر .

٥- لما قالت له السيدة بصراحة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لم يخن صاحب المنزل.

٦- لما غضبت عليه السيدة رفيعة الشأن لم يشتبك معها بالضرب بل هرب.

٧- عمل بِوَصِيَّة عزيز مصر وأعرض عن ذنب زوجته الآثمة.

٨- لم يؤثِّر فيه تهديد السيدة.

٩- لم يطع الرغبات الشهوانية للنسوة المصريات.

١٠- كان صاحب علم وتقوى.

أجل. رغم كل دلائل التقوى والنجابة هذه، رأَوْا مع ذلك المصلحة في سجنه.

سُجِنَ يوسف نتيجةً للإرادة القاهرة لعزيز مصر ولضغط زليخا. وليس من المعلوم هل تمَّ عقد جلسة محاكمة له ولو ظاهريًا أم لا؟

يُستفاد من الآية أن رأيَ كافَّة الرؤساء استقر على سجن يوسف رغم أن زليخا هي التي أرادت ذلك في البداية، ولعلها كانت المحرِّك الأصلي والضاغط وراء اتِّخاذ هذا القرار.

كان الأمر بسجن حضرة يوسف ﷺ عملاً في غاية القبح. وكان السجن الذي رمي يوسف فيه محلَّ اعتقال خائني الدولة.

عندما سُجِنَ يوسفُ سجنوا معه شابين قيل إن أحدهما كان صاحب شرابِ الملكِ والآخر صاحب طعامِهِ. وقد بُرِّئَ صاحب شراب الملك بعد التحقيق بتهمته، في حين أُدين صاحب الطعام وحُكِمَ عليه بالإعدام.

حادثة سجن يوسف ﷺ

لما دعت زليخا نساء أعيان مصر، طلبت منهنَّ، بعد انتهاء مجلس البسط واللهو والشرب، قائلةً: أعِنَّني وأقنِعنَ يوسف أن يكون لطيفًا معي ويطيعني وإلا فإني سأقوم بسجنه.

(قصيدة بالفارسية تحكي ما مرَّ من قصة زليخا والنسوة مع يوسف واستعفاف يوسف وطهارته ودخوله السجن بسبب ذلك وما في ذلك من عِبَر)[1].

لقد سُجِنَ يوسف ﷺ بجرم الطهارة والعفَّة، ومن هذا يظهر أن مصير شعب مصر كان رهينًا لأهواء ورغبات النساء المهووسات. وتغلُّبِ المذنبِ على البريء، وسُجِن يوسف العزيز وتَرَكَ القدرُ المجرمَ في النعمة والدلال وفي عناده.

سُجِنَ يوسف مع اثنين مُذْنِبَيْن من موظفي البلاط الملكي. انشغل المساجين بجمال يوسف وملاحته عن همومهم. تحول السجن بوجود يوسف فيه إلى حديقة أزهار. جعل وجه يوسف الجميل وأخلاقه الكريمة الحسنة كل من يرد إلى السجن يقول: حيثما وُجِدْتَ يا يوسف، فليس هناك عذاب! كل من رأى يوسف هناك أحبَّه لما وجد فيه من صلاحٍ وخير. لقد كانت

١- لم نترجم هذه القصيدة الطويلة لأنها لا تتضمَّن سوى تكرار للمعلومات الواردة في الفوائد التي ذكرها المؤلف، فضلًا عن أن الشعر يتم فيه كثير من التقديم والتأخير في تركيب الجمل واختيار الألفاظ لتحقيق القافية، وَمِنْ ثَمَّ فإن ترجمة الأبيات ستكون ركيكة لفقدانها جمال ووَزْن الأصل الفارسي وضروراته الشعرية.

علامات الزهد والصلاح والروحانيَّة بادية على مُحَيَّاه. لذلك فإن موظَّفَيْ القصر اللذَيْن كانا قد تعلما العلم، كانا يعرفان مقام يوسف أكثر من بقية السجناء. كان هذان الموظفان مُتَّهَمَيْن بالخيانة وفي خطر الحكم عليهما بالإعدام، لذا كانت أفكارُهُما مضطربةً ولا يهنؤون بنوم ولا يقظة، وكانا يريدان أن يعرفا مصيرهما الذي ينتظرهما. فلما رأيا منامًا ذكراه لذلك الشاب الروحاني:

قال أحد الشابَّيْن: إنه رأى نفسه في المنام يعصر العنب وقال الآخر: إنه رأى نفسه يحمل فوق رأسه طبقًا من الخبز، وأن الطير تأكل من هذا الخبز.

لما قصَّ الشابان ليوسف مناميهما، قام يوسف، قبل أن يفسر لهما المنَامين، بدعوتهما إلى التوحيد.

أوّلاً: أراد يوسف أن يظهر لهما معجزةً دالَّةً على نبوَّته كي يؤمِنَا به إيمانًا صحيحًا فقال لهما: قبل أن يُحضِرُوا لكما أي طعام سأخبركم بمواصفاته قبل أن يصل إلى أيديكما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. هذا إذا اعتبرنا أن ضمير ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ يعود على الطعام. لكننا نرى أن هذا خلاف الظاهر وأن ضمير ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ يعود على الرؤيا. لكن المفسرين لما رأوا أن كلمة ﴿طَعَامٌ﴾ أقرب احتملوا أن يكون الضمير عائدًا عليها [لأن الضمير عادةً يعود على أقرب مذكور]. وعلى هذه الصورة فإن السجينين تعجّبا جدًا من سماع مثل هذا الإخبار بالغيب من سجينٍ. ولما أخبرهما يوسف عن مواصفات الطعام ثم جاء الطعام تمامًا كما وصفه لهما أدركا صدقه، وازدادت محبتهما له أضعافًا مضاعفةً. لما استطاع يوسف أن يلفت انتباههم إليه أخبرهما أن هذا العلم هو مما علمه ربه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾. وعلى عالم الدين أن يراعي في دعوته إلى الدين ثلاثة أمور:

أولاً: من الجيد أن تكون لديه شهادة علمية تشهد بعلمه كي يطمئن الناس إلى علمه. هذا رغم أن شهادة يوسف عليه السلام كانت معجزته، ولم يكن لها أي علاقة بأي شهادة علميَّة.

ثانيًا: يجب أن يكون مؤمنًا بما يدعو إليه،وأن تكون دعوتُه نابعةً من إيمان وعقيدة، لا أن تكون

لمجرَّد الحصول على المال. إن الذي يدعو إلى الإسلام لأجل المال، قد يدعو غدًا إلى دين آخر إذا أعطاه أجرًا ومالاً أكثر! أضف إلى ذلك أنه عندما يكون الهدف من دعوة الداعي كسب المال، فإنه لن يُظْهِرَ الحقيقةَ لأن أغلب الناس لا يرغبون بها، لذلك قال القرآن: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: ٢١]. ومفهوم هذه الآية أن الذين يبحثون عن الأجر فقط، لم يهتدوا أصلاً فلا يمكنهم هداية الآخرين.

وبالطبع لم يأخذ أيُّ نبيٍّ من الأنبياء مالاً من الناس تلقاء هدايته لهم. أجل، كل من يقوم بالدعوة والتبليغ بهدف كسب المال، سيضطر إلى أن تكون دعوتُه وتبليغُه مطابقَيْن لهوى الناس ورغبة المستمعين. وبما أن أكثرَ الناس بعيدون عن الحقّ فارُّونَ منه، فإن مثل هذا الداعية لن يقول لهم الحقيقة. بناء على ذلك يحرم أخذ الأجرة على الدعوة طالما كانت تتضمن مطالب دينية. لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة كالصلاة، ولا بد من نية التقرُّب إلى الله في العبادة ولا يحق لأحد أن يأخذ على عبادته أجرةً ماليةً. أمَّا إذا كان الكلام الذي يُلقى من المنبر كلامًا غير ديني يُبَلَّغ باسم الدين، فهذا بمنزلة الكفر، وحرمته أشدُّ وأبلغ.

قال يوسف مبينًا حسن عقيدته: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. رغم أن شعبَ مصر بشكل عام وهذَيْن السجينَيْن بشكل خاص كانوا من الوثنيين ومن عديمي الإيمان، نرى أن يوسف صرَّح لهما أنه بريء من القوم الذين لا يؤمنون، ولا شك أن عقيدة هذين السجينين اللذَيْن أمضيا سنوات من حياتهما في بيئة وثنية، اهتزَّت بهذه الدعوة، وما لم تهتزّ عقيدة الإنسان فلن يبحث الحقيقة.

ثالثًا: يجب على الداعية أن يكون ذا سوابق حسنة، ومعروفًا بطهارة الحسب والنسب، لأن روحانية الداعية إذا كان منشؤها نسبه الدموي الصالح [كالنسب المحمدي للسادة الأشراف مثلاً] وطهارة الرَّحِم، كانت أوقع أثرًا في المستمعين. لذلك قال يوسف عليه السلام لهذين الشخصين: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾.

وعندما لم تُراعَ شروط الدعوة المذكورة، فإن كثيرًا من الناس المساكين الذين لا علم لهم

بالإسلام ولا بالقرآن دُعُوا إلى الخرافات والعقائد الوهمية، ووصل الأمر إلى أنه إذا قام شخصٌ ببيان إحدى الحقائق الإسلامية، اعتبره الناس كافرًا!!

إلى هنا نبَّه حضرة يوسف عليه السلام رفيقيه إلى أن عقيدة التوحيد موجودة في هذه الدنيا، ولكنه لم ينتقد بعد عقيدتهما، كي يتمكَّن من لفت ذهنيهما إليه. ولكنّه بدأ بعد ذلك بالمقارنة بين التوحيد والشرك.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

الفوائد: قام حضرة يوسف عليه السلام في دعوته بإثبات التوحيد فقط، لأن التوحيد أصل وأساس جميع العقائد الحقَّة. وأتى بدليلين على التوحيد:

١- أن العقيدة الصحيحة يجب أن تسوق الناس إلى الوحدة والاتحاد لا إلى التفرقة والتباعد. أنتم عندما تعبدون آلهةً غير الله أو تدعونها وتجعلونها باب حوائجكم وتتخذون معبودات متعددة توقعون الفرقة والاختلاف في مجتمعكم. إنكم تؤمنون بأرباب متعدِّدين، والأرباب جمع رَبّ، والأرباب المتعددون خطأ. هل الإيمان بأرباب متعدِّدين أفضل أم الإيمان بالرب الواحد الذي خلق كل أولئك الأرباب جميعًا؟ ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٢- إن معبوداتكم ومن تظنون أنهم أبوابُ حوائجكم وملاجِئُكم، هم مخلوقون مثلكم. وقد وضعتم عليهم اسم المعبودات والآلهة، فأنتم الذين أَلَّهتموهم وأنتم وآباؤكم الذين اخترعتم لهذه المعبودات ذلك الاسم والوصف من عند أنفسكم، وليس على ذلك أي دليل مِنْ قِبَلِ الله أو من العقل.

لقد قارن يوسف عليه السلام، بالمنطق الصحيح والدلائل العقلية، بين الشرك والتوحيد. لأنه لا يمكن فرض عقيدة على أحد بالإكراه، إذْ لا قيمة للعقيدة التي تنشأ عن طريق الجبر والإكراه أو

عن طريق التقليد المحض. هل يجدر بالإنسان أن يتذلَّل إلى مخلوق مثله ويعبده ويتملَّقه؟ بالطبع لا.

بعد أن دعا يوسف ﷺ رفيقيه في السجن إلى التوحيد بدأ بتفسير حُلْمَيْهما.

ويظهر من كلام حضرة يوسف ﷺ مع أولئك السجينين أنهما رغم كونهما مشركين وثنيين إلا أنهما كانا يؤمنان بالله، إذ إن يوسف ﷺ قال لهما: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾. أجل، إن جميع من يتوجهون في عبادتهم وأدعيتهم وطلب حوائجهم إلى غير الله تعالى، سواء كانوا من عباد الأصنام أو عباد البشر، لا يؤمنون إيمانًا حقيقيًا بالله الواحد القهَّار، لأنهم يعظِّمون تمثالَ نبيٍّ أو إمامٍ أو عبدٍ صالحٍ، ويقدِّسونه إلى حدِّ العبادة، ويعتبرون وجوده مؤثِّرًا في سعادتهم وخيرهم، كالمشركين الذين كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وَمِنْ ثَمَّ لا يؤمنون باللهِ الواحدِ القهَّار. أما يوسف ﷺ فبعد إثباته لبطلان هذه الأعمال والعقائد الوثنية، أفهمهما أن الله الواحد القهار هو وحده حاكم هذا الوجود، وليس لغيره أي تأثير فيه، لا في التكوين ولا في التشريع، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال وهذا الإله الواحد: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. وأن هذا هو الدين الحق الثابت المُحْكَم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ لكنْ أصحابُ الدكاكين المذهبية المتاجرون بالدين لا يَدَعُونَ الناس يفهمون هذه الحقيقة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤١-٤٢].

الفوائد: بعد أن قام حضرة يوسف ﷺ بالدعوة إلى التوحيد، بدأ يفسر المنامين لرفيقيه، فقال: أمَّا أحدكما فسيكون ساقي الملك، وأمَّا الآخر فسيُحكم عليه بالإعدام وسيُصْلَبُ.

لم يُصَرِّح حضرة يوسف ﷺ مَنْ مِنَ السجينين سيُعدَم ومَنْ سيصبح ساقي الملك، وأخَّر

ذكر الإعدام - في تعبيره للحُلْمين - كي لا يُحزن رفيقيه. ولكن الساقي أدرك بظنه أنه هو الذي سينجو. ولذلك قال له يوسف، إما في اللحظة التي فسر له فيها حلمه، أو عندما أطلق سراحه من السجن، اذكُرني عند الملك، وذكِّرْهُ ببراءتي، كي يتأمَّن تحريري من السجن.

ويعود ضمير فاعل فعل ﴿ظَنَّ﴾ في جملة ﴿ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ إلى الساقي نفسه. أي الساقي نفسه اعتقد أنه سينجو. وأعاد بعض المفسرين ضمير الفاعل إلى يوسف عليه السلام وفسَّر الظنّ على معنى العلم، لكن هذا خلاف الظاهر.

أراد يوسف عليه السلام أن يسعى في تحرير نفسه من السجن بمساعدة الساقي، وليس في هذا أي إشكال.

لكن بعض المفسرين تصور أن هذا العمل من يوسف مخالف لمعرفة الله ويتعارض مع التوكل على الله، واستندوا في تصورهم هذا إلى بعض الروايات التي نقلوها في هذا المجال، ولكننا نرى أن هذه الروايات جميعها مكذوبة وموضوعة. مثلاً رووا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عَجِبْتُ لأَخِي يُوسُفَ كيف استغاث بمخلوق، وَلَوْ لَمْ يَقُل: اذْكرْنِي عند رَبِّك، لَمَا لَبِثَ في السِّجنِ بضعَ سنين»[1].

ونقلوا بعض الروايات التي فيها أن جبريل عليه السلام نزل على يوسف وقال له: يا يوسف! من جعلك أجمل خلقِه؟ قال: ربِّي، قال: يا يوسف! من نجَّاك من البئر بواسطة القافلة؟ قال: ربِّي. قال: من حفظك من الحجارة التي رُميت في البئر؟ قال: ربِّي. قال: من نجَّاكَ من كيد النسوة المصريَّات؟ قال: ربِّي. قال: فما الذي جرى حتى قمتَ بطلب حاجتك من مخلوق ولم تطلبها مني فقط؟ فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين. فشرع يوسف على إثر هذا العتاب الرباني بالبكاء والنحيب وبكى معه بابُ السجن وجدرانُهُ، إلى أن تملَّكت السجناء الكآبة والحزن

١- لم أجده بهذا اللفظ، وقد رُوِيَ معناه بألفاظ مشابهة في أكثر التفاسير، انظر مثلًا: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٦/ ص ١١٢، والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩/ ص ١٩٥. ولفظهما: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين».

من بكائه وأخذ السجناء تعهُّدًا منه أن يبكي يومًا ويسكت يومًا. فكان في يوم صمته يعاني من ألم التفاف الأمعاء ووجع البطن فيكون يوم صمته أشدّ عليه من يوم بكائه!

ولا ينقضي العجب! من هؤلاء المفسرين الذي خُدعوا بمثل هذه الروايات الموضوعة ونسبوها لأجلاء من التابعين وغيرهم.

وعلى كل حال، لم يكن في قول يوسف لرفيق سجنه: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي إشكال، لأن التوسل بالأسباب الظاهرية ليس ممنوعًا ولا يتناقض مع التوكُّل. إن الموحِّد هو من يتمسَّك بالأسباب الظاهرية مع إيمانه بأن مسبِّب الأسباب أي الله تعالى هو المؤثّر الحقيقي، لأن الله هو الذي سخر للبشر كل هذه الأسباب والوسائل. هل هناك إشكال في أن نقوم بوضع كومة الحصاد تحت الشمس كي تنشف؟ هل أَخْذُ المريض إلى الطبيب يتعارض مع التوحيد؟! طبقًا لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] يجب على البشر أن يعاون بعضهم بعضًا في رفع المشاكل عن بعضهم البعض. لذلك يمكننا القول: إن واجب الشخص البريء الذي سُجن بغير حق أن يسعى من خلال الاستعانة بالوسائل الظاهرية إلى إثبات براءته، وأحد هذه الوسائل توكيل محامٍ ليدافع عنه أو ذكر مشكلته للأشخاص الخَيِّرين [الذين يمكنهم مساعدته].

الواقع إن يوسف لم يرتكب أي مخالفةٍ لأمر الله حتى يعاتبه الله تعالى بذلك العتاب المُدَّعى. مثلاً إذا ألقى رجال القافلة دلوًا في البئر لاستخراج الماء منها، فتعلَّق يوسفُ بالدلو، هل يكون قد خالف التوحيد بذلك؟ وإذا مرض رسول الله ﷺ فرجع إلى الطبيب هل يكون قد خالف التوحيد في ذلك؟

إن أغلب الظن أن تلك الروايات الموضوعة، وضعها أشخاص بهدف قراءتها في مجالس قراءة المراثي وإثارة الحماس في تلك المجالس بواسطة مثل هذه القصص المثيرة.

بل إن التوسل بالوسائل الطبيعية يكون واجبًا أحيانًا، كل ما في الأمر أن الموحدين يعتبرون الوسائل الطبيعية مجرَّد آلات للفيض الإلهي، ويؤمنون أن المؤثّر في كل حال وفي كل شيء هو الإرادة الإلهية وحدها.

بعد خروج الساقي من السجن، نسيَ يوسفَ عليه السلام. يقول القرآن في ذلك: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أعطى الله تعالى للإنسان قِوًى جعلها في باطنه وحيَّرت العلماء. من هذه القوى الذاكرة، وضدها النسيان.

قوّة حفظ الذكريات قوّة تُمكِّنُ الإنسانَ من أن يحتفظ في ذهنه بمكتبةٍ كبيرةٍ من الذكريات والخواطر تكفي لملء غُرَفٍ ورفوفٍ بالكتب، وتُمكِّنُ الإنسان أن يستخدمها ويفتح صفحاتها كلما احتاج إلى ما فيها من معلومات، ليستخرج معلوماتٍ من كل صفحة وسطر فيها. وفي هذه المكتبة الذهنية يمكن أن يخزِّنَ الإنسانُ القرآن المجيدَ ومئات الكتب الأخرى. هناك يد غير مرئية تسيطر على صفحات الذكريات وتكتب فيها الذكريات، طبقًا لأوصاف الباطن والفطرة، فتكون ذاكرة الإنسان بمثابة مرآة وصفحة تُنْقَشُ فيها جوانب حياته المختلفة. أين توجد هذه المكتبة الخفية غير المرئية؟ من هم الذين يعملون فيها ويفتحون أبوابها أمام الإنسان عند الحاجة ليضعوا أمامه ما يشاء من متحوياتها؟

تُسمَّى هذه القوة بقوة الذاكرة، وكثيرٌ مما في مكتبتها يتعرَّض إلى الزوال والنسيان بسبب عدم الالتفات إليه. ويوجد لهذه المكتبة غير المرئية التي في باطن الإنسان سارقٌ يقوم أحيانًا بسرقة بعض محتوياتها والذهاب به! هنا سمَّى الله سارِقَ هذه المكتبة بالشيطان وقال: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾، أي أن الشيطان أنسى الساقي أن يقول لسيده: إن يوسف لا ذنب له. إذن ضمير الهاء في كلمة ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ وكلمة ﴿رَبِّهِۦ﴾ يعودان على الساقي.

ولكن بعض الروايات الموضوعة جعلت الضميرين يعودان على يوسف. وقالت الروايات: إن يوسف نسيَ اللهَ وأذهبَ الشيطانُ من ذهنه ذكرَ اللهِ ونتيجةً لذلك عوقب بالبقاء في السجن بضع سنين. هذا في حين أن حضرة يوسف عليه السلام مُبَرَّأٌ من هذه النسبة الباطلة، ومقامُهُ الشامخ أعلى من ذلك بكثير. والدليل على أن الضميرين يعودان على الساقي، أي على المذكور في جملة: ﴿ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أنه تعالى قال بعد عدة آيات: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾، أي أن الذي نجا

من السجن تذكر بعد مدة من الزمن وقال للملك: أرسلني إلى يوسف كي آتيك بتأويل رؤياك أيها الـملك. إذن الذي نسي هو ذاته الذي تذكَّر بعد مدة. وبناء عليه فإن الساقي لم يكن وفيًا، لأنه لم يذكر براءة يوسف عليه السلام عند سيده ونسي أن يُذَكِّرَهُ بذلك.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٣-٤٥].

الفوائد: كان ملوك مصر زمن حضرة يوسف عليه السلام رجالاً بواسلَ شجعانًا ومن الساكنين في الخيام الذين سيطروا على مصر وحكموها، ولذلك كان أهل مصر يعتبرونهم جبابرة محتلين ملعونين. ولما كانوا مكروهين ولم يكن لهم نصيب من العلم، كانوا يولون أهمية لخيالاتهم التي يرونها أثناء نومهم، وكانت تُكشَف لهم بعض الأمور بواسطة الأحلام. كان أهم ما يشغل الـملك الذي يدير شؤون الـمملكة موضوع توفر الطعام وعدم توفره إذ يشكل هذا الأمر أهم مسألة يتعلق بها صلاح الشعب. ومن الـمعلوم أن سِمَن الأبقار أو ضعفها واخضرار السنابل ونضرتها أو اصفرارها يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالقحط والأمطار، وبتوفُّر الأطعمة ونقصانها أو فقدانها.

جاء وصف حُلْم الـملك في الإصحاح ٤١ من سفر التكوين من التوراة على النحو التالي:

«١ وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ. ٢ وَهُوَ ذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْـمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ٣ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْـمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ. فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. ٤ فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْـمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْـحَسَنَةَ الْـمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ٥ ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً. وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ٦ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا.

٧ فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْـمُمْتَلِئَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. ٨
وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا وَقَصَّ عَلَيْهِمْ
فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ. فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعَبِّرُهُ لِفِرْعَوْنَ».

أما القرآن فقد بيَّن بعبارة مختصرة كل ما أطالت التوراة في بيانه.

ظاهر عبارة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ يدلُّ على أن ملك مصر رأى هذا الـمنام أكثر من مرَّة لأنه لو رآه مرَّةً واحدةً لعبَّر عن ذلك بقوله: «رأيتُ». لكنه لما رأى هذا الحُلْم بشكل متكرِّر اهتمَّ به وسعى إلى معرفة تفسيره لأنه أثار في نفسه الخوف والاضطراب.

كان الـمصريون في ذلك الزمن يعبدون الأصنام، وكان العلماءُ الذين يُرَوِّجُون لعقيدة الوثنية وعبادة الأصنام مجموعتين: الـمجموعة الأولى الحكماء والفلاسفة، والـمجموعة الثانية السحرة والـمشعوذين. وكان النبلاء وكبار الـمسؤولين في البلاط الـملكي يُنْتَخَبُون من هاتين الـمجموعتين، ولذلك قال لهم الـملك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾.

كانت مؤسسة علماء الدين تُدار مِنْ قِبَل أولئك الـملأ وكانت مؤسسةً سرّيّةً وكان من واجباتها تفسير الأحلام إضافة إلى عمليات السحر. وكان الناس يعتبرونهم على اتّصال بعالـم الغيب نظرًا لقدرتهم على تفسير الأحلام. وكان الناس يعتقدون بامتلاك أولئك الـملأ لقوّة خارقة أي معجزة استنادًا إلى أعمال السحر التي يقومون بها. ولذلك نجد مثل هذا الأمر في زمننا أيضًا حيث إن الناس بمجرد أن يسمعوا بكلمة رسول أو إمام يتصوَّرُون في ذهنهم أنهم أشخاص يعلمون الغيب ويصنعون الـمعجزات. ولهذا السبب كان الـملأ في ذلك الزمن يخدعون الناس ويُسَخِّرُونهم لمصالحهم، ولم يكن أحد يستطيع أن يصل إلى كتبهم أو مدرستهم. وكان أساس عملهم الخدعة والحيلة وخفة اليد واستخدام بعض الخواص الطبيعية للنباتات ومعرفة كيفية الحصول على النباتات التي تمتلك خواصًا معينة، وما زال أمثال هؤلاء حتى يومنا هذا يأخذون من أموال الناس وأوقاتهم.

كانت مثل هذه الأمور - علاوة على كونها أمورًا خرافية وكرامات كاذبة- وسيلة لتسخير

الناس، وقد أثّرت حتى في الناس العابدين لِلَّهِ، كما نجد أن مثل هذه الخرافات بقيت بأشكال مختلفة بعد انتشار الإسلام.

أرسل فرعون زمن يوسف عليه السلام - كما فعل فرعون زمن موسى عليه السلام - عندئذٍ في طلب علماء القَصْر، ووصف لهم حُلْمَه، فقالوا: إنها أضغاث أحلام ولا علم لنا بتفسيرها.

هنا تذكَّر ساقي الملك يوسفَ رفيقَه بالسجن وأستاذَه في تفسير الأحلام، فقال لفرعون: الآن تذكرتُ أنه لما غضب عليَّ الملكُ وسجنني مع رئيس الخبازين في السجن الخاص بالأفواج، رأيت رؤيا في السجن، وكان معنا غلام عبراني، وقد ذكرنا أنا وغلام رئيس الأفواج الخاصة منامنا له ففسره لنا وكان تفسيره مطابقًا للواقع تمامًا. فأرسِلْنِي كي أُحْضِرَ يوسفَ كي يُفَسِّرَ لك حُلْمكَ، فأرسله الملك إلى يوسف، وهكذا تهيأت مقدمات خروجه من السجن.

وعلى كل حال، كان فرعون خائفًا من منامه ذاك، وقد يئس من تفسير علماء بلاطه لهذا المنام. فاغتنم الساقي هذه الفرصة وقال بنحو قاطع: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾.

سُرَّ الملك من اقتراح الساقي، وأمر على الفور أن يذهب الساقي إلى السجن ليسأل يوسف عن حلم الملك.

كان من شهامة يوسف وسموّ أخلاقه أنه لما جاءهُ صديقه، الذي نسيه، محتاجًا إليه ورجع إليه ملتمسًا العون، سارع بكل بشاشة وجه ودون أن يبدي أي إعراض أو جفاء أو شكاية من حكم سيّد الساقي أي الملك، إلى الإصغاء إلى كلامه. قال الساقي ليوسف: إن علماء البلاط أبدوا عجزهم، ويئس فرعون منهم، فتذكَّرْتُكَ وأخبرتُ الملكَ عنكَ وعن علمكَ، فأرسلني إليك لحلّ هذه المعضلة، وها هو ينتظر عودتي إليه، حاملاً التفسير الصحيح لمنامه.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ
سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي
مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: ٤٦-٤٩].

الفوائد: رغم أن كل سجين يتمنَّى التحرُّر والخروج من السجن بفضائه الضيِّق وَجَوِّهِ الخانق بأسرع وقتٍ ممكن، وأن يتخلَّص من مجاورة المجرمين ويستفيد من فضاء الحياة والحرية الرحب، وأن هذه الفرصة الآن جاءت إلى يوسف المُبتَلَى بهذا السجن على قدميها، إلا أن يوسف لم يتكلَّم كلمةً عن تحريره من السجن. هذا رغم أنه يعلم تمام العلم أن لا أحد سواه يقدر على تفسير هذا المنام وأن فرعون ينتظر بكل شوق هذا التفسير، وأنه لو قال أطلقوا سراحي أولاً حتى أفسِّر لكم هذا المنام لفعلوا، ولكنه لم يشترط هذا الشرط لما يلي:

أولاً: كان متأكدًا أنه عندما ستحل مشكلة فرعون، فإن الأخير سيتطلب لقاءه وسيكون هذا تمهيدًا لإطلاق سراحه.

ثانيًا: لم يكن حضرة يوسف عليه السلام يرغب بأن يخرج من السجن إلا بعد ثبوت براءته. ولذلك سيأتي لاحقًا أنه لما طلب الملك لقاءه قال للملك: أولاً حققوا مع النسوة، كي تثبت لكم براءتي ثم سأعمل في خدمتكم. ولهذا لم يجعل يوسف تفسير منام الملك مرهونًا بتحريره من السجن.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أرسل إليه ليُسْتَفْتَى في الرؤيا، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أُخْرَجَ**»[1].

وعلى كل حال، قال يوسف الخَيِّر الكريم: إن تفسير هذا الحلم هو أنه سيكون أمامكم سبع سنوات من الوفرة والأمطار التي ستأتي بزرع حسن، ثم ستأتي سبع سنوات من القحط والجدب ستستهلكون فيها كل ما اختزنتموه من محاصيل في السنوات السبع الجيدة، وبعد هذه السنوات الأربعة عشر ستعود المحاصيل إلى حالتها الطبيعية الجيدة.

بعد تفسيره الحُلْم أمر يوسف أن يقوم الناس بالإكثار من الزراعة في السنوات السبع الأولى وتخزين ما يزيد عن حاجتهم بترك الحبوب في سنابلها كي لا يصيبها الفساد، ثم يستهلكوا في

١- انظر السيوطي، **الدر المنثور**، وقال: وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذكر الحديث المذكور في المتن.

سنوات القحط والجلف ما خزَّنوه في سنوات الأمطار، إلى أن تعود الأمطار والوفرة في الـمحاصيل. وقال: إن أردتَ أن لا يهلك الناس في مصر من الـمجاعة في سنوات القحط والجدب فعليكم أن تفعلوا هذا الأمر.

الفرق بين الزعماء الدينين والزعماء الآخرين

لا يطلب الأنبياء والهُدَاةُ الدينيون أجرًا على إرشادهم الناس وسعيهم في خير الناس، بل يقومون بذلك لوجه الله وطلبًا لرضاه، وانطلاقًا من حبهم لمصلحة الناس العامة. ويقولون: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

لقد بقي حضرة يوسف سبع سنوات في السجن غريبًا، والآن احتاج له الناس للمشورة وأخذِ رأيه، فقدَّم مشورته دون أي تباخل أو اعتذار ولم يمنعه الظلم الذي وقع عليه من أن يفسِّر منامه للملك. علاوة على ذلك أخبر الـمصريين بخطر القحط والجدب القادمين، وعلَّمَهُم طريقةَ تفادي هذا الخطر، وأمرهم أن يحفظوا الحبوب ويُخزِّنوها إلى أيام القحط، مع أن هذه الأمور هي من عمل وزير الـمالية والتموين والخبراء رفيعو الـمستوى الذين يتقاضون رواتب ضخمة توجب عليهم تلقاء ذلك أن يفكِّروا في إيجاد الحلول لهذه القضايا. لكن حضرة يوسف لم يبخل هنا بمعلوماته السياسية والإلهية وقدَّمها للناس مجَّانًا فداءً للبشرية وبهدف أداء واجبه في خدمة النوع الإنساني.

لكن هذا العمل الصالح والإرشاد الـمُخْلِص الصادق أعطى ثمرته الدنيوية أيضًا بشكل تلقائي، حيث أبدى الـملك على الفور شوقه إلى لقاء يوسف، وهذا من أثر الإخلاص.

[بيت شعر بالفارسية]:

اصنع الـمعروف وارْمِـهِ في نهـر دجلـة ... يـــردُّه اللهُ لـــك في الصـــحراء

لو أن حضرة يوسف طلب شيئًا من البداية لكان من الـممكن أن يؤدي ذلك إلى نتيجة عكسية كما جرَّب ذلك في موضوع تذكير الساقي.

إن موضوع حفظ الغلات مدة سبع سنوات في مخازن خاصة من الـموضوعات العلمية

المهمة جدًا في عالم اليوم، وقد نشأت اليوم مؤسسات ضخمة لهذا العمل مثل مؤسسة أو مديرية صوامع الحبوب. لكنْ في ذلك اليوم الذي لم يكن قد تطور فيه علم العمارة والبناء إلى ذلك الحد، كانت أفضل وسيلة لتخزين الغلات هي ما أمرهم يوسف عليه السلام به من ترك الحبوب في سنابلها.

وفي الوقت ذاته، تنبأ حضرة يوسف عليه السلام لبلاد مصر بتجارة مهمة وهي أن يقوموا خلال سنوات الوفرة والأمطار بزراعة أكبر قدر ممكن من الحبوب كي تأتي جميع البلدان المجاورة -التي ستحتاج إلى الحبوب في سنوات الجدب- إلى مصر وتشتري الحبوب المخزَّنة لديها بسعر مرتفع. وذكَّرهم يوسف أن عليهم أن يحتفظوا بمقدار من هذه الحبوب لأجل استخدامها في البذار، وقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

كان هذا التدبير والخطّة التي اقترحها يوسف للحيلولة دون هلاك شعب مصر خطّة منحصرة به، ولو لم يقترح عليهم يوسف عليه السلام مثل هذا الاقتراح إلا بعد أن يتم اطلاق سراحه من السجن وإدخال العزيز وزليخا فيه بدلاً منه لكان قادرًا على فعل ذلك.

من البديهي أن قوة فرعون السياسية والاقتصادية لم تكن على ذلك الحد الذي يُمَكِّنُهُ من استنباط مثل هذا التدبير الاقتصادي العلمي.

لماذا اهتمّ حضرة يوسف عليه السلام بموضوع الحبوب؟ لأنَّ الحبوب تشكِّل قوت الناس العام بعكس ثمار الأشجار التي لا تؤمِّن حِفْظ حياة عامة الناس، والقمح والأرز من الحبوب التي لها قشرة ويمكن تخزينها ولا تفسد عندما تُخزَّن بقشرتها. ومثل هذا البيان والتنبُّؤ الذي قام به حضرة يوسف عليه السلام لم يكن في متناول أي شخص آخر.

لقد سُرَّ مبعوث الملك بهذا التفسير الواضح للرؤية سرورًا بالغًا، وودَّع يوسفَ بحرارةٍ، ولم يطلب يوسف من رسول الملك أن يُذَكِّرَ الملك بأي شيء. ولكن الملك بعد أن سمع تفسير حلمه اشتاق كثيرًا إلى لقاء مثل هذا العالم الذي تفوّق بعلمه على علماء بلاطه. كما أن العلماء الآخرين الذين عجزوا عن تفسير الحلم، لمَّا سمعوا عن هذا العالم المجهول الذي كان يعيش

في السجن، تشوقوا جدًا لرؤية تلك الشخصية النابغة العظيمة.

من البديهي أن فرعون الذي كان قد خاف كثيرًا من تلك الرؤيا التي رآها وكان يعيش حالة انتظار، سُرَّ من عودة الساقي وتأمل خيرًا، وطلب من الساقي أن يشرح له بالتفصيل لقاءه بيوسف؟ فبين له الساقي تفاصيل لقائه بيوسف بشكل كامل.

عندما سمع الـملك أنه ستأتي على مصر سبع سنوات مُتتالية من القحط والجدب، ارتعدت فرائصه من هذا الخبر وأخذ يفكر بحلٍّ لهذه الـمعضلة.

أجل، يحق لمن أخذ على عاتقه مسؤولية حفظ البلاد والشعب أن يقلق وينتابه الخوف من مثل هذا الخبر. لكنه لما سمع بتدبير حضرة يوسف عليه السلام الحكيم، أصبح كأنما نُفِخَتْ روحٌ في جسده. لكن العَجَبَ تملَّكه وقال: من عساه أن يكون هذا السجين الذي تفوَّق بعلمه على جميع علماء البلاد؟ هل من الجائز أن يبقى مثل هذا العالـم في بلادي داخل الحبس؟ ما هو ذنب هذا النابغة ومن هو سبب بقائه في سجن الدولة كل هذه السنين؟

لقد سمع الـملك من الساقي أنه رأى يوسف قبل عدة سنوات في السجن، فتعجَّبَ من بقاء مثل هذا الفرد في السجن كلَّ هذه الـمدة؟ وقال: يجب أن أرى هذا الرجل العظيم والاستثنائي وأن أدرس قضيته وأن أستفيد من فكره البعيد وعلمه الغزير. ولماذا لم تتم الاستفادة حتى الآن من وجود مثل هذا الشخص بما ينفع البلاد والشعب؟!

ويظهر أن سائر علماء البلاط الـملكي الذين سمعوا هذا التفسير القاطع لحلم الـملك، وسياسته العظيمة تلك، اشتاقوا لزيارته. ولقد أدركوا عظمة يوسف أكثر من فرعون، وأصبحت قصَّة تفسير حلم فرعون، ومفسِّر الأحلام السجين، حديث الـمحافل العلمية في كل مكان.

أصبح خبر التفسير الذي يثير الإعجاب لحلم الـملك من أهمّ الأخبار اليوم، وانتظر الجميع أن تتهيأ الفرصة للقاء ذلك العالـم الـمجهول كي يستفيد الناس من علمه. لذلك أرسل الـملك في طلبه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ

ٱلَّتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ
عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ
حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ
أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ
بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ
لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣].

انتهى الجزء الثاني من تفسير قبس من القرآن

ويليه الجزء الثالث بعون الله تعالى